رواية

المحيط الإنكليزي

فريد رمضان

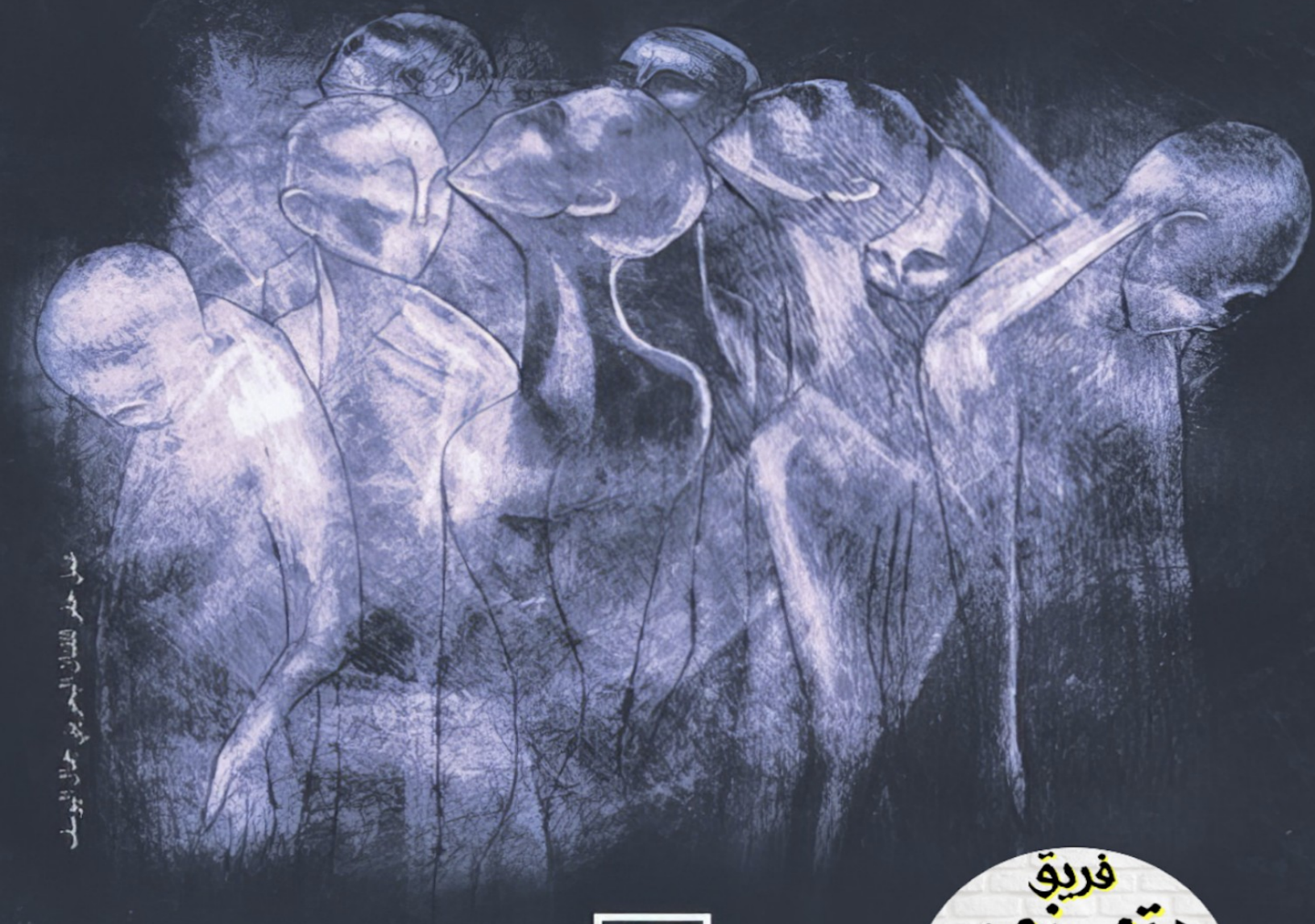

عمل حر للفنان البحريني جمال اليوسف

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المحيط الإنكليزي

(رواية)

فريد رمضان

عن الرواية..

شكلت لي حادثة حقيقية تتمثل في غرق سفينة عربية وقعت في المحيط الهندي وهي تحمل عبيدًا، منطلق أول للبناء السردي لتكشف لي عن حجم أحلام التبشير والتنصير بالمسيحية في شبه الجزيرة العربية وارتباطها بشكل عميق مع الرق والعبودية.
وشكلت الحروب القبلية وتجارة الرق في مكران مسار زمني آخر عبر اختطاف شاب بلوشي وبيعه في مطرح، تسير الحكايتان بشكل متواز حتى يلتقيان في مسلك واحد يجمع من تبقى من شخصيات العمل الروائي في الفصل الأخير، بعد تحولات وإقامات وهجرات البعض، وتبدل اديان البعض الآخر من الهند ومكران وغوادر والمنامة ومطرح ومسقط وجدة ومكة وصولا إلى أرض القرنفل؛ زنجبار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء..

إلى أمل ومحمود وريم
معاً على الْـفُـلْـكَ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

{وكان الإِنسان أكثر شَيْءٍ جدلا}

قرآن كريم سورة الكهف 54

"ارتفعوا إلى النجوم،
وقالوا إنهم لا يسقطون."

المزمار الأول الآية الخامسة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
غضب البحر

- 1 -

أصوات طبول تُقرع في مكان ما في تلك الليلة المدلهمة من العام 1896م. تحملها ريح متناوحة في المحيط الهندي، وجدت غايتها على هذه السفينة التجارية المبحرة بسلام في طريقها نحو بحر العرب.

جلس الرُّبّان العُماني عبد الله بن حمود التوانقي كعادته على سطح السفينة المرتفع بجانب المؤخرة. وهو رجل دحداح البنية، ذو وجه دائري. أشعل أرجيلته ومدّ قدميه الباردتين دائماً أمام موقد نحاسي تشتعل فيه الجمرات ليستشعر الدفء. وهو في مزاج لا يسمح له بمجاملة مساعديه الذين يجتهدون في مسامرته حول أحوال بلاد تركوا ميناءها منذ ليلتين أو أكثر، أو عن أحوال بضائعه من التوابل والقرنفل والخرز والعاج وقرون الكركدن وأصداف السلاحف والأخشاب وزيت جوز الهند والحرير، أو ارتفاع أسعار بضائعه الأخرى السرّية المخبأة في القبو.

شَخَصَ بعينيه الضيقتين نحو السماء، حَكَّ أنفه المارن بسبابته وبدأ ينصت بوجلٍ لأصوات الطبول ويحاول أن يتبيّن مصدرها وسط هذا الليل الدامس. أصواتٌ تُسيِّرها رياح مثل رسول الإشاعات الكثيرة. تناول الطَّاس وسكب الماء الذي فيها على جمر الأرجيلة. وقف مرتاباً، فَزَّ معه مساعدوه مطلق وجَبّار ونزنجي الممباسي. انتظروا منه إشارة أو أمراً ما، إلا أنه أشار لهم بالبقاء في مكانهم.

سار بخطى خفيفة بين بحارة نائمين، وآخرين يداعبون أحلامهم في كسلٍ واضح. نزل باتجاه مقدمة السفينة وسحب من تحت حزامه الجلدي حيث يسكن خنجره المعقوف مجهراً وأخذ يحدّق في هذا العتم نحو السماء. ولم ير شيئاً. القمر الذي لمَحهُ عند المغيب ظاهراً اختفى، وليس للنجوم آية، والسكون الموحش ممتد من ماء المحيط حتى قباب السماوات السبع.

استفسر مطلق عن هواجس الرُّبّان من زميله جَبّار الذي لم يعلّق. أما نزنجي فقد همس لصاحبيه؛ إن هواجس سيَّدهم ليست إلا تحسباً من مخاطر سفن حربية تجوب المحيط في حملات تفتيش أمست منتشرة في المنطقة الواقعة بين ساحل القراصنة وأفريقيا الشرقية، تحت مسمّى «الانعزال الجميل». وكأن مصير هذا الطريق البحري أن يكون ساحة حرب بين نهار وآخر. وشْوَشَ مطلق لنزنجي: ربما هو قلق من سفن عربية أخرى. وردّ عليه: لا أظن ذلك. إن سيدنا يحدس بشيء آخر.

تقدم الرُّبّان عبد الله التوانقي وهو يعبث بلحيته الكثة المصبوغة بالحناء نحو مساعديه وقال لهم بوجل:

هل تسمعون قرع الطبول؟ وأنت يا نزنجي، ألم تخبر مثل هذا الصوت من قبل؟

عن أي صوت، وأي طبول تتحدث يا سيدي؟

ردّ عليه نزنجي وهو يلعب بحلق من العاج مثبت في شحمة أذنه اليسرى. وأكد جَبّار:

لم نسمع شيئاً يا سيدي.

إن العواصف لا ترسل كتائبها إلا ويسبقها قرع الطبول. لِنُعِدَّ أنفسنا لهول قادم ربما لن نخرج منه.

لم يصدّق مساعدو الرُّبّان ما يقوله هذا الرجل الذي عرك المحيط، منذ أن كان شاباً يرافق والده الرُّبّان حمود التوانقي، قبل أن يراه يغرق في أهواله، ويتركه يتيماً مع جواخ فوق قارب نجاة صغير. رمتهما الأمواج آنذاك بعيداً عن تيار الريح العاتية، بعد أن ضربت سفينتهم وسحبتها إلى قاع المحيط. هذا الصوت الذي لم يسمع مثله منذ تلك اللحظات القاسية في ذلك الزمن البعيد.

وَقَدَ الآن صوت الطبول في أذنه شيئاً فشيئاً بيقين لا شك فيه. سفينةٌ كلما تسمع هَيْعَةٌ تصاب بالفزع. بسط الرُّبّان رجليه، وطلب من مطلق لَفَّ قدمه بقطعة قماش، لمعاناته من مرض غامض يجعلها باردة كأنها منقوعة في ماء صقيع. وبدأ إعداد نفسه لمفاجأة غير محسوبة العواقب. ثم قال لجَبّار ونزنجي:

أيقِظا البَحَّارة، أرخِيا حبال الأشرعة، واربطا الدفة بقوة كي لا نضيع.

طالعه مطلق وهو يلَفُّ قدمه، وقال له:

ننتظر قليلاً للبحر علامات يا أبا حمود. ونحن لا نرى سوى بحر ميت تماماً، تندر فيه الرياح والتيارات الهوائية، وإن في أوامرك خوفاً وروعاً نحن في غنى عنهما.

وفي لحظة مفارقة لم يعتادوا عليها قدحت عين الرُّبّان عبد الله، وزجر بقوة:

لن يمهلنا البحر. القمر في مخبئه، ولن يشهد ما سيحدث. اذهب يا نزنجي وتأكد من ربط البضائع، واجعل أغلاها ثمناً في مأمن. ولا تترك عبد اً أو أمةً إلا وشددت القيد عليه بالسلاسل والحبال. وأنت يا جَبّار افعل ما أمرتك به مع البَحَّارة، وأشْرف على قيادة الدفة بنفسك.

توجَّه نزنجي بسرعة نحو قبو السفينة. أشعل قنديلاً في يده ونزل. مستودع بطن السفينة مقسم إلى أربعة أجزاء؛ الأول خصص للبضائع كبيرة الحجم

مثل عاج الفيلة وقرون الكركدن وشجر السندروس وبعض الجلود والأبواب الخشبية المنقوشة بإتقان يبرع فيها أهالي البانيان والبارسيون في زنجبار. في حين خصص القسم الأصغر لتخزين الخرز والأحجار الكريمة والتوابل والقرنفل في صناديق وُضعت عليها أقفال حديدية ثقيلة. وخصص القسم الثالث للمؤن وصفائح الماء العذب. أما في المساحة المتبقية فقد قُيِّدَت فيها مجموعة من الفتيان والفتيات العبيد الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام وتسعة عشر عاماً بحبال مربوطة وسلاسل حديدية. متزاحمون في ثلاثة صفوف، ويشرف عليهم رجل عجوز من مومباسا يلقب بالجواخ، يتقن اللغة السواحلية والبانتو والعربية والفارسية والسنسكريتية. ويقوم بمهمة حراسة محتوياته من البضائع والعبيد، ويحرص على توفير وجبة واحدة في اليوم من دقيق القمح وحبوب الدخن المسماة بذيل الثعلب مع طاسة من الماء الصالح للشرب تدفع لهم مرتين ليرتووا بها. ويجرّهم نحو ركن قريب لقضاء حاجاتهم من وراء ستار، ويساعد بعض الإماء على تبديل الخِرق المبللة بدم الحيض وغسل المتسخة منها بماء البحر. وينظف من يتبرز في مكانه دون تذمّر أو غضب.

اقترب نزنجي بعد تأكده من سلامة كل شيء نحو هذا العجوز الجالس في وضعية الصلاة، ممسكاً بمسبحة طويلة، ومتمتماً بلغة لم يسمع مثلها نزنجي من قبل. جلس قربه وسأله عن حاله، إلا أن الرجل ظل في سكونه للحظة حتى لكزه نزنجي مستفسراً، فرفع الرجل رأسه وقال له:

ألا تسمع؟

أسمع ماذا؟

صوت طبول الريح!

أنت أيضاً يا جواخ.

قال نزنجي للرجل مستغرباً، إلا إن جواخ استرسل قائلاً:

إنها ريح الدابة، تهبُّ علينا قبل أن يظهر المستور. البِحار تستنجد والموجُ يفور، وإننا على الصعب مقبلون. منا من سينفجر بطنه، ومنا من سيخرج منه الدود وهو حيّ، ومنا من سيعشش فيه القمل وهو ميت. لقد صليت لإلهي الحكيم أهورا مزدا وأوقدت نار الحكمة إلا أن الشيطان أطفأها. اخرج يا نزنجي وقل لسيدنا أن يكبّر ويهلل ليستعطف علينا رب المسلمين. ماءٌ يمرجنا في نارٍ، وملح جمر يذيب قلوبنا. غادرنا مرفأ زنجبار ولم نُطهّر السفينة بدم الأضاحي. هنا في القبو يا نزنجي أخفى سيدك سحرٌ عظيم، ربما هو كتابٌ

ملعونٌ أو مسحورٌ، وربما هو حجرُ اللعنة الذي لا يجرؤ أحد على حمله فوق ماء البحر.

لم يكمل الرجل كلامه حتى سمع الجميع تعتعة قوية هزت السفينة كلها، فتساقط العبيد المقيَّدون على بعضهم البعض، وفقدَ نزنجي توازنه فاستند إلى الجدار. ومع صياح الفتيات والفتيان المقيَّدين في حبالهم وسلاسلهم، شعر بالتوجس والقلق مع تمايلها. بحث عن القنديل الذي لا يعرف أين وقع منه. لمحه ملقى قرب جسدٍ جواخ الذي فقد وعيه أو أصيب بمكروه جرّاء قوة الاهتزاز. دنا منه مستفسراً: عن أي شيء تتحدث يا جواخ؟.. جواخ؟ ولكن الرجل لم يكن يبدي أي حراك مما أثار عجب نزنجي. طلب من العبيد المقيَّدين الكف عن الصراخ علّه يستطيع فهم ما يحصل، فربما هي موجة تائهة ضربت السفينة أو لعلها اصطدمت بشيءٍ ما.

لم يسعفه الوقت للتفكير بما وقع في القبو، وما يحدث على سطح هذه السفينة الكبيرة التي قضت أكثر من عشرين سنة وهي توغل في البحر وتعبر المحيطات مثل حصان يدك بحوافره مسافات الليل والنهار بين أرض الهند وأفريقيا. ازداد اهتزازها وتمايلها حتى أدرك بخبرته أنها تجمح. ترتفع عن سطح الماء ثم تهبط وتضرب بقوة، وتقعقع بعنف وشدة.

تمسّك نزنجي جيداً بجدارها وسار باتجاه المخرج. ترك الفوضى المنتشرة من تكالب الصناديق والخشب والعاج. بدأ الماء يتسرب من القاع، فقبض على السُّلم الخشبي جيداً مستعيناً ببنيته الجسدية القوية حتى وصل السطح غير منتبه لذلك الضوء الأحمر الذي يشع من أحد الصناديق المقفلة بقفل حديدي متين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

لم يصدّق نزنجي ما يراه، كل شيء بدا مضطرباً، طريداً، منفلتاً، ضائعاً. لم يكن ليلاً ساكناً كما تركه قبل أن ينزل إلى القبو. رأى في السماء ناراً عظيمة تعم الأفق، وتكشف للبَحَّارة والمسافرين حجم الموج الهائج الذي يفوق طولاً الجبال العالية. موجٌ عاتٍ يرفع السفينة ثم يتركها لمصيرها المُدَوّي على سطح البحر، فيفلق خشبها ويكسر دقلّها، يحيل شراعها إلى رماد بعد احتراق سريع ينثر لهيبه على البَحَّارة، فيحترق من يحترق، ويرمي بنفسه من يجد في ماء البحر طوق نجاةٍ من النار ليموت في قعر المحيط. امتزج خوف البَحَّارة بصراخ متفرقٍ. رجالٌ شهدوا بخبرتهم أهوال البحر، فتجاسروا لكبح جماح سفينةً غدت مثل قَشَّة تلعبُ بها الأمواج بين شدِّ الحبال والسيطرة على دَفَّتها.

لمح مطلق وهو يستقبل سهماً نارياً لم يعرف من أي سماء انطلق ليصيبه في صدره ويقذف به في المحيط. بحث بسرعة عن سيده الرُّبّان عبد الله ولكنه لم يره. نادى بصوت عال لعل أحداً يسمعه من هؤلاء البَحَّارة المشغولين بسلامة أنفسهم، بعد تيقّنهم من غرق السفينة. قبض نزنجي وبدون تفكير على حبلٍ طوحت به الريح يميناً وشمالاً. وبسرعة فائقة اسْتَلَّ خنجره الذي لا يفارقه وقطعه قبل أن ينفلت منه، لفّه بسرعة حول خصره مدركاً حاجته إليه في هذه اللحظة العصيبة. أخذ جهة ميلان السفينة وسار معتمداً على قوة احتماله وعدم فقدان توازنه. سار حيث مجلس الرُّبّان، لمحه وقد ربط جسده بحبلٍ شدَّه من خلال فتحة أحد المجاديف ونصف جسده العلوي يتدلى بين سطح السفينة وخارجها. بصعوبة بالغة ربط نزنجي حبله بفتحة أخرى قريبة من الرُّبّان وسحبه داخل السفينة. صُعِقَ حين لمح وجه الرُّبّان وقد احترق بالكامل. جلدة الوجه منزوعة وتتدلى في أطراف متفرقة بين جبهته وطرف خديه. شكَّ نزنجي في موت سيده، ولكنه تراجع عن ظنونه حين سمع منه آهة خافتة حاول كبتها. أدرك أن خلفها ألماً حاداً لا يجرؤ الرُّبّان على إظهاره أمام عامله. جاء الصوت باهتاً يسأل:

من أنت؟

أنا نزنجي يا سيدي، السفينة تغرق.

أنا عميت يا نزنجي.

كيف أساعدك يا سيدي؟

لا عليك مني. اربط جسدك كي لا تُقذَف في اليمّ.

قد فعلت ذلك ولكننا نفقد البَحَّارة.

أين مطلق وجَبّار؟

مطلق أخذه الإعصار، ولا أرى جَبّاراً.

من يمسك بدفّة السفينة إذن؟

لا أحد يا سيدي.

ليحفظنا اللّه. تشهّد يا نزنجي، واترك الأمر لصاحب الأمر، وآمل أن يجمعنا في الأرض المقدسة.

ولكن وجهك؟

هذا الهول الذي سمعت صوت طبوله يا نزنجي. ليس هناك من شيء نفعله. ثمة لعنة حملناها معنا من أرض أفريقيا وهي تعلن الآن عن غضبها.

ريح متناوحة، زفزافة، تعصف بالسفينة وتقذف بها يميناً وشمالاً حتى بات يسمع صرير المسامير وهي تتحلل وتتفكك من جسدها. كل موجة رهيبة، ترتجل موجة أكبر منها. كل جسد مضرج بالدم يسحبه اللُّجُّ نحو قاع لا نهاية له. ظلا قرب بعضهما البعض. يشتد الخوف بنزنجي وهو يرى سيده يحتضر أمامه، والسفينة توشك على التفكك والغرق. أدرك أنهما ميتان لا محالة. خارت قواه وضعفت واستسلم لقدره مثلما فعل الرُّبّان، ومثلما ضاع أصحابه في اليَمَّ والعذاب الأليم. وفي أفق النار المشتعلة في السماء لمح شيئاً يشبه طائراً عملاقاً يحلّق فوق السفينة، لم يعد يدرك ما يحدث أهو واقع أم هي تخيلات ما قبل الموت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

ضاع صراخ الْفِتْيَة المقيَّدين بالحبال والسلاسل مع اشتداد صوت الريح. ومع ارتجاج السفينة كانوا يتطايرون كالصناديق المنفلتة من قيدها. تشبثت الفتيات وسط هذه الفوضى بأي شيء يمكن أن يساعدهن على النجاة. بعضهن يدفع البعض الآخر والأصوات تتداخل في لغات مختلفة؛ سواحلية وبانتو ولغات أخرى من عمق تنجانيقا. أما من لم يفلت من قيده فكان جسده يرتطم بضلوع السفينة وهي تتفكك ويفطس في مياه المحيط التي تدفقت وغطّت نصف القبو.

استطاعت موانتي وهي شابة في الثامنة عشرة، قوية البنية، عريضة العظم، بعد محاولات جسورة من صراعها مع القيد وتفكك الخشب وتمزق ملبسها من الإفلات من العمود الذي قيِّدت به. اندفعت عارية نحو صبية في الثانية عشرة من عمرها هي نواتي المستسلمة لمصيرها بعينين جاحظتين وسحبتها بشدة. تقدم لمساعدتها مباندا الولد ذو التسعة عشر عاماً الذي استطاع أن يتخلص من قيده هو الآخر، وتمكن من انتشال هذه الصبية قبل أن تغرق. وجد مباند طفلاً علق به من الخلف خوفاً من الموت. وحاول بعد شعوره بالاختناق فك يده، ولكن أتور غرس أظافره في رقبته.

أما كنجي ومسالمي فقد تشبّثا بسقف القبو الذي انفتح من شدة الريح. ثبّتا نفسيهما فوق جثة جواخ، دافعين بقامتيهما الطويلتين نحو الفتحة يلتقطان ما تيسر لهما من هواء يساعد رئتيهما على التنفس. في هذه اللحظة الصعبة شهدا بعض الفتيان والفتيات يلفظون أنفاسهم الأخيرة. أجسادهم تتلاطم بالصناديق المخزَّن فيها الخرز والأحجار الكريمة والتوابل والقرنفل. تناثرت الفصوص، وطفت فوق الماء مع كل شيء: أجساد ميتة، وصناديق خشبية.

لم تكن سيرة البحر الغاضب قد أخذت الليل كله، فمع اختفاء صوت قرع الطبول، بدأ غضب الموج يستريح من جموحه، ويرمي بين لحظة وأخرى موجة تعيد فوضى حياة من بقي حياً حتى أضحت مهشمة ومتعبة، وغير قادرة على مقاومة أي هجمة شرسة أخرى. سفينة أسلمت نفسها بعد مقاومة باسلة وتاريخ طويل من الإبحار بين أفريقيا والهند لتختبر إعصاراً مثل هذا. لم يستمر طويلاً ولكنه كان كفيلاً بتحويلها إلى مقبرة عائمة، تسرَّب فيها الماء، وفَكَّكَ ضلوعها المصنوعة من خشب الساج الهندي القاسي، وتركها هائمة في ليلٍ انقضى ببطء.

وبدأت خطوط الفجر الأولى تنثر ألوانها الهادئة على بحر المحيط، مشحونة بالهواء النقي الذي ساعد من نجا في استنشاقه ليستعيد بعضاً من قواه التي فقدها في مقاومة شبه خاسرة لم يخرج منها إلا لحكمة غامضة. رمت

السفينة لوعتها بمرارة، بصاريَتها التي لم تعد دليلاً لشراع أو راية. هدأ صراخ من يحتضر أو يوشك على ذلك، وحلّت محلّه آهات خفيفة لمن أخرجه القدر من الموت بجروحٍ خطيرة سببت له آلاماً. حلّقت النوارس فوقها مستكشفة آثار معركة في محيط يبدو الآن مسالماً ورحيماً. طيور يمكنها سرد وقائع حرب لم تشهدها، ولكنها ترى نتائجها على سطحها، وهي تحوي جثثاً وضحايا لم يكن لهم من يغيثهم فضاعوا على الفُلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

غادرت البارجة الإنكليزية «فيكتوريا» سواحل جزر سيشل قبيل الفجر في طريقها نحو بحر العرب. أثار تحليق سرب من النوارس وسط المحيط شكوك الجندي ماثيو، وهو المغرم بدراسة هجرة الطيور، خاصة المستوطنة منها في القارة السوداء. ظل يمارس عمله الاعتيادي وعينه لا تفارق هذه الحركة غير الطبيعية. حاول تخمين سبب تحليقها في الجهة الشمالية من وجهتهم. ودفعه تيقُّنه من وجود شيء ما يطفو إلى أن يتوجه لقبطان السفينة بردلي جونسون وإخباره بشكوكه، خصوصاً أن التحليق في منطقة لا توجد فيها يابسة قريبة أو جُزر. وجَّه القبطان أوامره بمراقبة المنطقة حتى جاءه الرد بوجود جسم لسفينة أو بقايا حطام سفينة مازالت تقاوم الغرق على بعد أميال من موقع إبحارهم مما أثار القبطان والبَحَّارة العسكريين. فالجوّ صحو، ولم يتم رصد أي حركة غير طبيعية لاحتدام الطقس أو هبوب رياح غير موسمية أو غضب إعصار قد يتسبب في هلاك سفينة.

ومع اقترابهم، لم يصدّق البَحَّارة العسكريون بمن فيهم ماثيو ما رأوه. سفينة تجارية كبيرة، تبدو كأنها قد تعرضت لقصف مدفعية. أدخل المنظر الهلع في نفوس البحارة من احتمالية وجود بوارج حربية فرنسية أو برتغالية أو سفن عربية يمارس رَبابِنتها القرصنة في هذه المنطقة. تأكد القبطان بردلي أن السفينة لم تتعرض لطلقات مدفعية، ولكن أثر الحريق الظاهر في مقدمتها يؤكد دون شك تعرّضها لحريق مدمر كاد يقضي عليها من خلال علامات واضحة في انكسار الصارية، وتمزق الأشرعة واحتراق ما تبقّى منها.

حطت طيور النورس فوق جثث تعوم قرب السفينة المنكوبة. وأيقن القبطان أن جميع ركابها ومشغليها قد ماتوا، وأن حكايتها ستظل لغزاً. طلب من جنوده كل حسب تخصصه تسجيل وتوثيق ما يرونه من أثر للدمار إلى إحصاء عدد الجثث الطافية فوق المحيط والمتناثرة فوق سطح السفينة، إضافة إلى حجز ما عليها من أغراض وأدوات وسلع، وتدوينه في تقارير. نزل الجنود والبَحَّارة على سطح السفينة المنكوبة، وغاص آخرون لانتشال الجثث الطافحة فوق سطح البحر. تقدم ماثيو وهو يرى لأول مرة في حياته سفينة تكاد تكون مثل صندوق الموت، انقطع عنها الزمن في لحظة قاسية. سفينة أوت حَيَوات عديدة، وموتى دون ذكريات.

كيف قادهم مصيرهم إلى مأساة كهذه؟ تساءل وهو يخطو باحترام رصين بين الجثث. سمع صوتاً خافتاً يصدر من جهة ما. توقف للحظة ليتأكد، ثم بدأ بتتبُّع مصدره. كان أنيناً مصحوباً بنشيج عميق يكاد لا يسمع. تَلَبَّث أمام مصدر الصوت، شَكّ في سمعه إذ لم يكن أمامه سوى جثتين فَاضَتْ روحاهما بعد

معاناة كما يبدو. نظر حولهما قبل أن يخطو مبتعداً. تجمد لمنظر يد تهتكت جلدتها، وبانت عظامها، وهي تقبض على كاحله بقوة. صرخ من الخوف. التفت بعض الجنود القريبين منه. تأكد أن الصوت يخرج من حنجرة هذا الشاب الأسمر. انحنى نحوه، شعر بأنفاسه البطيئة والمتقطعة. حاول تحريكه، ولكنه تفاجأ برأس حاد من الخشب مغروس في خاصرته.

نادى الطبيب المصاب بلوثة عقلية بسبب الوحدة والهدوء في جزر سيشل. نزل معهم على ظهر السفينة وهو يتقافز فرحاً ويشعر بالحيوية أمام العمل الوفير الذي عليه القيام به الآن! ترك جثثاً يعاينها وتوجه مسرعاً نحو ماثيو بحركات راقص الباليه. تأمل حالة هذا الشاب وطلب المساعدة من الآخرين ليتمكنوا من إنقاذه. فتح الشاب الأسمر نزنجي عينيه، وقال مخاطباً باللغة السواحلية:

أسعفوا الرُّبّان.

بحث الطبيب عن ماثيو، وقال له:

أخبر القبطان أن رُبّان السفينة على قيد الحياة.

ثم وجَّه كلامه لنزنجي:

سوف نحملك إلى سفينتنا لنتمكن من علاجك. سيشتد الألم ولكن عليك أن تتحمل قليلاً. فلا تكون مثل أصحابك الذين تَثِبُ على صدورهم الطيور وتمزقها.

تصفح نزنجي الوجوه حوله، ولم يكن يعرف متى أو كيف انغرس هذا الخشب الحاد في خاصرته. أشار باتجاه الرُّبّان الذي لم تظهر عليه علامات الحياة، وكرر لهما مرة أخرى: أسعفوا الرُّبّان. انتبه الطبيب إلى الجسد المُتكَوِّم على نفسه وقد احترقت أجزاء منه، أداره بحذر ليمدده على ظهره. هاله الوجه المحروق بالكامل والعينان المفتوحتان. انحنى ماثيو قرب الرُّبّان، لمس يده بعد صمت، ولم يبذل جهداً لمواساته فهو يعرف أن الذي أمامه ليس بحاجة إلى مَن يواسيه. ظل يتأمله وهو يستشف ما حصل له. تقدم المسعفون ونقلوا نزنجي لفيكتوريا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

توجَّه الطباخ الإنجليزي صاحب الكرش الكبير مسرعاً نحو القبو حيث المخازن والأطعمة والبضائع، يبحث فيها كعادته حين يأسرون سفناً مجهولة تشتغل في التهريب أو القرصنة. أصيب بالدوار ما إن فتح باب القبو نتيجة انبعاث رائحة نتنة خانقة تريد منفذاً للتحرر. انتظر قليلاً حتى تتسرب النتانة إلى الخارج، ثم نزل حيث الماء الميت الثقيل والمُشبع برائحة جثث العبيد الذين لقوا حتفهم وهم مقيَّدون بالحبال والسلاسل. لم يشعر بالرأفة تجاههم بقدر ما تأكد صدق حدسه: هذه السفينة تحتوي على بضائع ثمينة وربما بضائع مهربة. بدأ بالسباحة بعد استشعاره أن المياه المتسربة كادت تغرقه، يسبح بمحاذاة الجدار الخشبي، وعيناه تبحثان عن مبتغاه. لمح فتاة سوداء هي نواتي ترمقه بعينين جزعتين. حاول أن يدنو منها، وكانت مثل حيوان جريح مستسلم لمصيره. أشارت بيدها نحو موانتي الشابة ذات الثمانية عشر ربيعاً والتي أنقذتها وهي مُتكَوِّمة تخفي عريها. خلع الطباخ معطفه الأبيض ومدّه نحوها. الفتاتان شعرتا بالأمن، وقامت موانتي بتغطية صدرها بمعطف الطباخ تاركة جزءها السفلي مكشوفاً تحت الماء الآسن.

لم يكن صعباً عليه أن يكتشف الأحياء بين هؤلاء العبيد الذين تم شحنهم للبيع كرقيق من ميناء زنجبار أو مومباسا. لمح الصبي أتور وهو يلوِّح بقضيب معدني صدئ مهدداً به من يقترب منه، فتركهم ليشعروا بالأمان. سبح مواصلاً بحثه عن غرفة التخزين، رأى صناديق خشبية تتمايل فوق الماء وقد استند على بعضها كل من كنجي ومسالمي. وأدرك أن هذه السفينة المنكوبة تحتوي على أكثر مما يستطيع اختلاسه دون علم القبطان. وعليه إخطارهم باللقى المتناثرة. عاد أدراجه نحو المخرج وهو يطمئن هؤلاء العبيد الناجين بلغته الإنجليزية دون أن يفهموها. وحين تأكد مسالمي من خروج الرجل الإنجليزي، نظر أسفل الصندوق الجالس عليه، ورأى الضوء الأحمر يشع من فتحاته، تلاقت نظرته مع كنجي لأنهما يعرفان سرَّ هذا اللون الباهر، وينبغي عليهما إخراجه وإخفاؤه عن العيون كي لا ينشف ضوء عيونهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

استطاع قبطان البارجة فيكتوريا بردلي جونسون نقل الجرحى الذين لم يكونوا سوى الرُّبّان عبد الله التوانقي ومساعده نزنجي وثلاثة بحارة آخرين. إضافة إلى ثلاثة عشر ولداً وبنتاً من الرقيق مع مجموعة من البضائع، وطائر من فصيلة الببغاء الأفريقي. وتصرف القبطان مع جثث الموتى بحسب النواميس المتبعة، فهو لا يستطيع حمل كل هذه الأعداد من الموتى المُشوَّهين إلى أقرب مرفأ. وفيكتوريا سفينة غير مهيأة لشحن الموتى ونقلهم. كما أن هؤلاء الموتى ليسوا سوى أرواح سريعة النسيان. وكان جازماً في ذلك: مجموعة من تجّار العبيد، وعبيد نسيَتْهم قبائلهم؛ لذلك جاء قراره بالصلاة عليهم وربطهم بسلاسل يمكن الاستغناء عنها، وبحبال الأشرعة، وشدّهم إلى أثقال تسمح لهم بالوصول إلى قاع المحيط، فتغادر أرواحهم إلى حيث تريد متحررة من تعب الحياة.

وما إن انتهى الجنود والبَحَّارة من إنقاذ الأحياء ونقل البضائع حتى نفّذوا أوامره فيما عصى البعض الآخر التعليمات وتمنّع. ظل ماثيو يرى في عيون الموتى ذلك الروع الذي استوطن معدته وجعله لا يتوقف عن التقيؤ. ولم يقترب ماثيو من قمرة الطوارئ المخصصة لإسعاف من تمَّ إنقاذه من قبل الطبيب الأحمق، والذي أعادت له هذه المهمة صوابه. وقضى نهاره ملتزماً سريره، يحدق في المحيط الهندي ويفكر في الببغاء الأفريقي، ثم ذهب واستأذن القبطان في إبقائه عنده لحين وصولهم إلى أقرب مرفأ. سأله: هل تجيد البيطرة؟ فأخبره عن علمه وولعه بالطيور فقط.

ببغاء رمادي اللون له ذيل أحمر، مصاب بجرح غزير تحت جناحه. خمن ماثيو أنه صغيرٌ وأن عمره أقل من عامين، ولو توافرت له الفرصة لتدريبه سيكون طائراً ناطقاً. قضى وقته يعالجه ويحدثه بلغة إنجليزية لا يفقهها، ولم يستجب لها. لاحظ ماثيو أن الطائر مصاب بحالة غريبة، إذ يهز رأسه يميناً ويساراً ثم يرمي بنفسه مثل مجندل! بدأ يدوّن كل ما يراه، لاسيما مواعيد الصَّرَع حين تنتابه. واكتشف أنه يفعلها كل يوم مرتين؛ الأولى بعد انتصاف النهار، والثانية عند الأصيل، قبل غروب الشمس بقليل. ينظر إلى ساعة الجيب ويتأكد أن دماغ هذا الطائر الذكي يستدل على ثوابت يعجز عن فهمها أو فك طلاسمها. رسمه في عدة وضعيات، وهو ثابت مثل من يفكر، وهو يهز رأسه يمنياً ويساراً، وهو صريع ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة.

في تلك الليلة دخل في دوامة حلم غريب. رأى نفسه يتدحرج من قمة ثلجية في مدينته ليفربول، مطمئناً أن والدته تقف أسفل القمة استعداداً لتلقفه، وهو مُكَلَّلٌ بالتاج البريطاني. يبتسم وهو يشعر بطاقة الرياح الباردة جداً وهي

تتخلل مسام جسده. يرى الأشياء تكبر وتتضح مع شعور غامر بالسعادة حتى شاهد أمه تبتعد عنه غير مكترثة له. صرخ مرعوباً واستيقظ من مغص في بطنه. شعر بارتجاع في معدته. وانتبه لحظتها إلى الطائر الجريح وهو ينظر ناحيته. وتيقن أنه قد شاركه هذا الحلم الغريب الذي سينسى تفاصيله، كما سينشغل عن هذا الطائر بعد حلولهم في أقرب مرفأ يطل على هذا المحيط الواسع.

طرق ماثيو باب المقصورة فخرج له الطبيب وشكره على اكتشاف هذه الكارثة. وقال له بصوت غليظ ولكنه مشحون بالإرهاق والتعب: ماذا تريد؟ فردَّ عليه ماثيو بخجل وتردد: أردت أن أعرف ما حدث لهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• الانعزال الجميل:

رش الأسد البريطاني حدود وتخوم إمبراطوريته التي لا تغيب عنها الشمس بالبول. ولم يكن قادراً على ترك أمر البحار والمحيطات لخالقها. وصعب عليه وهو يحرس أراضيه وبحاره التي ميَّزها بإفرازاته التزام الصمت إزاء التدفق العربي المُنفلت من عقاله لقطعان متوحشة كما يحب أن يطلق عليهم. ووجد هؤلاء في المحيط الهندي وبحر العرب فرصة تاريخية عظيمة لتأسيس تجارة العبيد والقرصنة، عبر تحالفهم مع الهنود وجحافل من البلوش الجامدار الذين كانوا محاربين أشاوس، اعتمد عليهم سلاطين بحر العرب في تثبيت حكمهم وتقوية تجارتهم من خيرات الشرق الأفريقي وداهيات الغرب الهندي. تجارة شملت الأرض والشجر والحيوان والبشر من زنجبار ومومباسا إلى مسقط وحضرموت، ومن مكران وغوادر إلى بومباي وغوا وساحل مالابار.

اعتقدت القبائل في تنجانيقا أن اللّه يسكن الأشياء، ومع هبوب العواصف تهيج الأمواج ويردّدون أن اللّه يمشي على الماء. وما الزلازل إلا صدى لخطاه. ويؤمن الهنود الهندوس أن الشجرة الكونية هي شجرة الحياة العائمة على الماء. أما العرب والبلوش المسلمون فيعتبرون هذه البحار والمحيطات من نعم اللّه على الإنسان، وأن اللّه لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، وأن عرشه استوى عليه.

وأوحى نبي فارس لسبعة أمراء شيرازيين بحمل إرث كتابه المقدس «الأبستا» والإبحار من ميناء سيراف في بوشهر، والاستيلاء على هذا الساحل الشرقي لأفريقيا ومومباسا لتأسيس مدن إقطاعية تقوم عليها المملكة الشيرازية في القرن الخامس الميلادي. فجاء قلة منهم من الخليج الفارسي يحلمون بتشييد حكومة الصدق في المملكة النورانية، ويتوقون أيضاً للذهب والعاج وقرون الكركدن! وقد خطّوا وصايا كتابهم المقدس بدماء السود وبزهق أرواحهم، ونجحوا في تأسيس أربع مدن أفريقية: مومباسا وجزيرة رمبا وأنجوان وكيلوا مركز سلطة المملكة الشيرازية! ورغم اندثار هذه المملكة تشربت الأرض الطقوس الزرادشتية حتى دانت السيطرة على القرن الأفريقي وما حوله لآل بوسعيد والمزاريع.

وجاء الفرنسيون والبرتغاليون والهولنديون والإنجليز مدفوعين بالفضول لاكتشاف هذه المناطق سعياً إلى استثمارات تجارية عبر إبرام اتفاقيات مع سلاطين زنجبار ومومباسا. وانتشى الجميع بهذه الطفرة التجارية حول هذا القرن الأفريقي وثرواته المدهشة من التوابل، والذهب، والعاج، وأصداف السلاحف، والعبيد، وحبوب السمسم، وجوز الهند، والبُن وكل ما يخطر على

البال من غرائب الحيوانات والحشرات. ورمت سفن كبيرة مراسيها، وعاين أصحابها الخرائط الجغرافية للقارة المظلمة عبر هذه البوابات المطلة على البحر. وأصيب بخمرها كل من داس رمال شواطئها. يتسابق هؤلاء الأوروبيون على تقسيم الحدود ورسمها وبسط السيطرة عليها ورفع راياتهم فوقها، مستعينين بدهماء الغابات.

وخاف نزنجي من الأسد الإنجليزي، حارس هذا الطريق البحري بأوامر أقرت من بعض أعضاء البرلمان البريطاني، الذين دفعوا نحو سياسة سلمية تقوم على مبدأ محبة الناس والتعاضد الإنساني، وجرّموا الرق والعبودية، وتوعدوا المتاجرين الإنجليز والأوروبيين الآخرين في المستعمرات البعيدة بالعقاب. وقد دعمت جهود هؤلاء نخب إنجليزية مثقفة قادت حركة الأمة البريطانية في العام 1811م بسن قانون ضد الرق. واقتنعت بعض الحكومات الأوروبية في العام 1815م بالتوقيع على معاهدات دولية تدعو لإلغاء هذه التّجارة. وشكلت هذه المعاهدات شوكة في حلق هؤلاء البَحَّارة العرب الذين لم ينقطعوا عن هذه التّجارة المربحة، رغم تعرّض سفن بعضهم للحصار والتفتيش وأحياناً المصادرة. إلا أن الرُّبّان عبد الله التوانقي تضلع في عبور هذا الخط البحري بعيداً عن عيون السفن الحربية الإنجليزية وفوهات مدافعها. وشك نزنجي بما سمعه سيده الذي أنصت بارتياب لقرع طبول الريح. ولم تتسلل هذه الإيقاعات للبَحّار الذي اختبر البحر وأهواله من قبل.

• الأرض المقدسة:

شاط وجهه في لمح البصر، وشعر أن الجحيم كله قد تجلى أمامه. ثم دخل في غيبوبة وحوله تعلو نداءات الاستغاثة وأصوات صرخات هلاك البحارة. ميَّز صوت سفينته لحظة استسلامها لغدر المحيط. رأى الضوء الأبيض الذي يتحدثون عنه قبل صعود الروح خلف جبال مسقط ثم انْدِثَارها في الصحراء الأبدية. انكشف خلفها واد حيث لا أنيس ولا حسيس إلا من رضيع وحيد يبكي ظن أنه ابنه! انبلج المشهد الأخير له فعرف أن كل شيء قد قارب النهاية وعليه النظر للطفل، فبانت له هاجر وهي تبحث عن الماء اتقاء موت رضيعها إسماعيل. أوكلت أمرها إلى خالقها في سبعة أشواط بين جبلَي الصفا والمروة، وحين عجزت قالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك.

عادت إليه ورأته يفحص برجله من العطش، سمعت صوت جبرائيل يسألها: «من أنت؟ فقالت: أنا هاجر، أم ولد إبراهيم، فسألها: إلى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلى اللّه، فردَّ عليها جبرائيل: وكلكما إلى كافٍ، قال: ففحص الغلام الأرض بإصبعه، فنبعت زَمْزَم، فجعلت هاجر تحبس الماء، فقال: دعيه، فإنها رواءٌ». وهكذا، أصبح هذا الماء رواءٌ للحجيج بعد سعيهم بين الصفا والمروة، ليتم تطهيرهم من ذنوبهم ويكونوا عندها كمن ولدتهم أمهاتهم بلا ذنوب، وبلا

خطايا ودنس. وخطر ببال الرُّبّان عبد الله التوانقي وهو يرى خاتمة حياته، التطهر في الديار المقدسة بصحبة نزنجي الذي لم يسمع عنها إلا بعض حكايات من حجيج صادفهم على السفينة في طريق عودتهم من هناك.

• الهَلَع:

لا يبدو الهلع عند ماثيو مجرد جزع وقلة حيلة، بل هي تجربة لم يختبرها منذ انضمامه إلى البحرية الملكية البريطانية. قبل ذلك كله، حمل ماثيو حقيبة يدوية وغادر ليفربول متوجهاً إلى مدينة لندن. شابٌّ في التاسعة والعشرين من العمر نحيف ومتوسط الطول وله عينان خضراوان. تيقن أن اكتشاف العالم لن يتم ما لم يتمكن من العمل في البواخر التجارية الخاصة بشركة الهند الشرقية، وهو ما عجز عن تحقيقه حتى قابل رجلاً هرماً يحتسي البيرة وحيداً في حانة صغيرة مرقونة بزقاق مدينة تنام وتصحو وهي في قبضة الضباب. أمسك الرجل بالكأس الرابعة، وبدأ يحكي عن لقاء عجائبي من وجهة نظر ماثيو، وسارت فيه الحكاية على هذا النحو:

لا تقترب من عقارب الساعة، الزمن كفيل بانتشال ما علق في روحك، ألا ترى الكأس؟ كم افتتنت بالبحار والنساء، لأنني كنت أتابع عقارب الساعة فوق السفن والبارجات الحربية وهي تحملنا دون إدراك للوقت. لم نكن نعرف متى تشرق الشمس ومتى تغيب، متى نفرّ من البحار ونمخر فضاء المحيطات إلا عندما نبلغ يابسة حارة ورطبة، حينها فقط نلمح عقارب الثواني وهي تتحرك وتصدر رنينها: تك تك.. تك تك..

جئت مثلك من ليفربول. أبحرت من حوض ألبرت، وعملت في شق نفق محطة قطار متروبوليتان. لم أكن مدركاً للزمن، وواعياً بالوقت. أدخل وأحمل المِحْفار وأشق النفق مع المئات من العمال السود والبيض والهنود. وألوذ بالحانة فور انتهائي متعباً وعطشانَ، وأفكر متى أعمل على ظهر السفن الحربية؟ حينها؛ حملتني امرأة من هنا، الفتاة الشقراء النائمة على الكرسي القريب منك تدرك عطشك لجسدها. لكنك لن تجرؤ على الإقدام على شيء وأنت الشاحب الذي لا يحمل معه إلا كراسة ترسم وتكتب فيها ملاحظاتك عن طيور شغلتك كثيراً. طيور مثل هذه الفتاة المماثلة للإوز الغبي، وطيور أخرى لا تشبهها، تسير بعضها بخفة وأخرى بأبهة، زاهية اللون تفوق في جمالها هذه المرأة باهتة اللون ولكنها ممشوقة الجسد.

بين الهند وأفريقيا السوداء ستكتشف أجمل الطيور رشاقة وجمالاً، مثل نسائها السود والخمريات. ستطوف بك السفن، حتى تفقد شهيتك في مراقبة الطيور، وتصاب بالهيبة وأنت ترى كيف أنها أضمرت خلف جمالها وأجنحتها الخفيفة شراسة وهي تحلّق بانسياب فوق الجثث قبل أن تحط عليها وتبدأ

بالتهام مزق من لحمها المتعفن. جثث تطفو فوق سواحل بومباي وبين غابات جزر سيشل وأثيوبيا وتنجانيقا أو على ضفاف نهر النيل الأزرق. طيور لا تتورع عن شق لحوم بشرية طافية فوق المياه أو أخرى مبعثرة على أسطح سفن سيدمرها دك قذائف مدفعية في حروب لا تنتهي.

سترى نفسك مثل طاووس، مثل غراب، مثل صقر، مثل ببغاء، مثل عقاب، ومثل حمام مسالم يدفعه الموج وهو على سطح البارجة فيكتوريا. ومع تكات عقارب الساعة ستطوي أيامك ولياليك وأنت تجوب البحار والمحيطات لتجد نفسك مرة أخرى هنا، جالساً مكاني، وفي يدك الكأس الرابعة من البيرة، تُحَدّق في الفتاة الشقراء الواقفة هناك، وتسأل: ماذا فعلت بك الطيور يا ماثيو؟ في ذاك الوقت المشابه لهذا الوقت، ستنظر إلى الساعة المثبتة بين زجاجات الخمر، وستحاول أن تفرد جناحيك للطيران، لكنك لحظتها سيمنعك العي وأنت تسمع: تك تك.. تك تك.

• الضوء الأحمر:

قيل: حجرٌ من الجنة، لوَّث إبليس بعضاً من صفاته. وقيل: ضوء انتُزع من أرض مقدسة. وزاد البعض: حجر في باطنه رحمة وسلام كما في روحه عصف ودمار. عمر قصوراً وقبائل وأراضي جدباء وجعل منها قطعة نضرة من الجنة إلا أنه توَّه قلوباً، وأحرق صدوراً، وأشعل حروباً، وأثار فتناً، وظل رغم كل ذلك مقدساً وكريماً، يذكر في السماوات وفي الأرض. يحمل في مكوناته شهوة كشهوة الإنسان، فإن اشتهى فتح طاقته بعنف وإن جف خص من يتجرأ عليه باللعنة والزوال. عثر مولانا رشيد حمدان على ذكر له في مخطوطة «عجائب المخلوقات». وقال ذكرته كتب التأريخ الإسلامي أنه من ياقوت الجنة، وقد طمس اللّه نوره ولولا ذلك لأضاء ما بين المشرق والمغرب. ولكن مولانا رشيد حمدان دفع حياته ثمناً لهذه المعرفة.

شعر مباندا بالخوف رغم خبرته في صعود الجبال وتسلق الأشجار الضخمة بخفة، لرصد تسلل رجال القبائل الأخرى التي قد تغير على قبيلته وتسرق المواشي والحبوب وتختطف الصبايا وتنهب مخازن العاج. ولم يسبق له الوصول إلى هذه المنطقة المجهولة من الغابة ليُعَمِّدَ فحولته بصيد ثمين، يساوم عليه كمهرٍ في اختيار أجمل فتيات القبيلة. تحيَّر وهو لا يحمل معه سوى سهم وخنجر صغير. تعثرت قدمه وانزلق وجرفه منحدر متعرج ولزج. حاول بكل ما أوتي من قوة التشبث بالأغصان أو جذوع الأشجار الكبيرة منها والصغيرة إلا أنه بدا عاجزاً عن ذلك. شعر بأنه فقد السيطرة على حياته وهي تمر مسرعة أمامه. غاب ضوء النهار بسبب كثافة الغابة. خيوط ضوء سريعة تزغلل عينيه فتزيد من تشتت تركيزه وهو يحاول إظهار قوة وجسارة في مواجهة مصيره. شعر بوخزات عديدة وعلم أن رؤوس أغصان حادة تغور في

مناطق مختلفة من جسده وأن الدم بدأ يفور بغزارة منه. وأنه فاقد لحياته لا محالة.

داعبه هواء رطب وشعر بنفسه يفقد الأرض ويندفع نحو الأسفل. حاول فتح عينيه ليلتقط آخر ضوء يراه قبل أن يُسَلّم نفسه. في تلك الومضة السريعة فقد الإحساس بكل شيء عدا سماع دوي صاخب لجسده وهو يصطدم بسطح الماء. بدأ جسده يغوص في قاع بحيرة مصدرها المصب الهائل الذي رآه قبل فقدان توازنه وانزلاقه. بحيرة صغيرة محمية بأشجار الغابات، لم يطأها إنس ولا جان. غاص جسده في قاع البحيرة وظل ساكناً لغمضة قبل شعوره بالغرق، وتمسك بروحه قبل فرارها من جسده. أحسَّ بأنه في مأمن، معتقداً أنه مازال يتنعم في رحم أمه، وما هذا الماء الدافئ إلا ماؤها الرحيم. لمح وميض ضوء أحمر يشع قرب موقع رأسه الذي استراح في قاع البحيرة. لون يدفع بضوئه الحنون إلى القرنيَّة فأغمض عينيه ولكنه عاد وفتحهما دون أن يعرف إن كان قادراً على التنفس في هذا الماء أو أنه مازال جنيناً لا يحتاج إلى ذلك. حدق لثوانٍ بدت له طويلة حتى شهق شهقة الغريق فدفع برجله أرض البحيرة حتى وصل سطحها وأخذ نفساً عميقاً.

هل مات في هذه اللحظات؟ قَلَّبَ في هذا الاحتمال كثيراً وهو يشعر بتعب يهد جسده. سبح ببطء حتى وصل إلى طرف البحيرة، وظل ممداً يلتقط ما فاته من أنفاس الحياة. تذكّر ما رآه في القاع. بحث عن سهمه وخنجره الصغير ولكنه لم يجدهما. تحسس مواقع الألم ومواطن الجروح في جسده، وجد آثاراً لجروح غائرة ولكنها تبدو الآن ملتئمة ومُنْدَمِلة. كيف حدث ذلك؟ سأل نفسه. شَكٌّ في دمه الذي تفجر من جسده ولكنه لم يجد أي أثر لجروح مفتوحة! تَذَكَّر لحظة فتح عينيه وهو في قاع البحيرة فقرر الغوص مرة أخرى ليتأكد مما رآه هناك. غاص بحذر وعيناه تبحثان عن ذلك اللون الأحمر. قبس قرر انتزاعه من مكمنه.

• نار الحكمة:

ألقته أمه ميناز‌اتون بنت شار شمبيه قبل تمام أيامه، في عيد النيروز وهي حامل به في الشهر السابع. مولود خديج لأم في الثانية عشرة، ولشيخ زرادشتي فارسي ضرير، تشاركها مخدعها إحدى عشرة أَمَة حبشية مسلمة.

في صباح ذلك اليوم، وارت السماء سحابة فحمية سوداء حجبت القرية، فلم يخرج الصيادون إلى البحر خوفاً من اصطياد سمك مظلوم. وامتنع الجزارون عن سلخ ذَوَات الظِّلْف المطعونة غدراً من أجل لحمها. وقاطع الفلاحون أراضيهم خوفاً من النجس. في الأثناء، عانت ميناز‌اتون ألم الطلق لتنجب ولداً

ناقص الحرف والكلمات. رفعت القابلة رأسها وقالت لها: سيخرج من مسكنه ولن يعمّر طويلاً فهذا يوم الشر وستكون أبراج الصمت مثواه وتأكله الجوارح!

انزلق جنين لا يزيد حجمه ولا يختلف شكله عن الحرباء البشعة المنتشرة في هذه المنطقة الساحلية من مومباسا. تلقفته القابلة وقطعت حَبْله السّرّيّ ونظفته ووضعته قرب أمه فاحتضنته ونامت من التعب والألم. دنت القابلة من أم ميناز‌اتون الغاضبة من عطية الآلهة وقالت لها: لا تيأسي ولا تحزني فليس كل الأطفال لنا، بعضهم لخالقهم وبعضهم للآلهة أهورا مزدا. وأرى أن تضعوا هذا الجنين في بيضة نعامة ربما تشفق عليه ويشتد عظمه.

سحبت أم ميناز‌اتون الرضيع من بين أحضان أمه، وسارت به حتى أطراف القرية وسلمته لحكيم الكلام الذي لا ينطق. قضى الليل كله في الاختيار والمفاضلة لبيضة نعامة مناسبة فيها آثار إله النور والخير والخلود.

حُشِر داخل البيضة، وتُرِكَ في صحبة الزلال مع تناوب في المراقبة والاحتضان من زوج نعام حتى انقشعت السحابة السوداء من القرية قبل أن تتسبب في مجاعة كبيرة، فحمل البَحَّارة شباكهم، وسن الجزارون سكاكينهم، وجرَّ الفلاحون حرثهم.

وجد حكيم الكلام اسمه محفوراً على جبهته بعدما أخرجه من بيضة النعام، فقال لهم: جواخ، مبارك بنار الحكمة، لن تطفئها إلا مياه البِحار البعيدة بعد عمر مديد، فاجتهد في عمل الخير ولا يغويك الشر، لقد تخلقت في بطن أمك وحافظت عليك ملائكة تتخذ هيئة النعام.

عاش جواخ سنوات طفولته بين أحضان أمه، لا يعرف أي حرفة ولا يجيد أي صنعة. يبدد النهار معها في الاستماع لأحاديث النساء الخاصة والعامة، وفي الإصغاء إلى صلواتهن الدائمة برزق وفير ورجل قدير. زَجَّ به والده وقد قارَبَ البلوغ للعمل في مراكب السلطان العماني بعد استرحام وتوسل كخادم ينظف مبولة السلطان ونسائه، ويمسح سطح السفينة. وسمع ذات يوم أحد ضيوف السلطان وهو يعيد فنجان القهوة إلى الصبَّاب بترفع وتكبر: قهوتك فاسدة! استوجب ذلك قيام السلطان بطرد صانع القهوة ووضع رئيس الطباخين في مأزق لعدم توافر من يجيد عمل القهوة العمانية. وهنا تبرع جواخ وكان في الثالثة عشرة من عمره بعمل القهوة الخفيفة كما تعلّمها من أمه في جلسات الضحى النسْويّة، ومكنه إعداد القهوة من نيل حظوة عند السلطان ومنزلة ومكانة لدى الرَبابين الذين تعاقبوا على العمل في السفن التابعة للقصر الزنجباري في ستون تاون.

أكسبه صمته الذي امْتَصَّه من زلال بيض النعامة وثوق السلطان وأبنائه وعمومته وكبار التجّار العرب والهنود به. فطوال خدمته لم ينطق قط بما

شهده من عمليات سِرية في نقل الحريم والإماء للغرف الخاصة. واشترط عليه الرُّبّان حمود التوانقي العمل معه دون أن تنطفئ ناره. وكان عبد الله التوانقي حينذاك طفلاً يلهو على سطح السفينة ويتعمد سكب الماء على نار جواخ، ولكنها لم تنطفئ حتى جاء ذلك اليوم النحس!

• تشهّد يا نزنجي:

حينما لفظت مياه المحيط سفينة تجارية يعمل عليها والد نزنجي؛ آهان آديش الذي جاء حالماً بثروة من بيع وشراء التوابل والذهب والعاج، وجد نفسه يتضور جوعاً أمام معبد هندوسي. رأف بحاله الكهنة، وزودوه بحبوب الدخن للتعافي من دُوار الساحل الأفريقي الشرقي الذي يفقد البصر ويضيع الخرائط من الدماغ.

ظل آهان الهندوسي، عابداً لشيفا المدمر، صاحب العين الثالثة دون عين، تحت رعاية المعبد مع الكثير من الهنود أمثاله. وتناهى إلى سمعه رواية كاهن قال بإمكانية عودة الذهن الضائع من خلال الزواج بفتاة أفريقية، وهكذا غدت نظيرة المسلمة زوجة له. وأطفلت منه ستة ذكور مات أربعة منهم، اثنان من الحُمَّى المنتشرة في شهر أغسطس، وآخر اختفى في البحر قبل الشروق. وقيل: ربما سحبه الموج أو اقتيد للعمل كعبد على سفينة عربية. أما الرابع فقد ابتلعته حيّة وهم نائمون، أحس الأخ الأوسط نزنجي بوجودها. صرخ بوالديه وشَبَّ بسكين على رأسها يطعنها وهي تتلوى وتعصر ما تبقى من أضلاع سليمة وتهشمها، ولكنه لم يكُفَّ حتى نفقت، ففتح بطنها وأخرج أخاه الذي كان قد فارق الحياة. أودعوه نار المعبد وتم حرق جثته. وطلب كبير الكهنة نثر رماده حول منزلهم علَّ العيون تكف عنهم، ويدخل الخير باب كوخهم، وهو ما تحقق بعدما حلقت حكاية نزنجي على ساحل مومباسا ووصلت أصداؤها إلى زنجبار. وقف أمام الرُّبّان عبد الله التوانقي وجواخ الذي همس في أذن سيّده: هذا شاب صلب وسيكون بَحّاراً تتكئ على أضلعه أنت وسفينتك. ونسي نزنجي منذ ذلك الحين اليابسة وظن أن الله لم يخلق سوى الماء والسفن حتى دعاه الرُّبّان في ساعة الموت القاسية، وهما يشهدان طارقة سيتجنبان الحديث عنها بعد ذلك دون سبب واضح، إلى النطق بشهّادة المسلمين، فلم يقل شيئاً. بل شَدّ حبال السفينة حول خصره وربط جسده بها مقتدياً بخبرة سيده، ومدركاً أنه سيرث مرض والده وستضيع الخرائط من رأسه، وتنتهي به الحياة دون عين ثالثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

اختفاء الدابة

- 1 -

سهرنا في تلك الليلة حول جثة عابدين في ساحة المسجد الصغير، بعد أن غسلناه وطيَّبناه بالكافور ثم كفَّناه. أتيحت لي، أنا يوسف بن عبد الله الأعمى ذو الثمانية عشر عاماً، ولأول مرة، فرصة الجلوس طوال الوقت أمام جسد ممدد بانتظار حدوث معجزة النهوض من الموت أو معرفة أن هذا هو السكون الأخير. حدث ذلك في العام 1920م، قبل أن أرى موتى بأشكال عديدة؛ بشعة، ومقززة، ومهينة، ومتعفنة، ونازفة، ومبقورة، ومقطعة الأوصال، ومصلوبة، ومتصلبة. أطفأنا كل القناديل لنقتصد في الضوء، فالليل مازال في أوله. أبقينا على قنديل واحد تحلَّقنا حوله نحن الذين نعرف القراءة. وضعنا وسط الحلقة جزء عمَّ وبدأنا نقرأ وننظر شزراً إلى البدن الملفوف بالكفن، فينضم إلينا من سمع بخبر الوفاة من القرى القريبة.

جاء هذا الرجل الأسمر من الساحل الآخر، من أرض لم نسمع عنها. قال إن اسمه عابدين، وإنه عَبَرَ المحيط من مسقط إلى بومباي، حيث عاش هناك سنوات قليلة. أنجبت له زوجته الهندية ثلاث بنات، تركهنَّ خوفاً من الدابة بعد ظهورها له في أزقة مدينتهم الضيقة. تظهر له الدابة وحده فقط وتأمره بمغادرة أرض الهند، وإلا ستصيب بناته بالمكاره. حلّ علينا في نهار هبَّت فيه عاصفة رملية غطت جبال قريتنا الصغيرة سقر على حدود مكران. وكان والدي عبد الله أول من ضرب بعكازه نوافذ وأبواب البيوت القريبة منادياً: لقد مات عابدين واختفت الدابة.. لقد مات عابدين واختفت الدابة، فزعتكم يا أهل سقر.

توافد الرجال والنوم يرافقهم، وتساءلوا كيف مات، وهل اختفت الدابة؟ فلم يردّ عليهم غير أبي عبد الله. عليه أن يموت لتختفي الدابة. وكيف مات؟ شنق نفسه بإزاره. فازدادت دهشتهم. جاء إمام المسجد، وقال: يدفن دون غسل أو كفن، شجب أبي هذا الكلام، مبرراً أن موتَه حصل لإنقاذ حياة أهل القرية. وقال: أنتم تدركون أن استمراره حياً سيبقي على الدابة. لقد جاءت معه من بلاد الهند، وتوجب عليه إيجاد حل بعد عجزه عن مواجهتها، وتسببها في اختفاء بعض أطفال القرية الذين أكد عابدين أن الدابة اختطفتهم، وأشبعت جوعها بلحمهم الطري. قالوا: ربما أكلتهم ذئاب جائعة، لعلهم تاهوا في العراء، أو خطفهم قطاع طرق لبيعهم في مرفأ غوادر أو وأدهم آباؤهم أحياءً. ألسن جميعهن فتيات صغيرات؟! هنا ضرب أبي بعصاه، فهدأت الأصوات، وحملقت فيه الجموع لترى ما يقول. ولكنه هَتَفَ عليّ وترك القوم متجمعين حول الجثمان.

يخطو أبي بسرعة رغم كونه كفيفاَ. ويحفظ الطريق أكثر من مبصر، وبين الحين والآخر يلتفت نحوي طالباً الإسراع. عبرنا بيوت القرية المتناثرة بشكل عشوائي، والقمر يضيء خطواتنا. كثيراً ما كنت أتساءل كيف لأعمى مثل أبي حفظ طرقات قريتنا، والسير بمثل هذه الخفة في أرض صخرية عنيدة. بلغنا الساحة البرية الممتدة بين بيوت القرية وساحل البحر حيث تمتد جبال متلاصقة، صلبة الحجارة، وعرة الطريق، بُنيت بين صدوعها بعض البيوت الخشبية المسقوفة بسعف النخيل. ويقع بيت مولانا رشيد حمدان الذي أصبح الآن بيت عابدين وحيداً بين الجبال. تتناثر قربه كومة من الأخشاب ونخلتان فارهتان، لُفّت إحداهما بأقمشة ملونة، ووضعت تحتها نذور النساء. استطعت أن أميزها بسهولة. نخلة يشكل محيطها مرتعاً لأطفال القرية وهم غافلون عن تهدج أمهاتهم وأدعيتهن، إضافة إلى صلواتهم رجالاً ونساء. في الجهة اليمنى من البيت زرعت بعض النباتات الصحراوية. استطعت أن أميز بينها عشبة الخبيز، والحنظل، والعوسج، والأراك. وتتوزع بينها أزهار صفراء صغيرة منطفئة، وثمار حمراء اللون. شرحت لأبي ما أراه، ضحك وقال: من هذه الأعشاب يطببنا عابدين. ألا تذكر حين احتبس البول في مثانتي، ألم يأت بعشبة الخبيز فساعدني على إدرار البول بسهولة. هذا الرجل لم يكن ساحراً مثلما يقول عنه أهالي القرية، هذا عطار لديه علم واسع في فوائد ومنافع الأعشاب.

دخلنا البيت الذي عمل فيه عابدين خادماً لمولانا رشيد منذ قدومه إلى القرية ثم تحوَّل إلى مسكن له بعد وفاة شيخنا الجليل. وقف أبي وسط الحوش، وتلفت كمن يعرف زواياه، طلب مني حمل القنديل المعلق على جدار البيت، فأشعلته. ثم سألني عن الغرفة المطلة على الباب الخارجي، فأمسكت عصاه وقدته إليها. سمى باسم الرحمن ودخل الغرفة المعتمة، ليس هناك من ضوء منبعث سوى ضوء القنديل الذي كنت أحمله في يدي. طلب مني فتح صندوق خشبي صغير، وصفه فعرفته. صندوق مصنوع من خشب الساج ومطرز بمسامير نحاسية، فتحته، فقال لي:

هل ترى جلداً بداخله؟

نعم، جلد يشبه جلد الحيّة.

خذه معك، ودعنا نعود للرجال في ساحة المسجد.

وما سر هذا الجلد؟

ستعرف بعد قليل.

وحين عدنا، كان الجمع مازال ملتفاً حول عابدين. نادني أبي: يوسف، أِرِهِم ما بيدك. رفعت الجلد كي يراه الرجال. تراجعوا ثم تهامسوا فيما بينهم. بعضهم اقترب مني بحذر ولمس الجلد، وشَطْر منهم تشممه، أما الأغلبية فقد خافت من لمسه أو حتى الدنو. قال إمام المسجد: إن عابدين ساحر! صرخ فيه أبي:

هذا جلد الدابة.

وكيف عرفت ذلك يا عبد الله وأنت الأعمى؟

لننتظر صباح الغد لندفنه بسلام فترتاح روحه.

قالوا: ولكن كلام الإمام، من يزهق روحه بالباطل له عذاب جهنم. فردَّ عليهم والدي بثبات: عابدين لم يزهق نفسه، عابدين افتدى بروحه من أجل عيالكم، الرجل قطع الطريق على الدابة كي لا تقضي على أهل القرية.

ألم نطلب منه مغادرة قريتنا، ألم يقرر السفر إلى البحرين؟

نعم، لكنه رفض أن ينقل معه دابة تلوك البشر.

لتلتهم أهل البحرين، أو حتى تمضغه هو، فينقضي الشر عنا وعن أهلنا.

لكنه وضع حداً للدابة على أرض قريتنا، هذا قراره وعلينا أن نحترمه وندفنه بشكل لائق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

رأينا مع خروج ضوء الفجر قملاً كثيراً يدب على أقدامنا وثيابنا. يتسلل من كفن عابدين ويزحف على الحصيرة المفروشة تحت جسده فاستغربنا من ذلك. ذهبت مسرعاً أبحث عن أبي، الذي لم يكن موجوداً في البيت. أخبرتني أمي حائرة، أنه في دار مولانا الجليل رشيد حمدان فذهبت إليه هناك. وجدته جالساً في الدار وقبالته صندوق عابدين الخشبي، ويداه تتحسسان بعض الأوراق، يقلبها بين أصابعه ويتلمس أطرافها، يقربها من أنفه ثم يعيدها إلى الصندوق. يُخرج أخرى وكانت عبارة عن صورة ضوئية، تحسسها بالطريقة ذاتها. ظللت واقفاً أمام الباب حتى أذن لي بالدخول، مد يده نحوي قائلاً:

من بالصورة يا يوسف؟

وكيف عرفت أنها صورة يا أبي؟

للصورة رائحة تشبه رائحة المرأة حين تنهي عملها في الحقل.

استغربت من قول أبي. تناولت الصورة وشممتها، رائحة ورق قديم، أمعنت النظر فيها، صورة تلفت أطرافها وغدت باهتة الملامح. استطعت أن أتبين عابدين وهو واقف قرب مجموعة من الرجال الذين يشبهونه، سود البشرة، لهم شفاه مقلوبة وغليظة. يرتدي الثوب العربي ويعتمر طربوشاً. أما الآخرون فيلبسون الزيّ الإفرنجي. شرحت لأبي الصورة، وأخبرته بوجود كتابة خلفها. فأمرني أن أقرأ له المكتوب، فقرأت: «من الأب بيتر إلى إخواني في دين الرب، هذه صورة تجمعكم ليوم سوف تسألون فيه عن لونكم وعن أرضكم، فقولوا: طوبى للمطرودين من أجل الْبِرِّ، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيمٌ في السماوات، فلأنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم» ([1]). ختمها الأب بيتر زويمر في مسقط في الرابع من أبريل من العام 1910م.

ظللنا صامتين. يدي ترتجف وقلبي يكاد ينفطر. شعر أبي بذلك فتقدم مني ووضع يده اليمنى على صدري وقال: اطمئن يا يوسف ولا تجزع، هذا الرجل جاءنا وهو يحمل ثقلاً كبيراً على عاتقه، وكان لابد له أن يتخلص منه وينفضه عن جسده. لقد وجد في قريتنا مسكناً آمناً لهذا الحمل. عليك أن تدرك يا يوسف؛ أن الأرواح تختار أراضيها. وروح عابدين اختارت قريتنا، ربما لأنه أسود، وفاض عليه لونه، فرماه بين تراب قريتنا ليكشف لنا عن روح أخرى، لا يحدها لون أو شكل. لا تنسَ أن تمسح بيدك على النخلة المباركة. لقد ولدت في هذه الدار يا يوسف، وسمعتْ أذنك الدعاء المهيب. كانت ولادتك عسيرة،

استودعت أمك زوجة مولانا الأولى كولجان والتي توفّيت قبل ذهابه إلى الحجاز، وطلب مني القعود تحت النخلة المباركة. جلست في وحشتي أتلو ما حفظته من القرآن حتى سمعت حفيف الأغصان في ليلة بلا رياح. خفت عليك، فجاءني مولانا مبشراً بك غلاماً ذكراً انتظرناك سنوات أنا وأمك الحائرة. طلبتُ منه أن أراك إلا أنه رفض ذلك، والتمس مني العودة للبيت والصلاة شاكراً للرحمن الذي يسَّرك لنا ابناً طيباً وباراً.

في صباح اليوم الثاني جاءت أمك وهي تحملك، ترافقها كولجان. وقالت لي: يقول لك مولانا اسمه يوسف، وهذا حبله السرِّي ادفنه تحت النخلة ولا تسأل. سِرّك مدفون تحت هذه النخلة قرب ضريح هذا الرجل الصالح الذي أوصى زوجته الثانية زينب بدفنه قرب زوجته الأولى كولجان لما استشعر أُزُوف أجله، ليكونا معاً تحت النخلة نفسها. وأوصى زينب بأن تتكفل بدفنه دون مساعدة من خادمه عابدين. فعملت بوصيته وهي اليافعة والقوية، حتى قال بعض رجال القرية: إنهم لم يروا امرأة بقوتها. وبعد أن غسلته وطيَّبته وكفَّنته، تناولت المعول والمِحْفَارَ وبدأت بنقب قبره في هذه الأرض الصخرية، ولا أحد يعلم كيف نبتت فيها هاتان النخلتان. ولم تضع شاهداً له. فسألته عن زوجته الثانية: ولماذا غادرت زوجته زينب قريتنا، وتركت المنزل لعابدين؟ فاسترسل: انقطع عابدين عن دخول المنزل احتراماً لحرمته، وظل يقضي ليله ونهاره قرب النخلتين، وعيناه على منزل مولانا، يلبي طلبات زوجته زينب حتى اختفت من القرية بعد أن أنهت مدة عدتها. في ذلك الصباح ذهبت إليها نساء القرية كعادتهن اليومية لمواساتها بوفاة زوجها، فوجدنها في النهار الحادي عشر بعد مضي أربعة أشهر تهم بالرحيل حاملة معها صُرَّة صغيرة فيها القليل من الزاد، ولم تبقَ معنا سوى عامين. وقبل مغادرتها القرية بليلتين قالت للنسوة اللواتي يجتمعن عندها: أوصاني خليلي بحب المساكين، وأن يكون هذا البيت لعابدين مسكناً له ولروحه الخفيفة، فاجعلوه له مثابة وأمناً. تقربوا منه ولا تنبذوه، فهو يحمل على كتفيه حملاً ثقيلاً. وماذا علينا أن نفعل الآن يا أبي؟ فردَّ بهدوء: احمل هذا الصندوق يا بني، فبعد دفنه سينبش تاريخ هذا الرجل. دع ما قرأته سراً في صدرك، وليحمِ اللّه هذه القرية من المذبحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

أسرَّ أحد رجالات القرية الذي أسهم معنا في غسل عابدين إلى إمام المسجد أنه لم يختن. وربط إمام المسجد هذا الخبر باسم عابدين حين جاءنا وقال إن اسمه إستيفان. فأعلن أمام جموع القرية أن ما قمنا به زندقة وإلحاد بدين الإسلام، وأن الرجل لم يكن على ديننا فلا يجوز دفنه في مقبرة المسلمين. حدث هرج بين الرجال. وتناقلت النسوة الخبر فيما بينهن بشيء من الحياء. أما غلام رفيع اللّه فقد حمد ربه؛ لأنه لم يقبل بتزويج عابدين ابنته زينة النساء. ووقف أبي مع بعض الرجال حول قبر عابدين ليمنعوا أي شخص من نبشه. وقفت أمام أبي لأرد عنه حجارة بدأ شباب القرية والأطفال يرجموننا بها. وقد منعنا أبي من الرد عليهم، وهو مصرٌّ على حماية هذا القبر الرطب. حتى جاء شيخ القرية مجيد خان وحال بيننا وبين إمام المسجد والشباب المتحمس له، وطلب من المتجمهرين الكف عن هذا الخلاف الذي سيقطع أوصال قريتنا المسالمة. في تلك اللحظة سمعنا طلقة نارية سقط على إثرها شيخ القرية فصاح الإمام: لا تطلقوا النار.. لا تطلقوا النار.

توقف الشباب عن رمينا بالحجارة وتراكض الجمع نحو شيخ القرية مجيد خان. سألني أبي عن الطلقة النارية فأخبرته أنها أصابت شيخ القرية، فزفر زفرة فيها الكثير من الألم وقال بصوت هامس سمعته: ستبدأ المذابح الآن، ارحم يا الله هذه القرية. ثم قال بصوت جهير: احملوا شيخ القرية إلى منزل مولانا رشيد حمدان. ولكن إمام المسجد صرخ في الأهالي الذين تكتلوا ليشهدوا على دم شيخ القرية وهو يَسيحُ على الأرض: لا، خذوه إلى منزله ولنستدعي له حكيم القرية المجاورة. لمحنا ابن الشيخ مجيد خان وهو يهرع هارباً، حاملاً سلاحه في يده. تقدم بعض الرجال وحملوا الشيخ إلى داره. أمرني أبي وهو يهرول وتقوده عصاه برشاقة عالية باللحاق به إلى منزل مولانا حيث مسكن عابدين.

علينا محاسبة هذا الرجل الكفيف. سمعت الرجال يقولون ذلك علانية ونحن نبتعد عنهم باتجاه منزل مولانا. أسرعت في خطوي، وأفصحت له بما سمعت، لكنه لم يعره اهتماماً. هز رأسه دون أن يخفف من هرولته. هذا الكفيف الذي ناهز السبعين عاماً، يفيض بخطواته، مدركاً أن الأمور قد بدأت تأخذ منحىً خطيراً. سألته عن سبب قيام ابن الشيخ بقتل والده، فقال لي جملة واحدة، ملأتني بالوجل. إنه الفهرس.. إنهم حراس الدابة يا بني! ماذا تقول يا أبي؟ إن نظير خان هو الفهرس، وهو زعيم حراس الدابة، ويؤمن بأحقيته في حكم القرية واستملاك الحجر المقدس. عمَّ تتحدث يا أبي؟ لن تدرك ما أقوله الآن. وتوقفت عن اللحاق به، غير فقيهٍ بشيء. رأيت أبي الكفيف يواصل هرولته وهو يضرب الأرض يميناً ويساراً بعصاه. أحاول التقاط أنفاسي المحبوسة.

السماء صفراء وريح تقود غباراً وأتربة وحيوانات ذات أربع بخفة مربكة. أشعر بالدوار لما حدث ومما قاله أبي.

أنا يوسف الذي بلغ الثامنة عشرة من العمر والذي تبحث له أمه حائرة عن عروس تناسبه، مازلت غير قادر على فهم ما يحدث. ولا أعرف بتاتاً الفهرس، وأي حراس ودابة؟ بل كيف يجرؤ ابنٌ على قتل والده؟ وتذكرت ما قيل عن قيام مولانا الجليل الذي قضى سنوات من عمره في بيت اللّه البعيد عن قريتنا، بإشعال قبس الحجاز وتقبيل ستار الكعبة بعدد كل أهل القرية ليبعد النحس عن اسمها: سقر. وكيف جعل منها ومنا محل غيرة وحسد أهالي القرى القريبة. ولكن ما فائدة كل ذلك وأنا أشهد على خطيئة تأكل نفوس أبناء قريتنا وتكسو الأجواء بالضلال. لفحات من الكره تتسلل من النوافذ والأبواب وتتوطن في ساحات البيوت، ويتنفسها الجميع. غاب أبي عن ناظري فلم أرَ له أثراً. ازداد خوفي عليه وهو الكفيف الذي يسهل الغدر به. أسرعت الخطى حتى وجدت نفسي أركض بكل ما استطعت من قوة لأتمكن من اللحاق به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

عندما وصلت إلى الساحة الملاصقة لبيت مولانا ازداد ارتيابي، وجدت أن كل ما حول النخلتين قد نبش، بل حتى الأقمشة الخضراء والحمراء والصفراء الملفوفة كنذور انتزعت من مكمنها. اقتربت أكثر نحو الحفرة فتبيَّن لي أنها قبرٌ، رأيت بعض العظام البشرية المتناثرة حولها، خمنت أنها بقايا عظام مولانا رشيد حمدان وزوجته كولجان. من يجرؤ على فعل ذلك؟ عَظُمَ خوفي وكبرت الأسئلة في رأسي. وقفت أتلفَّت بحثاً عن أي أثر لأبي. الساحة موحشة وخالية، خفت عليه فقررت الدخول إلى بيت عابدين. اقتربت من الباب الخشبي المتهالك الذي انتزعت ضلفته، دفعتها بحذر ودخلت، ولم أجد أحداً. تعرَّض البيت لعملية تخريب، بحثاً عن شيء ما.

الفوضى تعمُّ الأرجاء، كل شيء تمَّ نثره وتهشيمه: سرير مولانا المصنوع من الخشب والحبال المشدودة. صندوق عابدين الخشبي، الأواني الفخارية، العريشة المهدمة وسط الحوش. وهنالك من قام بالحفر بحثاً عن شيء مدفون. وقفت وسط هذه الفوضى وناديت أبي فلم أجد استجابة. اتجهت بحذر نحو الحجرتين اللتين تشكلان كل غرف البيت. الأولى غرفة نوم مولانا رشيد حمدان، والثانية يستخدمها للدرس والتعبد وفيها كتب دينية وفقهية وتاريخية وأدبية باللغات العربية والفارسية والبلوشية. وجميعها منثورة على الأرض. مزق بعضها وأحرق البعض الآخر حتى كتاب اللّه وتفاسيره لم تنجُ.

أصابني الغم والحزن وأنا أرى كتب مولانا محرقة ومشققة، فجلست ألملمها وأرفعها عن الأرض. وقع بصري على صورة لمولانا بملابس الإحرام ويقف خلفه رجل أسود يحمل بيده مظلة يحمي بها مولانا من الشمس وخلفهما تبدو الكعبة الشريفة وبعض الحجاج. مسحت الغبار عنها وجلست أتأملها وأنا أبصر مولانا الجليل في أقدس بقعة على الأرض. خالجني شعور حاد بالحب لهذا الرجل الذي شكّل نواة محبة ليس في قريتنا فحسب بل في جميع قرى مكران. وأحسست بالغبن لأنني لم أجالسه وأنصت لحديثه الذي يستشهد به من عاصره. حينها كنت غارقاً في تأمل الحزن المنتشر في جميع أرجاء بلوشستان بعد سماعي خبر موته. اندفعت قريتنا تبكيه وتشيعه بشكل يليق برجل سردت عنه حكايات جليلة حول مكرماته ومعجزاته، ورؤيته الصائبة في العديد من قضايا الفقه الديني والاجتماعي، ورؤاه المقدسة عند الجميع.

تفاجأت برفسة قوية في خاصرتي ألقت بي بقوة على ظهري من شدتها. صرخت، وقبل أن أفتح عيني وأرى رجالاً من أتباع نظير خان، وابن شيخ قريتنا يصوب بندقيته نحو صدري، سألني: أين أبوك؟ وقبل أن أنطق تقدم رجل آخر وداس بقدمه على وجهي وضغط عليَّ بقساوة، وحدجني مردداً سؤال نظير

خان: أين أبوك الأعمى؟ قلت لهم وأنا لا أكاد أرى شيئاَ: لا أعرف. أمر نظير خان رجاله برفعي، فجرجروني إلى خارج الغرفة، ورموا بي في حوش البيت. تقدم مني وقال بشكل صارم: إن لم تخبرني عن مكان أبيك فسوف أقبرك في هذه الحفرة. برك فوقي وراح يكيل لي الضربات، ثم تناول عصا من آخر وهمَّ بضربي بها وهو يقول: اذهب إلى والدك وأخبره أن يسلمني العهدة، وإلا دفنتك حياً تحت النخلة. هيا اذهب. وقفت وأنا أشعر بالخوف من تهديده. سرت بخطوات بطيئة مبتعداً عنه. وما إن خرجت من بيت مولانا حتى بدأت الركض نحو بيتنا دون التفات للخلف، ولأول مرة شعرت أن ريحاً تحملني معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

لا أعرف عن أي عهدة تحدَّث نظير خان وهو يقف بصلافة تحمل حقداً مقيتاً وضغينة. يطلق النار على أبيه ولا يتورع في الاعتداء على بيت مولانا رشيد حمدان. تجلت أمامي صورٌ للقبح استشعرتها في وجوه رجال نظير خان الذين غدروا بشيخ القرية مجيد خان واصطفوا إلى جانب ابنه. قبضاتهم مشدودة على السيوف والعصي والنبابيت في جُلّ النهار. انتبهت إلى أن بعضهم قد استبدل الزي البلوشي المميز بالقميص الواسع الطويل والسراويل الفضفاضة، بسراويل إفرنجية سوداء مع احتفاظهم بارتداء القمصان الواسعة. وكانت لحاهم خفيفة، مما أكد لي أن أعمارهم تقاربني.

أنا يوسف الذي لم تنبت لحيته بعد، وإن بدت شعيرات الشَّارِبِ الخفيفة تطل تحت أنفي. كيف لي أن أتحرر من ظلال هذا الغموض الذي يشتتني ويزيدني هلعاً، في ظل غياب والدي ليفسر لي سبب ما يحدث لنا. تلقفتني أمي حائرة عندما وصلت البيت، وسألتني عن أبي، فأجبتها بأنني لا أعرف محله، وأخبرتها بما فعله بي ابن شيخ قريتنا. مسكتني من يدي وأجلستني على الحصيرة، حيث مجلس أبي دائماً تهدئ من روعي. أحضرت لي طاسة ماء رمت فيها خاتمها الذي يميزه فص فيروزي، تمتمت ثم نفخت فيه وطلبت مني أن أشرب منه. شربت ومسحت ما تبقّى منه على وجهي، وتمتمت مرة أخرى بتعاويذ لم أفقهها.

ران الكرى في عيني ونمت. في حضرة الحيرة، تسلل إليَّ، جاء من مُستقر لا أعرفه، بين سماء وسماء. كنت فيما لم أكن، جاءني الصوت رهيفاً وخفيفاً: هل تخاف يا يوسف؟ فهززت رأسي بالإيجاب. قال لي الصوت: أتخاف الموت؟ جاء ردي: نعم. ثم أنبأني: ليست سقر سوى صحراء وجبال، سيأخذك دم أهلها نحو جبال ومغارات، كل شيء سيبدأ من فجر أو أصيل سيكون غُرّتك، وسوف ترمى في الجبال السوداء، وتسير بين متاهة جبال إقليم كَوْرْ ووديان متعرجة على حدود مكران تقودك نحو البحر. تنطق بلغة القرآن وتحلق لحيتك. لن ترى قمراً، ولن تبصر شمساً، ستكون الكهوف ملاذك قبل رحابة البحر، ستعبر البلاد مذلولاً ومهاناً، سيأخذك نفي وتنفي نفسك حتى تدركك الشيخوخة البارزة الآن في وجه والدك الكفيف. ستعرف معنى الحنين والوحدة بين الوحيدين. سيولد لك حفيد في غابة لن تراها وسيكون بينك وبينه مثلما الذي صار بينك وبين أبيك، فهل أنبئك أكثر؟

فتحت عيني بتثاقل لأرى والدي جالساً قرب رأسي. أخذني الظن بين حقيقة ما أراه وبين حقيقة ما سمعته في غفوتي. جاء صوته هامساً: هل أنت بخير يا بني؟ هذا الرجل الكفيف لم يبصر بياض جلدي مقارنة بسمرته ولكنني تذكرت

ما يردده دائماً، بياضي كبياض جدتي حين جيء بها من كشمير خادمة لتاجر في كويتا. أُغرم بها فصدَّته وحين يأس منها وضع القرآن أمامها بحضرة شهود، وطلب نكاحها بالقوة.

اعتدلتُ وتناولتُ ماء من الطاسة نفسها ثم سألته: ما الذي يحدث يا أبي؟ وأين كنت؟ التفت والدي نحو أمي فقالت: أخبره يا عبد الله فقد أزف الوقت، وليس في القرية غيرك من يحمل عبء الأمانة بعد أن تركها مولانا في عهدتك وفي عهدة شيخ القرية مجيد خان الذي انتقل إلى رحمة ربه، ولن تأمن الآن ثورة ابنه نظير خان عليك. ليكن ابنك وارث السِّرّ! هل مات شيخ القرية؟ هزت والدتي حائرة رأسها بالإيجاب فاستقمت في جلستي مندهشاً وغير مصدق، وقبل أن أسأل والدي، قال لي: لقد نضجت يا يوسف. كنا نحلم باليوم الذي نزفّك فيه إلى إحدى فتيات القرية، ولكن ما يجري في القرية يجبرني، وأنا الكفيف على أن أُحمِّلك أمانة حافظنا عليها أنا وشيخ القرية وعابدين منذ عودة مولانا من الحجاز، وأخشى الآن من وقوعها في يد جاهلة ستجلب الدمار. وهنا ارتفع صوتي، ولأول مرة على والدي: ما الذي تقوله، أكاد أُجن، عمَّ تتحدثان، وما الذي تعرفانه أنت وأمي ولا أعرفه أنا؟ أرجوك يا أبي ارأف بي قليلاً قبل أن أفقد عقلي.

ظل أبي سارحاً يؤلف صمته بشكل يزيد من حيرتي. يمسح بيديه على لحيته متفكراً. في حين تناولت أمي طاسة الماء وأخرجت من جيبها لفافة صغيرة معقودة. رأت حجم الغيظ والغضب الذي أَكْظِمه ولا أقوى على إظهاره. فلت اللفافة وأخرجت منها مادة ناعمة بنية اللون، أخذت منها القليل وسكبتها في الطاسة، صبت عليها الماء ثم حركتها بسبابتها، ومدتها نحوي وقالت: اشرب يا يوسف، سيقوي قلبك. اشرب. وبدون تردد شربت كل ما في الطاسة، وانتظرت أبي أن يجيب عن أسئلتي، إلا أنه اتكأ على عصاه ووقف. استفسرت منه، فقال لي: حين يحل الظلام، سترث السّرّ. شعرت بدوار، فتمددت على الحصيرة وغفوت. رأيت في الغموض فضيلة تخيم عليّ. لم يأت الصوتُ المرهف، بل بدأ يتحقق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

قال لي: قم، اخلع نعليك، واحمل القنديل في يدك ولا تشعله إلا حين أطلب منك ذلك. نزعت نعليَّ وتناولت القنديل من يد أمي الحائرة كعادتها، سألتني: هل تشعر بالخوف؟ فأجبتها بالنفي، ثم سرت خلف أبي الذي سار حافياً أيضاً. تدوس أقدامنا تراب القرية وحجرها القاسي مبتعدين عن البيت باتجاه منزل مولانا رشيد حمدان. القمر المختبئ خلف الجبال يوفر لنا ستاراً من الظلمة، والقرية نائمة أو تتظاهر، فلم يلمحنا أحد. وحين اقتربنا من المنزل سألني أبي عن موقع السياج المربع الذي زرعت في وسطه بعض النباتات الصحراوية. اشتمَّ رائحة شجر الأراك الزكية تضوع في الأرجاء فتوقف. سألني إن كان هناك من يراقبنا، فنفيت ذلك. عندها بدأ يغير من اتجاهه. أخذ يسير بمحاذاة شجر الأراك حتى اقتربنا من شجرة وارفة تغطي سطح جبل تمتد خلفها جبال شامخة صوان.

استكان. فرك يديه بورق من الأراك، تشممها، ثم أخذ يتحسس أغصانها الممتدة على سطح الجبل الذي تستند إليه. كنت أراقبه وهو يحسب خطواته في قلبه. أمور اعتدت عليها من خلال مرافقتي له منذ أن بدأت أحبو وأخطو أولى خطواتي. بخفة يضع قدميه بين أغصان الشجرة الممتدة على الأرض محاذراً أن يدوسها، حتى وصل إلى منطقة أخرى، وكرر العملية. انتزع ورقة وفركها في كفيه وتشممها، أشار لي بيده فتقدمت نحوه. مسكني من يدي وطلب مني أن أسمي باسم اللّه، وبدأ يطوي أغصان الشجرة مثل من يطوي ورقة بين يديه. بُهِتُّ وأنا أرى خلفها مغارة لا يمكن لإِنْس أو جِنَّ اكتشافها. مغارة تتوسط جدار الجبل وترتفع فتحتها عن سطح الأرض بمقدار أربعة أقدام. وكأنه شعر بأنني سوف أهمس بسؤال، وضع كفه على فمي طالباً مني الصمت، ثم سحبني وهمس: أدخِلْ رأسك أولاً، ولا ترفع ظهرك، عليك أن تحبو، وسأكون خلفك.

دسست رأسي ودفعت بقدمي لتساعدني على ولوج المغارة. وجدت نفسي داخل هذا الممر المظلم. لكزني أبي في قدمي، وأمرني بالتقدم، وإشعال القنديل ففعلت. كشف لي الضوء الخفيف الصادر منه بعض النتوءات الصخرية، وجنبني اصطدام ظهري بها. الممر ضيق في حدود ستة وثلاثين ذراعاً، وتمتد منه تفرعات أخرى. توقفت عن الزحف، أدرك أبي ذلك فهمس: الأيمن. دلفت في الممر الأيمن، وظللت أحبو شاعراً بقسوة الحجر على ركبتي. اصطبرت على الألم وواصلت حبوي حتى أدركت أننا أمام ممر مغلق. حينها قال: وصلنا يا بني، ارفع القنديل قليلاً، سترى أمامك ثقباً في أقصى اليمين، أدخِلْ يدك وادفعه بأناة باتجاه اليسار. إلى أين سيؤدي بنا هذا الممر يا أبي؟ افعل ما آمرك به يا بني.

وضعت كفي في فتحة الثقب الذي يسمح بمرور أربعة أصابع، وبدأت أدفع به إلى اليسار، ذهلت وأنا أرى الجدار ينفتح أمامي. انكشف لي سُلَّم يفضي إلى مغارة بحجم غرفة. استخدمت السُّلَّم المصنوع من الحبال ونزلت، وتبعني أبي. وحين وطئت قدماي أرض المغارة الملساء هَمَّ أبي بإشعال المصابيح المعلقة على أطراف جدران الكهف، وأنا أتابع ما يفعل باستغراب حتى شككت أنه يبصر!

وقفت أنظر إلى محتويات الغرفة ذات اللون الأخضر. جدرانها مزينة بآيات قرآنية وبأسماء اللّه الحسنى بالإضافة إلى المعوذتين وسورة الإخلاص وأدعية غريبة مكتوبة بالبلوشية والفارسية، وجميعها منقوشة على قماش حريري. استطعت أن أقرأ بعض هذه الأدعية. ويقول أحدها: «لك الحمد يا اللّه، لك النعم في السماوات وفي الأرض، بك نستنجد وبك نستعين، لتكن آيتك سلاماً على روح القرية المطمئنة بقدرتك على مواجهة شررها وغضبها، الرحمة الرحمة يا اللّه». ثم انتبهت إلى وجود ضريح مغطى بالأقمشة الخضراء والصفراء والحمراء، وحجر من الرخام نقش عليه: «هنا مرقد الفقير للّه الولي الصالح حضرة الشيخ الجليل رشيد حمدان». جمدت في مكاني، شعرت أن قدميَّ لا تقويان على حملي، فركعت وبكيت، دنا مني أبي، طبطب على ظهري، وقال لي: اقرأ عليه الفاتحة وانهض، لا وقت للبكاء. رفعت رأسي وسألت أبي: ما سرُّ هذه المغارة يا أبي؟ وإن كان هذا قبر مولانا فمن يسكن بين النخلتين؟

وكعادته لم يُجب عن أسئلتي. فَلّ عمامته من على رأسه وفرشها على الأرض. توجَّه نحو شاهد قبر مولانا الجليل، بسط يديه تحت الأقمشة المفروشة حول القبر. أخرج مغلفاً مصنوعاً من الجلد لُفّت حول مخطوطة وأوراق مطوية ووضعها برفق فوق العمامة المبسوطة. عاد إلى الناحية الأخرى من مرقد مولانا ومكث صامتاً ويده تحت الأقمشة. انبثق ضوء أحمر من تحت المرقد، خلت أن هناك جسداً ما سيستيقظ من موته. ورغم الأحداث الكثيرة العاصفة لم أستطع فهم شيء. إن ما يمر بي الآن هو استبصار لا يمكنني استيعابه. يقودني أبي نحو عالم غامض بشكل بطيء، مثل من يقود رجلاً حالماً إلى حلمٍ آخر فلا تفقه بداية حلمك ولا تدرك منتهى الحلم الآخر.

أمام هذا الضوء الذي ينثر شعاعه الأحمر بشكل متزايد رفع أبي رأسه نحوي، ويده مازالت تحت أقمشة المرقد. نظر باتجاهي مثل شخص بصير، يحدق فيّ ويستقرئ ملامح وجهي. قال: كم تبدو وسيماً يا يوسف! هل تراني يا أبي؟ أطلق آهة طويلة قبل أن يقول: هي المرة الثانية التي أراك فيها يا بني. وكيف ذلك؟ سألته بتَحَيُّر، فقال لي بهدوء وراحة بال: الأولى حين رجوت مولانا الجليل أن أراك وكنت في المهد يا يوسف، وبعد رجاء متكرر حقق لي مولانا

رجائي. هنا، في هذا المكان الذي ينام فيه، اغتبطت برؤيتك وأنت تحبو قبل أن تكمل التسعة أشهر. ثم قال لي: سوف تراه مرة ثانية ولكنها ستكون الأخيرة، فسألته متى؟ فقال: حينما يشبّ ويكون قادراً على حمل الأمانة وها أنا أراك يا يوسف، وأريد في هذه اللحظة الاحتفاظ بتفاصيل وجهك، وأن أغلق عيني على أجمل صورة لك. صورة أريدها أن تظل عالقة في ذاكرتي حتى آخر أنفاسي، تخفف عني عبء هذا الحمل الثقيل الذي سوف تحمله معك. وفي اللحظة الفاصلة وهو يسحب يده من تحت مرقد مولانا غطى الضوء الأحمر المغارة بشكل كامل مثل غيم سميك. أصابني للحظة بالعمى، فلم أعد أبصر شيئاً. اختفى أبي، اختفى المرقد، اختفت حدود المغارة، استشعرت جسدي ككيان مستقل جالس على أرض صوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• سقر:

أورد المؤرخ والدبلوماسي الإنجليزي، مسؤول الخدمات المدنية في المستعمرات، جون جوردون لوريمر في تقريره السرّي الذي حوى آلاف الصفحات، وسُمِيّ فيما بعد «دليل الخليج في قسميه الجغرافي والتاريخي» وطبعت منه كمية محدودة في كلكتا وختمت «سرّي وللعمل الرسمي فقط» تحت مبرر تسهيل عمل السياسة البريطانية وهي تدار من القارة الهندية: «تقع سقر على بعد ستة أميال أقصى الشمال الغربي من سرللات أسفل كِه. فيها أربعون كوخاً وبيتان من حجر الطين والجندل ومسجد صغير. البيت الأكبر وفيه خمس غرف يسكنها شيخ القرية مع نسائه الأربع وأبنائه، والآخر صغير وينم عن ذوق رفيع يسكنه رجل دين يحترمه أهالي القرية احتراماً مبالغاً فيه. ينشط أهل القرية في زراعة القمح والشعير، ويوجد فيها مئة وعشرون جملاً ومئة رأس من الماشية وأربع مئة رأس من الأغنام والماعز. ومزارع النخيل تحوي ما يقارب ألف نخلة. ويحكم سقر حالياً الأمير مجيد خان ويلقب بالشيخ. وتمنحه شركة التلغراف البريطانية مبلغاً قيمته مئة روبية هندية في السنة نظير نصب أعمدة تلغراف تقع على خط القرية».

وفي القسم التاريخي الذي أنجز بعد حادثة قتل لوريمر لنفسه بالخطأ في محل إقامته في بوشهر لم يقولوا انتحر عُثر على تعليق مكتوب بخط يده حول سقر: «من الواضح أن هذه القرية محل أطماع العديد من القرى المحيطة، ويبدو أن قيام شركة التلغراف البريطانية بوضع أعمدتها قد أسهم في انتعاش القرية اقتصادياً...» (كلمات غير واضحة ومشطوبة) «...إن نفوذ القبائل البلوشية واضح في صراعهم مع بعضهم البعض... إن الصراع المتوقع ربما يؤثر على خدمات شركة التلغراف البريطانية.. (كلمات مكشوطة)..القرية بعيدة عن قوافل قطاع الطرق الذين يمتهنون سرقة الأطفال وبيعهم في ميناء غوادر أو شحنهم في سفن وبيعهم في مسقط وشبه الجزيرة...». (كلمات مبهمة، كتب قربها تعليق مثير لم يأخذ به المشرفون على إعادة تحرير مادة الدليل فيما بعد، حيث كتب بقلم حبر أحمر) «كنت مؤمناً بالرب، ورحت أضحك كلما قابلت شخصاً يؤمن بإله لا أعرفه أو أقرأ عنه سابقاً. لماذا يستبدل الرب ثيابه كل يوم؟» ولا نعرف ما علاقة هذه الجملة بسقر؟

تحوَّل البلوش بعد نشر هذه الموسوعة السرّية إلى أقلية تناضل من أجل استرجاع أرض الأجداد الضائعة من حكم عسكري إسلامي في «الأرض النقية». وقبل ذلك أعلن رضا شاه بهلوي قيام إمبراطورية إيران الجديدة.

وتسبب بأكبر موجات من الهجرات القسرية والاختيارية إلى الجهة الغربية من الخليج، ضحيته هؤلاء القوم. سقر؛ هي قرية يوسف وجيل جديد نسي ذاكرته على أرض الخليج العربي.

• قبس الحجاز:

فات رشيد حمدان الراكب على ظهر بغل يتقدم قافلة استأجرها في مرفأ غوادر، أن الصوت الذي يسمعه هو عتب البغال الأخرى السائرة خلفه، بسبب قسوة سائسها الذي يضربها بعصاه دون رحمة، وهي تعبر منعطفاً جبلياً مرتفعاً يؤدي به إلى طريق مكران، حيث تسكن قريته الصغيرة سقر في حضن جبالها. بغال متعبة من أحمال ثقيلة أحضرها هذا الرجل من سفرته الممتدة لسنوات في ربوع الحجاز، حيث قضاها في الدرس والعلم في صحن الكعبة. وهو الآن في طريق عودته إلى دياره بعد أن أراح جسده الطاعن من سفر طويل على متن سفينة تجارية رست به في ميناء غوادر. أصاخ السمع لشكوى البغال، قبل أن يلحظ تمرد البغل المرقط بالحناء على السائس وخروجه عن سير القافلة، واندفاعه نحو جرف الوادي السحيق وانتحاره!

نزل رشيد حمدان من على ظهر البغل الذي يحمله، دنا من أذنه وهمس له بكلمات لم يسمعها السائس. تقدم نحو البغال الثلاثة، مسح عليها برفق وتأكد من خفة أحمالها المشدودة على ظهرها. توقف قليلاً على جرف الوادي متأملاً، ثم قال للسائس: لنواصل المسير، ما سقط مع البغل الذي انتحر لا يستحق عناء النزول إليه. ولكن علينا أن نجد مستراحاً لهذه البغال المتعبة. مستراح يتوافر فيه علف وماء. لنرتاح هذه الليلة ثم نواصل رحلتنا فجر الغد. وبعد مسيرة نصف ساعة، توقفا عند أكواخ مبنية من حجر تقع بين جبلين، مسقوفة بالخشب وسعف النخيل وتظللها أشجار السمر وعدد من النخيل، ويشرف عليها رجل عجوز يدعى سليم مع ثلاثة من أبنائه المتزوجين من ثلاث أخوات يعيشون على ما يجود به المسافرون من زاد أو مبلغ بسيط نظير استضافتهم. توقف وقال للسائس: نَبِيت الليلة هنا، فهذا الشجر صديق من يمتهن الحطابة، وليشعلوا الفحم.

فرح سليم حين بدأ عبق بخور الحجاز ينتشر بين الأكواخ. فدفعه لتقديم إحدى بناته زوجة له. رفض رشيد حمدان الفكرة متعففاً، خاصة بعد وفاة زوجته العزيزة على قلبه كولجان. أصرَّ سليم أن بإمكان ابنته زينب السهر على خدمته فتتبارك بعلمه ويتبارك هو وعائلته بهذا النسب، لرجل لا يحمل معه في سفره سوى الحكمة والعلم والمعرفة. واعتقدت عائلة سليم أن الطريق الذي يقطعه هذا المسافر سيحوز شرف القبس المبارك حتى يصل دياره. واتضح للسائس المرافق أنه كان محظوظاً بهذه المهمة المباركة. ولم يجد ضراً في مكوثه ثلاثة أيام في ضيافة صاحب الدار وعروسه ذات الستة وعشرين عاماً،

بل لاحظ مدى النشاط الذي سرى في البغال كلما زارها رشيد حمدان في الإسطبل الذي خصص لها. رافقتهم جذوة القبس في ذلك الفجر حين شدوا رحالهم لمواصلة الطريق نحو سقر، ترافقهم زوجة رشيد حمدان الذي يناديه الجميع الآن بمولانا. وسارت خلفهم بخشوع وسكينة على بعد مئة ذراع فَسِيلة!

• مات عابدين واختفت الدابة:

اعتقد عابدين عندما جاء إلى سقر من ربوع بومباي مع حلول السنة الميلادية للعام 1919م، أنه العبد إلى اللّه، وليس ذلك الرجل الأسود الذي عبر بحر العرب من مسقط حاملاً على عاتقه اسم إستيفان بعد أن استقام له العيش في أحد بيوت سكك بومباي. واستجار لحظة وصوله برشيد حمدان، في نهارٍ غطت فيه عاصفة رملية جبال القرية، ولم يكن يحمل معه سوى إزار، وصندوق خشبي صغير. عكف رشيد حمدان على قراءة محتوياته من مخطوطات كتبها إستيفان بعد نزول المكاره في مسقط. وسهر الليالي في مقارنتها مع ما جاء به من أرض الحجاز، ولا يغادر غرفته المخصصة للدرس والتعبد إلا للضرورة.

وقبل هجرة عابدين إلى سقر ضبطته زوجته وهو يخونها في فراشها. غضبت عليه وطلبت الانفصال، وهددته بحرق نفسها، فوعدها بالذهاب إلى الكنيسة وطلب الغفران فوافقت على مضض. وفي النهار ذاته سلمه ساعي البريد رسالة من أخيه مايك الذي ترك مسقط وطابت له الإقامة في البحرين، ينصحه فيها بالمجيء إليه عبر مكران، بعد أن تناهى إلى علمه أن رجلاً صالحاً حمل معه الضوء الأحمر الذي سلمه له يعقوب قبل أن يفارق الحياة جرّاء سيول اجتاحت الحجاز. وأن يعقوب وجد في هذا الرجل الثقة والشجاعة لحمل الأمانة وعواقبها المؤذية، وأن صورته قد ظهرت في الضوء الأحمر، واحتمالات تعقب الدابة واردة، وعليه رعاية السر.

قضى إستيفان أكثر من ثماني سنوات في العمل لدى شركة الهند الشرقية مدققاً جمركياً في شؤون المسافرين الأفراد. يتفحص حقائب المسافرين الذين يأتون من مسقط ومطرح وبوشهر والبحرين وحضرموت وعدن وزنجبار، ومن بريطانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. بعض هؤلاء محمل برغبة اكتشاف هذه القارة الهندية، وبعضهم الآخر يبحث عن استثمارات تجارية صغيرة تتمثل في تجارة الرز والسكر والخشب والشاي والبهارات والنحاس والآثار. ومن هؤلاء تجار ينتمون إلى شبه الجزيرة العربية العقيمة إلا من الصحراء وعدد من النخيل يسعون لتوسيع ثروتهم وتجارتهم في مدن مثل بومباي وحيدر أباد ومالابار وغيرها عن طريق بيع اللؤلؤ.

استعاد إستيفان مع الرسالة المحذرة، لحظة وداع وثقتها صورة مع الأب بيتر وإخوته الذين انتشلوا من السفينة. وتذكّر لحظة مباركة الأب فكرة العمل في شركة الهند الشرقية. فحمل ما يملك وركب إحدى السفن مع توصية من الإرسالية الأمريكية والقنصلية البريطانية في مسقط. سهلت له العمل في مرفأ مدينة بومباي، متسلحاً بإجادة اللغة الإنجليزية للتفاهم مع بقية العمال الهنود والمسافرين العرب والسواحليين الذين تحط بهم سفنهم على المرفأ الهندي.

طلت في تلك الليلة بوادر الرياح الغريبة بنسائمها على سكك مدينة بومباي لما حلَّ المغيب، وبدأت زوجته الهندية تلاحظ الخوف الذي يعتري زوجها دون سبب مقنع. كلام غير منطقي لزوجته المسكينة. شكّت في خيانته لها وتدبيره لخطة يبرر بها إصراره على طرح موضوع السفر إلى البحرين مروراً بمكران. حذَّرها بما هم مقبلون عليه إلا أنها لم تصدق وظل جُلُّ تفكيرها في موضوع وجود نساء أخريات في حياة زوجها حتى اشتكته عند الأب في يوم القداس. ورغم محاولاته المتكررة شرح خطورة وضعهم إلا أن زوجته لم تفهم شيئاً مما يقوله. أدرك صعوبة البوح بِسّر الضوء الأحمر الذي أفشاه لمسافر رافقه في سفره من مسقط إلى بومباي في العام 1911م، وعلم أنها زلة كبيرة لما شاهد مع زوجته ابنتهما الصغرى قد مزقت إلى جزءين منفصلين بشكل قاسٍ ووحشي، ورُميتْ قرب باب منزلهم. وقرر أنه لا مناص من مواجهتها. حملَ ساطوراً عريضاً وطاف يصرخ في سكك بومباي الضيقة معلناً الحرب عليها، حتى قال أهالي بومباي إن إستيفان قد مسه الشيطان.

عزم على السفر بعد أن هدأ في أعقاب صدمة موت ابنته متخذاً الطريق البري وسيلة تحدٍّ مجنونة في مواجهة فردية بينه وبين الدابة. وضع نقوده أمام أشهر حداد وطلب منه أن ينقش على سيف عريض: «جاء شاهداً ليشهد للنور» ([2]) أخذ السيف وحمل صندوقه الخشبي الصغير واستأجر ثلاثة بغال تساعده على السفر وقطع الهند ثم السند وصولاً إلى مكران. شعر في داخله بقوة عظيمة، وظن في نفسه أنه كالقديس يوحنا، وهو يصرع الشيطان الواقف على أبواب السماوات السبع. ولكن كلما سار في الصحراء تساقطت البغال من التعب والعطش وشدة الريح وهي تغرز سهامها في طريقه حتى كاد يفنى. عندها فتح له الرب باب قرية تدعى: سقر، فظن أنه في دار الخلد. التقى رشيد حمدان ورأى فيه سماحة لم يرها في وجه بشر قط. وقف أمامه وقال له: أستجير بك منها يا مولانا. عاينه هذا الشيخ العائد منذ أشهر قليلة إلى قريته بعد سنوات من مجاورة بيت اللّه الحرام في مكة. ورد عليه: إنها واللّه مسؤولية كبيرة لن أستطيع حملها يا عابدين. ولكن اسمي إستيفان يا مولانا. أنتَ عابدين من اليوم.

• القمل:

فاق ما جرى لعابدين الخيال. كيف تمكَّن هذا العدد من القمل التكاثر في أقل من ليلة؟ أثار ذلك عجب الجالسين حول جثة عابدين بانتظار خيوط الفجر. لم يكن بُنياً محمراً بل أسود مثل صاحبه. أصابهم الروع وهم يشاهدون حشود القمل على كفنه الأبيض! وتساءلوا كيف تسلل بمثل هذه الكثافة؟ ومتى تمكَّن هذا العدد من العيش في فروة رأس رجل واحد؟ يدرك عبد الله الكفيف سر القمل، فملازمته لرشيد حمدان كشفت له بعضاً من أسرار هذا الرجل غريب اللون والرائحة. وتذكَّر ما حدث قبل موت رشيد حمدان، ففي إحدى الأمسيات لدى اجتماع الأهالي بشيخ القرية مجيد خان تفكروا وتدبروا في سر فِقْدان فتيات القرية بشكل غامض ومبهم. قال لهم عابدين متحدياً: اتركوني لها، هي الدابة يا مولانا. وردَّ عليه رشيد حمدان بثقة: كيف نتركك وعهدة الحجر عندي، ربما هي تريدني أنا. ولكنك يا مولانا ضياء القرية، ومجد روحها، ولا يمكن أن أتركك تواجهها فرداً. عندها قال شيخ القرية مجيد خان: لا أسمح لك بذلك يا مولانا وأنت تعلم أن زوجتي باحت بالسرّ لابني نظير خان الذي يصر على أن أتنحى ليحكم القرية بالسيف والبندقية.

حَلَّ الصمت. وتناهى إلى سمع عبد الله الكفيف رشيد حمدان وهو يهمس لعابدين:

التقط قملك.

هذه دلالة على قرب منيَّتي يا مولانا.

لا، لم يحن وقتك بعد يا عابدين. سأُخرج الضوء الأحمر من مخبئه وأواجه به الدابة، وسأحظى بحراسة ملائكة الرحمن.

انفضَّ المجلس في تلك الليلة بمغادرة شيخ القرية مجيد خان وعبد الله الكفيف، وخرج عابدين لحراسة الدار كما اعتاد أن يفعل كل ليلة. ومع انبلاج الصبح، سمع صراخ زينب زوجة الشيخ رشيد حمدان تستنجد به فدخل مندفعاً إلى المجلس. رأى الدم ينساب، ولم يكن في الدار سوى ريح ريدانة لينة تنفض عنها ما تبقّى من أثر لمن قضى آخر سنواته في ربوع الحجاز، وخذلته ملائكة عَوّل عليها في مواجهة ما جاء في طرفة عين. دماء سالت في قناة صغيرة مخصصة لمجرى مائي يذهب لسقاية الشجر والمزروعات الكثيرة التي نشط في زراعتها عابدين. قضت زينب ذلك الفجر في رتق تلك الجروح الغائرة والفتوق في جسده العاري. وفور إكمالها ترقيعه خرجت وتركت شيخ القرية وعبد الله الكفيف يقومان بغسله وتكفينه وحمله مع عابدين إلى قبره البعيد داخل مغارة في جبل لصيق لمنزله.

استيقظت القرية على خبر مصرع رشيد حمدان. تَنَابَذَ الأهالي حول الدم الذي غطى أرضية مجلس المقتول. هل هو دم الدابة؟ أم هو دم مولانا رشيد؟ وانتحى شيخ القرية مجيد خان بعبد الله الكفيف وزوجة رشيد حمدان وعابدين بعيداً عن مسمع ومرأى الأهالي. وضعوا القرآن وأقسموا عليه بحفظ السر كي لا يمتد الدم إلى بيوت القرية حتى نهار ظهور القمل من كفن عابدين.

زوج واحد من القمل يتهيأ لاجتياح العالم ابتداءً من جسد عابدين، زوج سيَفكُّ صومه عن التزاوج، منتظراً منيَّته حتى يندفع كالعذاب.

• الفهرس:

داعب خيال ابن شيخ القرية نظير خان نيل رتبة الفهرس، فهو وسام يستحق التفاخر والتباهي والتعليق على الصدر، ويفرض على الآخرين مخاطبة صاحبه بسيدي الفهرس. أن تكون الفهرس يعني أن تكون عالماً بكل علم، والكتاب الذي تجمع فيه سواد الكتب، وكل المعرفة. وراود نظير خان حكم الإمارة، وإدارة شؤونها، وتوسيع رقعتها بحيث تشمل سائر مكران. وحتى يكون الفهرس، العالم بكل علم، عليه امتلاك الحجر المقدس المتمثل في خاتم الإمارة الذي يرتديه والده شيخ القرية مجيد خان، دون حاجة للسفر إلى الحجاز أو طلب العلم في كشمير وأصفهان والأستانة. وكذلك لابد من إجبار عابدين الذي جاء برفقة شيطان الدابة إقناع الشيخ رشيد حمدان إعلان البيعة له. وأججت أمه فيروزة خيالاته حين وسوست له أن إخوانه الأكبر منه من زوجات الشيخ الأخريات، سيكونون قادرين على نفيه وإقصائه من إرث أبيه بعد وفاته!

وبدأ يستدرج مجموعة من أعيان القرية الشباب، ويحدثهم عن قدرته واستحقاقه لقب الفهرس وأن يكونوا هم الأجزاء المكملة للعلم الذي سيحتاجون إليهه لإدارة شؤون مكران. حذَّره أكثرهم علماً أن قوة السلطان العماني أكبر من جيوش مكران كلها لو اجتمعت تحت إمرته. ردَّ عليه: مع الحجر المقدس، سنقدر على إغراق أي سفن تتجرأ على الاقتراب من المرافئ والبنادر المطلة على بحر العرب.

• المذبحة:

دفع ثلاثة من جنود ابن شيخ القرية نظير خان باب عبد الله الأعمى. وأدرك هذا الرجل أن دوي الرصاص وصراخ النسوة لن يزيدا حائرة إلا قوة مضاعفة. وكان خبر موت شيخ القرية مجيد خان قد ذاع في القرى المجاورة، وتوافد الأهالي لتقديم التعزية وإعلان المشيخة لابن الشيخ الأكبر سيف الدين خان، فخرج الفهرس يقود جيشاً مكوناً من سبع عشرة كتيبة مجهزة ببنادق لمنع مبايعة أخيه. وأمر إحدى هذه الكتائب بتقييد حركة سيف الدين خان داخل

منزله، وكلف أخرى بدفن والده دون تشييع تحت تهديد السلاح فاستجاب إمام القرية لأداء صلاة الميت.

دخل ثلاثة جنود يبحثون عن يوسف الذي لم يكن موجوداً في المنزل. وقفت حائرة مهددة بقتل كل من يقترب منها إلا أن أصغرهم دنا منها ولطمها بقوة، مما دفع بزوجها الكفيف إلى الخروج من غرفته مستهدفاً ببندقيته صوت الذي اعتدى على زوجته فعالجه برصاصة اخترقت صدره. وبعدها انهالا عليه بالضرب حتى هوى أرضاً.

وتضاربت الروايات واختلفت في شأن ما حدث ذلك اليوم، وقيل: قُتِلَ ثلاثون من أهالي سقر، وثلاثة من جنود الفهرس، الذي نصّب نفسه أميراً على سقر. وزادت رواية ثانية على ذلك بالقول: إن البيوت والأكواخ المشكوك في ولائها للفهرس، تُعَلَّم بالفحم في الليل ليتم مداهمتها في الصباح واعتقال من فيها من الذكور الذين بلغوا الحلم. واقتيد الأسرى إلى قلعة مهجورة على هضبة تطل على سقر، وهناك تمَّت تصفيتهم، وقذفت برؤوسهم من عل. كما تحدثت عن اغتصاب الفتيات وخوزقة النساء المسنات. بينما أكدت رواية ثالثة أن نساء سقر وفتياتها انقطع عنهن الطمث حتى سُمِّي ذلك العام بعام فساد النسَب.

عبر يوسف في تلك الليالي الحارّة الطرق الآمنة ليلاً وهو مقيد بالحديد والحبال مع مجموعة من الأولاد والفتيات. وأحس بالأمان وهو بعيد عن حراس الفهرس. يقبض على صُرَّة تحوي ما حافظ عليه الشيخ رشيد حمدان منذ عودته من ديار الحجاز، وعليه الآن أن يخفيها بعيداً عن العيون في سفر مجبر عليه تحت تهديد السلاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

كرم الرب

- 1 -

انبثقت فكرة إنشاء مدرسة أولاد العبيد المحررين في ذهن الأب بيتر زويمر نتيجة ما رآه وسمعه حول حكاية غرق سفينة تاجر رق عربي لم يعرف حتى الآن أسباب نكبتها. وتبلورت الفكرة في ليلة حارّة محملة بالرطوبة، وهو مستلقٍ على سريره الخشبي فوق سطح منزله الذي يطل مباشرة على مرفأ مسقط. في تلك الليلة الثقيلة قلّب الأب فكرة تأسيس المدرسة في ذهنه بعد شعوره بألم حاد في رأسه لم يمكنه من النوم.

استبعد الأهالي حكاية العاصفة التي سحقت هذه السفينة وحدها، إذ لم تتعرض أي من السفن الأخرى الموجودة على امتداد غرب المحيط الهندي، في الخط المسمى بالانعزال الجميل الممتد من زنجبار ومومباسا حتى سواحل حضرموت ومطرح إلى أي أثر لضرب إعصار أو حدوث تقلبات جوية. سفينةٌ قيل إن لعنة طاردتها من عمق بحيرة تنجانيقا حتى مرفأ زنجبار! البعض قال لعنة الرقيق. وشاع: أن أحد أبناء شيخ قبيلة دودوما اختطف في عملية تهريب كبيرة للعاج وقُتل على متن السفينة! وتهامس آخرون بحلول قوة سحرية غامضة طوَّحت بالسفينة في قعر المحيط.

نهض الأب بيتر من على سريره الخشبي. تناول إناءً فخارياً وشرب منه ماءً فاتراً. تأمل من على سطح منزله المكون من طابقين بيوت مسقط المتناثرة. سكون اعتاد عليه منذ أن وطئت قدماه هذه الأرض بعد رحلة تفرقت أيامها في مدينتي البصرة والعمارة، قبل أن يقرر حمل صناديق سفره لينضم إلى الإرسالية الأمريكية العاملة في الخليج الفارسي. وكانت محطته الأخيرة في مسقط.

فكر في هذا الهدوء الذي يَحلّ على هذه المدينة، وهو يستعيد صوراً كثيرة مشبعة بالألم ترسو وتسافر مع بحارة ومسافرين وتجّار. حكايات عن الصبر والجلد، عن الذات وهي تعذب صاحبها في منافسة محمومة مع الأب والروح القدس. وعن الذي جرّ في قيده وجَرجَر معه خطايا البشر، وسيق مكبلاً على أعمدة وثُـبِّت بالمسامير. أي عذاب لمن صلب في امتحانٍ إلهي لم يختبره إله قبله!

أطلقت البارجة البريطانية فيكتوريا أبواقها إيذاناً باقترابها من مرفأ مسقط معلنة عن حالةٍ طارئة. تراكض على إثرها العمال، واستعد المسعفون الإنجليز الذين وصلتهم برقية تعلمهم بما تحمله هذه البارجة من حكايا وضحايا. جاء أذان المسلمين في غير توقيته، تبعه نداء بالتوجه للمرفأ. تجمَّع حشد من العمانيين والعديد من الهنود والبلوش والكتبة والحرس التابعين للسلطان لرصد هذا النداء ومعرفة تفاصيل الحدث الجلل.

سمح للمسعفين بالصعود إلى سطح السفينة بعد الانتهاء من البروتوكولات المكررة من قبل الإنجليز إعلاناً عن رسو سفينتهم. توزع حولها فور رسوها الحراس لحفظ ما عثروا عليه فيها، وكي لا يتمكن أحد من سرقة أي شيء قبل تسليمه إلى مكتب الوكيل البريطاني. وتمكن الأب بيتر مع مجموعة تتبع الإرسالية الأمريكية من الصعود على ظهرها، والمساعدة في إنزال الجرحى والمصابين والموتى الذين أخفق الطبيب الأهوج في إنقاذهم، فسالت أرواحهم.

كان نزنجي أول من هبط محمولاً على سرير الإسعاف، والعمود الخشبي مغروزاً في خاصرته. لف حوله شاش. عيناه مفتوحتان بجزع، ويطالع الحشود المشمولة بالفضول. رمق الأب بيتر بنظرة فيها الكثير من الخشية، فدنا منه ووضع يده على رأسه وطمأنه بأن الرب حافظ لعبيده. وتمَّ استدعاء الطبيب الأمريكي شارون الذي يعمل مع الإرسالية الأمريكية ليحدد كيفية نقل الرُّبّان العماني عبد الله التوانقي بسبب حالته الحرجة، خاصة مع انتشار الحروق في وجهه ومعظم أجزاء جسده. اقترح الطبيب تغطيته بشكل كامل بلحاف شفاف يخفي حروقه ويحميه من التعرض لأي عدوى قد لا يحتملها جسده المنهك، وحُمِل بسرعة إلى عيادة الإرسالية.

بعد ذلك تم إخراج الأطفال العبيد الذين كانوا في وضع صحي أفضل لولا حالة الرعب والخوف المتمكنة منهم. استشعر الأب بيتر لأول مرة ذلك الخوف الذي لم يعهده من قبل. خوف لا يسكن الأجساد بل أصبح جزءاً أصيلاً منها. أطفال انتُزعوا من تيه أفريقيا ووجدوا أنفسهم في متاهة على أرض العرب. عيون تُعبِّر عن مأزق عميق. بياض ساطع يطوف في الأحداق، لمحه الأب وظل يرافقه حتى الليل فجفاه النوم وهو يستعيد تلك اللحظة. التفت الطبيب شارون بعد أن أنهى فحص هؤلاء الأطفال بشكل سريع وقال للأب بيتر: عليك تدبر أمرهم؟

تساءل الأب: كيف يمكن للرب أن يكرمهم وهم يحملون لعنة لونهم؟ وهل بمقدورهم تدبر أمرهم وفي روحهم المتخفية خلف الجزع والخوف حكايات لا يمكن اكتشافها بسهولة؟ الأمر الذي زاد من حيرته وقلقه. فتية لم يتعارفوا مع بعضهم البعض بسبب اختلاف لغاتهم. أتور أصغرهم سنّاً، في حين موانتي خائرة القوى لم تتعد الثامنة عشرة، ومعهم شابة أخرى، وثلاثة شبان ملتصقون ومتماسكون. البقية يسيرون خلف بعضهم البعض، مقتنعين أن قيودهم مازالت متصلة بهم رغم تنفيذ أمر قبطان السفينة البريطانية بفك الأغلال من أيديهم وأقدامهم. بلغ مجموعهم أحد عشر عبد اً وعبد ة.

كلف الأب بيتر مساعده حارب باستدعاء زوجته مزنه لرعاية هاتين الفتاتين مع الطفل أتور، وإبقاء بقية الذكور في منزل الإرسالية الصغير، حتى ينظر

في أمرهم. وطلب منه بمعية إمام مسلمٍ الصلاة على جثث الذين قضوا. كانت بعض الجثث متعفنة الجروح، ممزقةً الأوصال، منتفخة بشكل غريب. هاله رؤية القمل وهو يزحف من رأس اثنين من البَحَّارة. لذا ما إن أنهى صلاته حتى غادر المرفأ وأوصى العمال بحمل الجثث ودفنها في مقبرة المسافرين مجهولي الهوية، المخصصة لغرباء ماتوا فوق سفنهم أو لمن ألقي به على الشاطئ بسبب مرضه المميت ريثما ينجز قابض الأرواح عمله.

أمضى الأب بيتر نهاره في غرفة الإرسالية الخاصة بالتراتيل والصلوات، فاتحاً الكتاب المقدس على سِفر الرؤيا، يتدبر مشاهد العذاب الإلهي وسعي البشر للغفران. وفي هذه الأثناء دخل عليه مساعده حارب وقال: إن البَحّار السواحلي يطلب لقاءك. لقد نُزع عن خصره الخشب المغروس وعولج بشكل جيد. إنه يهلوس كثيراً حول لعنة صبَّت غضبها عليهم، ولكننا لم نفهم مقصده من ذلك.

وماذا عن الرُّبّان، هل تحسنت حالته؟

لا، ونخاف أن يموت قبل أن نعرف ما وقع عليهم من أهوال.

حسناً، سأذهب لرؤية هذا البَحّار.

علقت في ذلك المساء، في رأس الأب بيتر كلمة اللعنة وظلت تلاحقه حتى ذهابه للنوم، وكلما أغمض عينيه سمع صوت الموت يعصف بهؤلاء الغرباء. شعر بحكة في فروة رأسه وهو يستعيد صور القمل. تملكته اللوعة وهرب منه النوم مرة أخرى. نهض من فراشه وظل يتأمل مرفأ مسقط وهو يستقبل الحوادث الغامضة والقصص الغريبة والعَصيّة على الفهم. جاءته فكرة تأسيس مدرسة تتبع الإرسالية وتسمى مدرسة أولاد العبيد المحررين مع لحظة سقوط شهاب من السماء، رغم أنه لم يستسغ كثيراً مفردة المحررين، إذ كيف له وللعاملين معه في الإرسالية تحرير أرواح مسجونة في إرساليته؟ هذا ما رآه في عيونهم، لحظة خروجهم من البارجة فيكتوريا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

استعاد نزنجي شيئاً من قوّته. بحّار على مشارف الأربعين من عمره، تربّى جسده في السفن التجارية والرحلات البحرية الطويلة، عضلاته مفتولة وبنيته مستحكمة الصلابة، تجعله أصغر من عمره. مَدّ الأب بيتر يده ليحيّيه ويطمئنه. قبض عليها نزنجي بشدة سببت له ألماً فحاول أن يفك كفه من كف هذا البَحّار إلا أنه عجز عن ذلك، فقرر تحمُّل هذا الألم والتحدث معه باللغة السواحلية علّه يجيدها فيخفف من الضغط على يده.

كانت تجربة قاسية، نحمد الرب على سلامتكم.

رمق نزنجي هذا الرجل الأبيض دون أن يترك يده ثم سأله عن سيده:

كيف حال الرُّبّان؟

مازال حياً. ما اسم سفينتكم؟ وما الذي أصابكم؟

لم يتمكن نزنجي من قول شيء آخر. وبعد تثبُّته من أن سيده لم تدركه المنية، ظل ممسكاً بيد الأب بقوة. أعاد الأب سؤاله حول ما وقع لهم، واستخلص أن الجواب عند الرُّبّان الذي يعاني حروقاً بالغة، وعليه الصلاة للرب لينجيه. حينها سيكون قادراً على معرفة حكاية سفينتهم الغريبة والمسيطرة عليه، والقادرة على دك إيمانه المطلق في فهم غضب الرب وفي حقيقة السحر. لغز يجتهد في كشفه في هذه الحياة القصيرة. ظل لأكثر من عشر دقائق وهو ينتظر من نزنجي ترك يده. غاص البَحّار في النوم وعيناه مفتوحتان على سعتهما فارتخى جسده. عندها فقط تمكن الأب من سحب يده برويّة، وخرج قاصداً القنصلية البريطانية ليطلع على تقرير قبطان فيكتوريا.

دخل الأب بيتر على ممثل القنصلية البريطانية، وصافحه بقوة دون أن يعي لماذا فعل ذلك، حتى نبهه الممثل للتخفيف من الضغط على يده. عندها فطن الأب لتصرفه الغريب وترك يده معتذراً عن ذلك. تصفح الأب تقرير قبطان السفينة فيكتوريا وبحث فيه عما يشبع فضوله. إلا أن التقرير جاء خالياً من أي تفاصيل، فالبارجة اكتشفت السفينة المنكوبة بعد انتهاء كل شيء. سأله الممثل عن اقتراحاته أو أفكاره الخاصة بوضع العبيد الذين تمَّ إنقاذهم، فردَّ عليه بسرعة:

نؤسس مدرسة للعبيد المحررين.

وما الذي تنوي أن تفعله لهم، وأين ستنشئ هذه المدرسة؟

سنحوِّل إسطبل الحمير والبغال الخاص بالإرسالية إلى مقر لهذه المدرسة.

ومن أين ستصرف عليها؟

الرب كفيل بذلك.

ودون أن ينتظر منه جواباً، خرج من مكتب القنصلية قاصداً مقر الإرسالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اعتادت مسقط على استقبال الكثير من الحكايات المبهمة عندما ترسو السفن الكبيرة القادمة من الشرق أو الغرب. قصص لا تتطلب تفسيراً كونها شأناً يخص اللّه، حيث إن إيمانهم كمسلمين بالقضاء والقدر يعفيهم من التفكير في الأسباب والمسببات. والمفاجآت التي تحيط بدائرة الكون، لا يسأل عنها، ولا يثابر لفهمها أحد طالما هي أمر رباني.

كان على الأب المرور من جهة السور الجنوبي واجتياز قلعة الكابيتان التي بناها البرتغاليون، ثم عبور السوق والدكاكين حيث تعرض كل شيء ترمي به السفن الكبيرة أو تتاجر فيه بما في ذلك العبيد. واقتضى إبقاء هؤلاء الأطفال الأحد عشر بعيداً عن العيون، وخصوصاً سماسرة العبيد الذين ينشطون على طول ساحل مسقط ومطرح.

بدت حركة المرفأ عامرة بالعمانيين والبلوش والهنود الذين يعملون في كل شيء ويتقاسمون الحياة معاً في نسيج مميز. بَحّارة يحملون سلال الصيد الوفيرة في كل وقت من النهار وبجميع أنواع وأحجام الأسماك. قلافون يشتغلون في بناء وترميم السفن التجارية. هنود بارعون في حياكة الأشرعة، يحرسهم جنود من البلوش الجامدار. ومفتشون عمانيون عرب يعملون في مبنى الجمارك التابع للسلطان.

اختار الأب إسطبل الحمير الملاصق للإرسالية الواقعة خارج هذا السور، والقريبة من مبنى الجمارك الذي يشرف على حراسته حراس تابعون للسلطان مكاناً آمناً للعيش. وطلب من مساعده حارب تكليف بعض العمال تفريغ وتنظيف الإسطبل، ونقده لشراء ما يحتاجون إليه من خشب لتقسيم المكان إلى قسمين. قسم صغير خاص بالفتيات وآخر أكبر للفتيان. وسيخط فيما بعد يافطة باللغة الإنجليزية كتب عليها: «مدرسة أولاد العبيد المحررين». وقد باشر بعض هؤلاء الفتية الذين أدركوا أن هذا المكان سيكون مخصصاً لهم العمل، حيث كانوا أول من مدَّ يد العون للعاملين الهنود والعمانيين الذين يتقنون فن النجارة والبناء. وهو ما أدهش الأب الذي لم يتوقع ذلك منهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 3 -

وجد الأب بيتر عقبة كبيرة بعد أسبوع من العمل في المدرسة فقد تعذر عليه التواصل والتفاهم مع هؤلاء العبيد، حتى حَلّ عليه نزنجي على حين غرة. استعاد نزنجي بشكل مباغت صحته، ولم يتخيل الأب سرعة تعافيه، وعودة تلك الشدة الرهيبة إلى قبضته بمجرد مصافحته. وأحسَّ أن لهذا البحار روحاً قوية. سأله عن حاله وحال سيده الرُّبّان فأخبره أنه بدأ يتعافى مع فقدان كامل للبصر. تمنى له الأب الشفاء، وسأله عن سبب وجوده هنا، فقال له: كنت أود التحدث مع بعض العبيد الذين كانوا معنا على السفينة. رفض الأب أي نوع من الحوار طالما هو لا يعرف بأي لغة سيحدثهم. دنت منهما موانتي وقالت لنزنجي بلغة البانتو السواحلية:

ما تبحث عنه ليس عندنا. ولا نعرف عنه شيئاً.

ردَّ عليها نزنجي بلطف:

ربما نجوتُ بسبب لطف اللّه بنا؛ ولأنكم كنتم معنا على السفينة.

ابتسمت موانتي ابتسامة باهتة ولم تعلق. في حين اعتَبَرَ الأب وجود نزنجي فرصة سانحة ليعمل عنده كحلقة وصل بينه وبين هؤلاء العبيد حتى يتمكن من تعليمهم اللغة السواحلية العمانية والإنجليزية والعربية. رفضوا الفكرة، كون هذا الرجل صائدهم وسجّانهم في رحلة معاناتهم الطويلة. وبالمقابل رحَّب نزنجي بالفكرة. واقترح عليه الأب العمل في الإرسالية لحين شفاء سيده الرُّبّان، محذراً إياه من عواقب قيامه بأي شيء يضر هؤلاء الفتيان والأطفال، فوافق نزنجي على ذلك دون تردد. وحاول الأب أن يشرح للفتيان أنهم في أمان طالما هم تحت رعاية الإرسالية، إلا أن معرفته بلغة البانتو لم تسعفه. تحدث نزنجي نيابة عنه، شارحاً لهم ما يقوله هذا الأب الأبيض اللون، المتوسط الطول، وتولَّت موانتي الترجمة لهم.

انسحب الأولاد من المكان وظلت موانتي واقفة معهما. انْبَهَر الأب بيتر وابتهج من شجاعتها وجرأتها. وهي تبدو طبيعية ومرحة. وكأنها نسيت لحظات ألمها السابق الذي عاشته وهي في قبو السفينة المنكوبة. وفكر الأب في قدرتها على البوح بما مرت به ليتمكن من فهم عظمة الإنسان الذي تدق يده بالمسامير ويقاد إلى قدر مجهول. تابعت موانتي عيون الأولاد من ضلفة الباب الموارب وهي تتحدث مع نزنجي وهو يترجم للأب بيتر، بحديث لم يتمكنوا من سماعه. بعضهم جاهل بما يجري والبعض الآخر مثل مسالمي ومباندا وكنجي تابعوا الحديث خشية افتضاح سر لا يعرفه بقية الأولاد الذين كانوا معهم في تلك الليلة العصيبة بمن فيهم موانتي. وتوجب عليهم حفظه خوفاً من عواقب

حذرهم منها مباندا. أقلقهم ترحيب الأب بهذا البَحّار الذي احتاروا في سبب نجاته ونجاتهم. شكّت موانتي في وجود سِرّ تجهله يجمع بين مباندا ومسالمي وكنجي. فما تعرفه هو سِرّها الأوحد الذي قادها إلى هنا بمحض إرادتها، وأفشت به للأب بيتر:

لم يتم اختطافي وبيعي قسراً، لقد ذهبت إلى زنجبار لأعمل كخادمة. هربت من زوج أمي حيث نعيش في بمبا. وجدت نفسي في مدينة ستون تاون، أطرق أبواب البيوت بحثاً عن عمل، وحين عجزت عن ذلك، عرضت جسدي للبيع كعبد ة فنصحوني بالتوجه للمرفأ حيث السفن تبحر باتجاه الجانب الآخر من العالم. نمتُ على عتبات المساجد وقرب جدران الكنائس والمعابد. ضربني الجوع والمرض والعفونة. وفي ليلة غاب عنها القمر تعثّر بي رجل أعمى، فاقد لحاسة الشم، اعتذر مني ومدَّ يده ليساعدني، فلمس ثديي واعتذر مرة أخرى حين أدرك أنني أنثى. سألني عن حالي فأخبرته. طلب مني أن أتبعه. لم أجد خياراً وأنا على هذه الحال. أدخلني طريقاً ضيقاً يعرفه جيداً. وعندما وصل إلى فتحة باب مخلوع طلب مني بتأدب الدخول فتقدمت بخطوتين. شعرت بأنفاسه خلفي. طلبت منه وجبة طعام فتجاهل طلبي قائلاً: إنه جائع لجسد أنثى أكثر من جوعي للأكل. طلب امتطائي فلم أرفض، ولكنني رجوته أن أستحم كي لا يشم رائحة العفونة الصادرة من جسدي، فأخبرني أن هذا أمر لا يهمه أيضاً، فهو لا يرى ولا يشم وحاجته إلى جسدي ستوفر لي كل ما أريد بعد أن ينتهي مني. وهو يجامعني تذكرت سبب هروبي من زوج أمي الذي يسعى للطلب البسيط نفسه!

توقفتْ للحظة، مسحتْ دمعة نزلت على خدها ثم واصلت:

استسلمت له. لم أكن أملك خياراً أهون من ذلك فهو أعمى ولا يشم ولن يتمكن من معرفتي بعدما أغادر منزله الذي لم يكن سوى خرابة مهجورة. وما إن قذف داخلي حتى شعرت بحميم مائه. ظل بعدها ساكناً، قبل أن يمد لي قليلاً من النقود. قال لي قبل أن أرى روحه تنسل من جسده: هذا المال القليل سيوصلك إلى المرفأ. حافظي على نفسك فما زلت بكراً!

صمتت قليلاً وتركت دموعها تنسكب في أمان على خدها ثم رفعت رأسها ونظرت إلى الأب، فتلاقت نظرتاهما، فعرفت أنه مازال ينصت لبوحها فسألته:

هل مازلتُ بكراً يا أبتاه؟

لم يُجب عن سؤالها الذي باغته، فأعادته عليه أكثر من مرة، حتى أجابها قائلاً:

لا أعرف يا موانتي. ستكتشفين ذلك مع الأيام القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 4 -

صار من اليسير على الأب بيتر بعد انقضاء أكثر من ستة أشهر على إنشاء مدرسة أولاد العبيد المحررين، ترك المدرسة تحت إشراف وإدارة مباندا، الأكبر سناً. وعاد الأب بعد هذه المدة مع مساعده حارب للقيام ببعض الجولات في القرى القريبة من مسقط وصولاً إلى مطرح والمناطق المجاورة لها. ويستعد لذلك بشحن الصناديق بالكتب والكراريس المسيحية والعقاقير الطبية. وينطلق مع صاحبه على ظهور ركائب من حمير وبغال، صعوداً على الجبال الصخرية والتلال البركانية لتقديم المواعظ الدينية، وبيع الكتب والكراريس وتقديم العلاج المجاني.

يستغل مباندا هذه الفترة لإملاء أوامره على إخوته بالصلاة الصباحية في الكنيسة الصغيرة التي شُيدت لهم في فناء المدرسة. سألهم أتور ذات مساء: هل كان سيدنا المسيح عبداً حتى يقيد؟ استنكر مباندا، وعتبت عليه موانتي، وضحكت من سؤاله نواتي. أما مسالمي وكنجي فقد أخذاه بعيداً وأخبراه أن العبيد أبناء الرب، مثلهم مثل بقية الخلق، وأنه قُـيِّـد لِيُخلِّص العالم من عذاباته، فردّ عليهم أتور: عن أي خلاص تتحدثون، إنْ كنا مازلنا نعاني ونتعذب! تركهم، وأصبح يرفض دخول الكنيسة، وناهض فكرة أن الحياة تسكن في الماء المقدس، الذي يعرف أنه الماء نفسه الذي يحمله كل صباح من العيون العذبة والأفلاج القريبة من مسكنهم. حاول مباندا إقناع هذا الصبي بمجافاة كلامه الصواب، ولكنه تفاجأ ذات يوم حين رآه جالساً قرب رجل من أهل مطرح حَلّ في مسجد قريب من موقع مدرستهم، ممسكاً كتاب المسلمين ومرتلاً منه سورة مريم.

جلس مباندا يستمع بذهول، فلم يسبق له أن سمع ترتيلاً، خصوصاً أنه يتحدث عن مريم وهي تنتبذ لها مكاناً شرقياً، وكيف احتجبت حتى جاءتها روح الرب متمثلة في هيئة بشر يهبها غلاماً. فجزعت وتساءلت: كيف يمكن أن يحدث لها ذلك ولم يمسسها بشر ولم تكن بغياً؟ وهكذا كان هذا الغلام آية ورحمة للناس. هبّ مباندا، ودخل الكنيسة، وظل يبكي نهاره كله، فيما لم يعره أتور أي أهمية. وحين أنهى رجل مطرح ترتيله، سأله أتور: سيدي، هل هذا الذي يتحدث عنه الكتاب هو المسيح؟ دنا منه رجل مطرح، ومسح على شعر رأسه المجعد بلطف وردّ عليه: هو، ولكننا نسمّيه عيسى عليه السلام. ثم سارا معاً حتى وصلا المقهى فطلب رجل مطرح له شاياً ولأتور لبناً. سأله رجل مطرح العديد من الأسئلة المتعلقة بعائلته، وكيف وصل إلى مسقط، إلا أن أتور لم يكن يعرف بماذا يجيبه. وعندما سأله عن مسكنه، أخبره أنه يسكن في مدرسة العبيد المحررين، فطلب رجل مطرح أخذه إلى هناك.

جاءت نواتي مهرولة نحو مباندا تخبره أن أتور قد جلب معه رجلاً يقول إنه من مطرح. خرج إليه، وتذكر أنه الرجل الذي كان يردد كلمات من القرآن في سورة العذراء مريم. كسب الرجل ود الجميع بمن فيهم كنجي ومسالمي وموانتي. وقف رجل مطرح وبادرهم: اسمي ثابت بن جارم، وليس لي معارف هنا، أهلي في زنجبار ومطرح، ولي أخت متزوجة أبحث عنها هنا، هل يمكنني المبيت عندكم الليلة؟ تردد كنجي ومسالمي ثم نظرا معاً باتجاه مباندا الذي رحَّب بهذا الغريب. وفي المساء تحلَّقوا حوله وهو يرتل القرآن. تملَّكهم استرخاء عجيب، وإن كانوا لا يفقهون ما يقوله. وكان مباندا الأكثر إنصاتاً وتوقيراً.

تسامر مباندا مع ثابت بعد أن نام الجميع. وكشف له رجل مطرح أنه يعرف السرّ الذي يحتفظ به مع كنجي ومسالمي، وأضاف؛ سيعرفه أتور وسيدفع حياته ثمناً لذلك. وجم وتغيرت ملامح وجهه، ونزلت دمعة من عينيه وهو يخبره: ستغرق يا مباندا ولكن ليس في بحر. سوف يقتل كنجي غلاماً دون ذنب وسيضيع مسالمي في أرخبيل الخوف. مسكن سرك في الشاذروان. احفظ هذا يا مباندا واكتبه كي لا تنسى. خاف مباندا من علم هذا الرجل، فيما واصل ثابت وهو يتـأمله بعد أن مسح دموعه بطرف أصابعه:

عليك بالصغير.

أتور؟

له الدابة، وهو قادر عليها.

أي دابة؟

لم يجبه، وتمدد على فراشه ونام على جنبه الأيمن.

غادر ثابت رجل مطرح ولم يلحظه أحد، وترك لهم القرآن الكريم، مما أربك مباندا. كيف يمكن أن يُبقي هذا الكتاب هنا؟ وما الذي سيقوله الأب بيتر لو علم بالأمر؟ نادى كنجي ومسالمي وموانتي وحذَّرهم من مغبة إخبار الأب؛ لأن هذا قد يغضبه، وعليهم توحيد رواية استضافتهم لعابر سبيل طلب المبيت، وأنهم أحسنوا ضيافته، وقد مضى في دربه مع حلول الصباح.

هنا صاح بهم أتور:

ولكنه لم يخطُ على قدميه؟

التفت إليه مسالمي:

ما الذي تعنيه؟

لم يسر.

ردد أتور.. ثم أردف بإطراق وبلاهة:

لقد طار!

لم يصدق الجميع ما قاله أتور. صوبوا نظراتهم نحوه باستهزاء، إلا أنه أكد قبل نعته بألفاظ ساخرة:

نعم، لقد رأيته وهو يطير. حلَّق فوق باحة المدرسة ثم اختفى خلف الجبال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

عاد الأب بيتر في يوم مطير وكانت السيول تندفع من جبال مسقط باتجاه الأرض المنحدرة، حيث البيوت والسوق ومدرسة العبيد المحررين. يرافقه رجلان يحملان صاحبه حارب، الغائب عن الوعي على سرير مصنوع من ألياف الشجر. طلب الأب من مسالمي استدعاء الطبيب شارون من مبنى الإرسالية غير البعيد فذهب مهرولاً. تجمَّع الصبية حوله، وما إن رأت مزنه زوجها حارب حتى ولولت وأعولت وصاحت وهي تسأل: هل مات؟ حاول الأب طمأنتها: إنها مجرد حُمّى، وسوف يتعالج وتتحسن حالته. انْذَعَرَ الأب، فلم يسبق أن رأى حارب مريضاً أو يشكو من علة. جاء الطبيب مسرعاً، حاملاً معه حقيبته. وما إن بدأ يعاين حارب، حتى التفت للأب وقال:

حُمّى المستنقعات.

من النوع الحميد أم الخبيث؟

لا يمكننا تحديد نوعها الآن. إن تطور حالته للأسوأ تعني الموت، أما إذا فاق من غيبوبته فسيكون هناك أمل في نجاته. لماذا لم تأخذه إلى عيادتنا في مطرح عندما كنت هناك؟

لم نكن في مطرح.

ولم يسأله الطبيب أين غابوا طوال هذه المدة. حقن حارب ووعد بزيارته غداً، وطلب منهم تخفيف حرارته بالماء البارد قدر المستطاع، مع جرعات من دواء مسكّن للحرارة. تناوب الجميع: زوجته مزنه، والأب بيتر، ومباندا، وأتور، ومسالمي، وكنجي، وموانتي، ونواتي في نقع الخرق في ماء مخزن في إناء فخاري والمسح بها على رأسه وصدره.

بدأ جسد حارب، بعد أيام، يرتعش وينتفض، وتسببت الحُمّى بإصابته بالرَّشْح. سهرت عليه زوجته مزنه تلك الليلة، تناجيه وهي تستبدل الخرق المستخدمة بخرق نظيفة: لماذا تفعل بي كل هذا يا حارب؟ جئت بي من صور وقلت إن قرينك ألزمك ألا تضع ماء صلبك فيّ إلا بين جبلين. شغلتك مريم العذراء عني، وكلما اقتربت منك قذفت على الفراش وطلبت مني غسله وتطهيره متعللاً أن القرين لم يأذن بذلك بعد. لا تمت يا ابن هيثم، انهض، مازلت أنتظرك لتأخذني بين جبلين وتضع في بطني ابنك الذي أنتظر. لا ترحل وتتركني في بلد لا أعرف فيها سوى الأب بيتر وهؤلاء العبيد. انتبهت مزنه لزوجها حارب وهو يحرك شفتيه محاولاً النطق. دنت منه ووضعت أذنها قرب فمه ونادته: قل يا ابن هيثم.. انطق.

ليعلمهم الأسماء.

وعاد بعدها إلى غيبوبته.

طرقت على أبواب الغرف كلها حتى استيقظ الجميع. جاء الأب بيتر، قالت له:

لقد تحدث.. حارب تحدث.

لنشكر الرب على هذه المعجزة، مباركة أنت يا مزنه.

ألا تريد أن تعرف ماذا قال؟

ماذا قال؟

قال: علمهم الأسماء.

ماذا؟

هذا ما نطق به.

سار الأب بيتر عائداً إلى غرفته مهموماً. في حين تجمع الصبية والصبيتان حول مزنه فرحين، واحتشدوا جميعهم حول حارب. في حين ظلت صدى جملة مزنه تتردد في رأس بيتر «علمهم الأسماء». «علمهم الأسماء». أعلم مَنْ الأسماء؟ تساءل وزادت حيرته. أي أسماء يجب أن أعلمهم؟ ومَنْ هم! هل يقصد أبناء الكنيسة، أبناء مدرسة العبيد المحررين؟ ومثلما طار النوم من رأس الأب ليلة وصول هؤلاء العبيد بعد إنقاذهم من السفينة المنكوبة، قضى الليلة ممدداً على فراشه داخل غرفته يفكر فيما تفوهت به مزنه على لسان زوجها. وحين أطل عليهم النهار، دخل على حارب، الذي ما انفك جسده يرتعش وينتفض ويرشح عرقاً غزيراً. فتح عينه، رأى الأب أمامه فقال له:

علمهم الأسماء.

أعلم مَنْ؟

أبناءك يا أبي.

رمى حارب على الأب بيتر لغزاً ثقيلاً يصعب فكّ شفرته. لذا أخبر الجميع بأنه سيختلي بنفسه داخل الكنيسة ولا يريد إزعاجاً. ظلت مزنه تردد المعوذتين وتنفخ على رأس زوجها حارب، أمام الصبية والفتاتين. ونادى أتور موانتي في تلك الليلة، ووقفا معاً تحت المطر، وسط ساحة المدرسة، وسألها عن الشيء الذي يحوم في هذا الظلام. ولم تصدق موانتي ما رأته للوهلة الأولى، ولكن مع اقترابه، صرخت:

إنه من الجن.

قال لها أتور بهدوء:

لا، إنه رجل مطرح، ثابت بن جارم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

بقي الأب بيتر نصف النهار جالساً على ركبتيه منكساً رأسه وشابكاً يديه في خشوع عميق محاولاً فهم مطلب حارب ليخرجه من محنته ويبقيه في الحياة. سمع صوت رفرفة جناح طائر داخل الكنيسة. تسللت حمامة بيضاء من النافذة المفتوحة وظلت تحوم. التفت إليها الأب وفكر في سبب كسر هذه الحمامة خلوته؟ سمع هديلها فتذكَّر حمامة النبي نوح بعد عودتها إليه حاملة في فمها ورقة زيتون خضراء، فأدرك على إثرها أن المياه جفَّت عن الأرض بعد أن قضوا أكثر من أربعين يوماً على الفُلك. كيف يمكن له فهم ما تريده هذه الحمامة غير أن مطر البارحة قد توقف فلا طوفان هناك ولا فُلك. فهل تريد إخباره أن حارب قد مات؟ بكي من هذا الاعتقاد، وصوت حارب يرن صداه في أذنه: «علمهم الأسماء». وقعت عيناه على الحمامة، وبدأ يردد أسماءهم، وأبصر أتور وهو جالس قربه، ويسأله لماذا هو أسود والمُخلص أبيض؟ خزره الأب بيتر وقال له بغضب: ألم أخبركم أن تتركوني في صومعتي؟ فزّ أتور، وقال: «والشهوة إذا حبلت ولدت الخطيئة والخطيئة إذا اقترفت ولدت الموت» ([3]) وأنا ذاهب للخطيئة يا أبتي. مرَّ أتور أمام الأب يسير بخفة. رفرفت الحمامة، التفت نحوها ثم عاد ببصره نحو أتور ولكنه لم يكن هناك! طارت الحمامة وخرجت من النافذة المفتوحة.

جلست موانتي ومعها أتور على باب الكنيسة ينتظران خروج الأب بيتر. شعرت موانتي بالقلق تجاهه، خاصة بعد انتصاف الليل. غَفَا أتور في حضنها، وبين الفينة والفينة يأتي من يسأل عنه، حتى جاءت مزنه وعلى محياها فرح غامر باستعادة حارب لصحته جزئياً، وبنطقه بعد صمت وسؤاله عن الأب. ساد الهدوء المدرسة. وظلت موانتي جالسة مكانها بعد قيام مباندا بحمل أتور إلى سريره. عزمت على طرق الباب لتخبره عن حارب، إلا أن هذا سيعدُّ خروجاً على رغبته بالاختلاء بنفسه. وتمنت لو أن ملاكاً تائهاً يقف أمامها فتستعطفه ليطمئنها عليه، أو تأتيها بالخبر السعيد روح خفيفة تتغلغل إلى داخل الكنيسة. تسلل التعب والنوم إليها، غفت للحظة. وما إن فتحت عينيها بتكاسل حتى رأت الأب واقفاً أمامها. نهضت وقبل أن تسأله، قال لها بصيغة آمرة: أيقظي الجميع من النوم، وتعالوا إلى غرفة حارب.

دخلوا غرفة حارب ووجدوه جالساً على سريره مستنداً إلى الجدار. شعروا بالسعادة لتحسن صحته. جلس قربه الأب بيتر ومزنه. وقفوا باحترام للأب وهو يحدثهم قائلاً: اليوم يا أبنائي وبناتي سيكون يوم جديد، ولادة جديدة، بها يكتمل إيمانكم بالروح القدس. سأعلمكم الأسماء وستكون بدءاً من الآن أسماء لكم. إن قبلتم بها فستكون رفعة للرب ولهذه المدرسة الحاضنة لكم. ولو وجدتم فيها ما يزعجكم فلا تترددوا في التخلص منها والإبقاء على

أسمائكم أو تحريرها بأسماء أخرى تُعبّر عن أرواحكم وتتمثل في أجسادكم. وإذا راقت لكم حملت إيمانكم وغدت طريقاً للنجاة. ومن يرى أمامه طرقاً أخرى للسفر فيسوع المسيح أول من يرافقكم ويحميكم ويصونكم. وما إن أكمل خطبته العصماء، رأى العيون تحملق فيه غير مستوعبة ما يرمي إليه، ولم يكن هو قادراً على الشرح أكثر، فأخرج ورقة وقرأ ما فيها: مباندا سيكون اسمك جيكوب. أتور اسمك إستيفان. كنجي ناثان. مسالمي سيكون مايك. موانتي ماريا. نواتي إيزابيل. وأكمل بقية الأسماء ثم طوى الورقة وأعادها إلى جيبه. تركهم في حيرة أَجَلّ من حيرة خطبته. ظلوا متحلقين حول حارب؛ لأنه فهم ما ذهب إليه هذا الأب. كانوا مثل من طُبع على قلوبهم فلا يفقهون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• مدرسة أولاد العبيد المحررين:

في العام 1906م نشرت المجلة الدورية للإرسالية الأمريكية «الجزيرة العربية المنسية» تقريراً كتبه الأب والمبشر بيتر زويمر جاء فيه: «كان من الصعب تجاهل هؤلاء الأطفال السود الذين أنقذناهم من حطام سفينة تاجر رق عربي، ولم نتمكن من معرفة حيثيات العارض، قبل أن تنتشلهم بارجة حربية إنجليزية. قمنا على الفور بتقديم الرعاية اللازمة لهؤلاء المشردين الصغار المرضى والمرعوبين، ومنحهم الشعور بالطمأنينة التي يحتاجون إليها. واستطعنا بعد الاتفاق مع القنصلية على توفير الطعام والكساء لهؤلاء، وتعليمهم القراءة والكتابة حتى يقرروا ما يريدون في هذه الحياة. ولكننا نسينا مسألة جوهرية ينبغي فهمها. لقد أطلقنا اسم «مدرسة أولاد العبيد المحررين» على هذا المشروع، ولكننا لم نستطع تحريرهم من عبوديتهم، ولم تكن المدرسة مكاناً لبلوغ ذلك. وعليّ الاعتراف بأننا حررناهم من أصفادهم، ولكننا استبدلناها بأصفاد جديدة. لقد لقّناهم التراتيل والصلوات، وعلمناهم ممارسة الطقوس اليومية رغم ادعائنا بحرية اختيارهم الإيمان بديننا المسيحي. أدركت ذلك متأخراً، وليس من خلال أسئلة إستيفان المشككة دائماً، رغم محافظته على أداء الصلوات بشكل يومي. ولا من سلوك جيكوب الذي أبدى حماسة والتزاماً دينياً مدهشاً ثم فاجأني بقرار ترك المدرسة والرغبة في التحول إلى دين آخر! هذا التحول أثَّر فيَّ لأنني اجتهدت في إرشادهم إلى طريق يسوع المخلص، وفي هدايتهم إلى طريق النجاة. إن تحريرنا لهم من العبودية لم يكن يعني أن نسجنهم في عبودية أخرى هي عبودية الدين. ولذلك قرر بعضهم كسر الأصفاد واختيار الدين الذي يرغبون في اتباعه. وهو أمر علينا احترامه حتى لا نكون مثل العرب الذين عرفتهم، والذين يلاحقون من يدخل في المسيحية ويرتد عن دينهم بتهديده بالقتل، وقد عالجنا ذلك بتهريبهم إلى دول قريبة بمساعدة القنصلية البريطانية محملين بهويات وأسماء جديدة. لقد علمني هؤلاء الأولاد أشياء كثيرة، أكثر مما تعلمته من الكتاب المقدس، ولتعذروني على هذا القول».

• اللعنة:

لم تكن سفينة الرُّبّان عبد الله التوانقي سفينة غير مباركة، بل كانت ملعونة. واللعنة صبَّت عليها مثل موج البحر وهو يضرب في خشبها وهي تبحر نحو مصيرها الغامض في لحظة نداء أبدية لم يكن يحيط بأمرها إلا الرُّبّان عبد الله، وعامله العجوز جواخ الساهر على البضائع البشرية المقيدة بالسلاسل والحبال. ويعي جواخ الفارق الكبير بين أن تكون مباركاً أو ملعوناً! فمنذ بلوغه

النضج دفعه والده الفارسي للعمل في مراكب السلاطين العمانيين خادماً ثم عاملاً ثم قائماً على إعداد القهوة العمانية، وتقديم وجبات الطعام، وتنظيف وغسل ملابس الرُّبّان ومساعديه، والقيام أحياناً بنقل حريم وإماء التّجار والسلاطين. وبصبر وجلد يقف أمام غرفهن، لا ينبس بكلمة لأحد ولا يرفع عينيه ليرى وجوه النساء حين يُسمح لهن بالخروج من غرفهن الخاصة ليستنشقن قليلاً من هواء البحر العليل في ستون تاون، حتى اتخذه والد الرُّبّان عبد الله التوانقي مساعداً له، بعد أن اكتشف فيه نعمة البركة وهي تصيب الرُّبّان في رحلاته كلما صحبه معه. شَبَّ هذا الفتى على الديانة الزرادشتية، ونهل من ألواحها المقدسة حكمة النار.

وصدَّق الرُّبّان عبد الله هذه البركة بعد أن غرقت سفينة والده وأنقذه جواخ، ورمى به على قارب نجاة صغير. وواظب طوال الليل يجدف في المحيط الهندي حتى أوصله إلى جزيرة سومطرة. وبعد أن تعافى الشاب عبد الله، وورث خير أبيه، أجلسه عن يمنيه في مجلسه وسأله على انفراد: كيف أعيش يا جواخ وأنا لا أستطيع أن أكون رُبّاناً؟ واقترح عليه أن يستأجر رُبّاناً هندياً ذا خبرة في علوم البحار وقيادة السفن التجارية بأجر أسبوعي. وثق هذا الشاب بكلام منقذه وأدرك أنه شخص مبارك. كل ما يقوله ويقترحه في التّجارة والنقل البحري يصيبه بالخير والثراء. شبَّ عبد الله على نصائح جواخ الذي لم يعد بمقدوره النهوض بالمهمات الكبيرة، فوضعه الرُّبّان عاملاً في القبو لثقته به، ويقينه أن هذا الرجل لن تغريه البضائع القيِّمة التي يحرسها، ولن يمد يده للسرقة.

وفي تلك الرحلة الأخيرة، نزل جواخ إلى القبو وشعر بتغلغل غير طبيعي في ثنايا الحبال والأشرعة. سمع أنين الخشب فأيقن أن السفينة تبكي لخطب ما. حاول معرفة مصدر هذا الأنين فصلى للآلهة زرادشت، وأشعل الفحم في المبخرة حتى سمع أصوات طبول تأتي من بعيد. حينها علم أن البركة قد انقطعت عنه وغادرت هذه السفينة، وأن اللعنة حلّت عليهم، ولا بد من مواجهتها. وأحس أن هذه الرحلة هي آخر إبحار له، بعد أن لمح وميض الضوء الأحمر وهو يرسل إنذاره لحكمة النار لحظة صلاته لها.

• الماء المقدس:

لا يعرف أتور أن السيّد المخلص صرخ صرخته الأبدية: أنا عطشان، وأن الكنيسة الجديدة ولدت في لحظة بين تدفق الدم والماء من جنبات المسيح وهو على الصليب. ولم يتمكن من فهم معنى تحويل الماء الذي يحمله كل صباح من العيون والأفلاج، ليكون مطهراً لخطاياهم، بعد أن يغمس فيه الصليب، وهو يردد بعض الآيات والصلوات المتعذرة على استيعابه. استغرب الجميع من اقتراح الأب بيتر بتغيير أسمائهم إلا أتور الذي خرج من وراء الأب

وذهب لينام. تحلقوا حول حارب ومزنه في محاولة لفهم ما يصبو إليه، والحماس المتقد من عينيه وهو يلقي عليهم أسماءهم الجديدة. أصدر حارب آهة قصيرة وطلب شربة ماء أسرعت بها مزنه. ارتوى وتمدد على سريره وأغمض عينيه. طلبت مزنه من الجميع أن يخرجوا ليمنحوا زوجها الراحة.

أعلن كنجي في ساحة المدرسة معارضته تغيير اسمه الحالي الذي يعني فارس الشمس إلى اسم «ناثان» الذي لا يعرف معناه. وهو مكره على حمل اسم معناه «عطية الله» بحسب العهد القديم كما عرف لاحقاً. أما مباندا وهو السهم المندفع، خمن أن جيكوب سيكون اسماً لائقاً به. وهكذا ظلت المجموعة بين رفض وقبول حتى انتصف الليل. وسعت موانتي إلى إنهاء كل ذلك بإقناعهم أن هذا الأمر سيكون في صالحهم للاندماج في هذا المجتمع الجديد. ثم علّقت ضاحكة بقبولهم لبس السراويل الإفرنجية في الوقت الذي استنكروا فيه حملهم أسماء إفرنجية! إن الأسماء تلبس وتستبدل مثل السراويل. هذه نعمة علينا قبولها لنسعد بخيرها.

سألهم الأب بيتر عن رأيهم في الصباح التالي، فسكتوا. خزرتهم موانتي فوافق الجميع على أسمائهم الجديدة، إلا أتور الذي وقف أمام الأب وهو يسأله بسذاجة: ألن يعرفني الرب لو قابلته باسمي الذي أحمله؟ ألن يختلط عليه الأمر بين أتور وإستيفان؟! ضحك الأب بيتر وهز رأسه ثم طلب منه أن يحمل إناء الماء المقدس ليبدأ بتعميدهم كمسيحيين، مكرراً عليهم أنها ولادة جديدة: يموت فيكم الرجل القديم، ويخرج منكم الرجل الجديد.

خرج إستيفان من جسد أتور ليشب على ماء مقدس تعوَّد على إحضاره كل فجر من العيون والأفلاج، غير مؤمن أن الذين لمسوا ثوب يسوع المخلص شفوا، وأنهم بهذا الماء يتعافون، فقط لأن الصليب حين ينغمس في هذا الماء يصير حياً وقادراً على الشفاء والتطهير وتجديد الشباب ويكون ضامناً الحياة الأبدية.

• القرين:

انتظر حارب من قرينه أن يتحول إلى المسيحية كما تحوَّل هو. ظل قرينه معانداً، مكابراً، يردد سورة «طه» كل مساء حينما يدخل في النوم، ولم يكن يعرف اسمه. استيقظ ذات ليلة على صوت زعيق والديه وإخوته وهم في لجة نار تأكل بيتهم المبني من سعف النخيل وجذوعها، تحاصرهم وتلتقطهم بلسانها الواحد تلو الآخر. وكان هو في ركن محصن بهالة غريبة لم تدع النار تمسس جزءاً منه!

وجد نفسه وهو في السادسة عشرة من العمر عاملاً في دار للأيتام ترعاها الإرسالية الأمريكية في مسقط. آمن بالروح القدس وأصبح خادماً للكنيسة.

وبعد عام من الخدمة بدأ يخرج مع المبشر توماس في رحلات تبشير في بعض القرى القريبة من مسقط، ومعهما عاملٌ آخر يجر البغال ويساعدهما في مهمتهما.

وصلوا إلى وادٍ قريب من صور، وقرروا أن يقضوا ليلتهم قبل دخول المدينة. وما إن نصبوا خيامهم حتى نام المبشر توماس وبدأ بالشخير المتقطع. بعده نام حارب. ظل العامل على غير عادته متوتراً، يبتعد عنهم ويغيب في الظلام ثم يعود ويتأمل حارب الغارق في سبات عميق. جلس قربه يتأمله وهو نائم وقد لف خصره بإزاره، عاري الصدر. ظل العامل يفكر، يقدم ثم يتردد. يَهَم بفعل ما، ثم يتراجع ولكنه في النهاية تقدم من حارب وبهدوء تام تسللت يده تحت إزار حارب حتى وصل إلى عضوه وبدأ يقبض عليه. أخذ التعب من حارب كل مأخذ فأعرض قليلاً ثم واصل نومه دون أن ينتبه لما يفعله العامل حتى شعر بانتصاب عضوه فاستيقظ متفاجئاً من صنيعة العامل. اندفع نحو أدوات الطبخ واستل سكيناً من بينها ثم انْقَضَّ عليه ووضعها على عنقه ينوي نحره. صرخ المبشر توماس محذراً حارب من عاقبة قتل العامل الذي استنجد بتوماس وهو يقول له: إنه يقرأ القرآن يا أبتاه.

هل صحيح ذلك يا حارب؟ سأل المبشر. وتوقف حارب حين تبين أنه بالفعل يقرأ آيات من القرآن. قذف بالسكين جانباً، واستمر آناء الليل وحيداً يتفكر، كيف ينسى سور الكتاب المقدس ليقرأ آيات من القرآن الذي لم يحفظ منه إلا قصار السور لأداء صلواته الخمس قبل أن يفقد عائلته في ذلك الحريق؟ في تلك الليلة سمع صوت قرينه يخاطبه للمرة الأولى، منبهاً صاحبه أنه مازال مسلماً وعليه الإياب إلى دين والده وأهله. وكان ذلك قبل اكتشاف إصابة المبشر توماس بالملاريا وترحيله إلى نيويورك وإحلال بيتر زويمر محله.

• الحياة القصيرة:

حط بيتر زويمر في أولى رحلاته التبشيرية رحاله في بيروت مع بداية فصل الشتاء من العام 1891م قادماً من هولندا بعد أن أقام فيها أكثر من ثلاثة شهور يتقصى عن أصول عائلته وهجرة والده من أمستردام بعد انتشار أخبار الثراء السريع في القارة الجديدة، وتأسيس نيو أمستردام مع هولنديين كثيرين، قبل أن تنتقل عائلته إلى بلدة زيلاند تشارتر بولاية ميشيغن الأمريكية. ومنذ ذلك الحين حتى وصوله إلى الشرق، اعتقد بيتر أنه يملك روحاً واحدة تتجسد في شخصين، فيه وفي أخيه صموئيل، وهو أمر لا يزعج إيمانه بأي شكل، بل ساعده على طهي نفسه على نار هادئة في قِدْرٍ كبيرة من قدور الحياة التي سوف تنتهي كما اشتهى وتمنى دائماً: القليل من الألم ضروري لمعرفة القليل من الحياة. ثم امتدت رحلته من ولاية بيروت إلى البصرة وصولاً إلى مسقط.

وبعد وصوله مسقط كتب بيتر رسالة لأخيه صموئيل الذي يدير الإرسالية في البحرين، ويشرف على تنظيم عمل المستشفى هناك: «تبدو مسقط مدينة ملتهبة عبر سلسلة جبلية بركانية تمتد حتى تلامس لسان الشاطئ الذي بنيت حوله أزقة وأسواق وبيوت عشوائية بعضها من الحجر والطين وبعضها من جذوع النخيل والخشب، وتنهض كل صباح بكسل مع نداء الموج. أهل مسقط بحارة بالفطرة ما إن ترمي بهم أمهاتهم حتى تجدهم يعومون برفقة سمك التونة الذي يشبههم، فيما تجد المرأة العمانية تنهض قبل الشمس وتصعد الجبال لتصل إلى أفضل مواقع الأفلاج وتشقها بنفسها فيندفع الماء الوفير والحار إلى وديان سخية ينبت حولها شجر النخيل والليمون والسدر والغاف واللبان. رغم ذلك فهي مدينة تصدأ فيها الأزهار ويفسدها الملح. في نهار أيام الجمعة يتكاثرون في الساحات للصلاة إلى ربهم بثياب قذرة ثم يتراكضون إلى سوق العبيد والدواجن. ويندس بعضهم عن لهب الحر في أكواخ بائسة لتفخيذ نساءهم فيزداد سمك التونة في بحرهم. وفي المساء يخوضون مشاجرات دامية مستخدمين فيها خناجرهم الجاهزة تحت أحزمتهم لأي سبب قَبَليّ أو عائلي تافه! أفكر كثيراً يا أخي؛ إنني لن أعيش طويلاً في هذه القِدْر ولا أعرف محطتي القادمة، ولكنني أثق بقلبي!»

• علمهم الأسماء:

عجز الأب بيتر عن فهم هذه الورطة الكبيرة أو تظاهر بذلك؛ لأنه وقبل أن يصاب حارب بالسقم والهذيان، حدثه عن صعوبة تقبّله لأسماء أبناء المدرسة، وأنه يشعر بالحرج عند تعريفهم بزوار وضيوف المدرسة من الأوروبيين والإنجليز، ويفكر في تغيير أسمائهم لتكون أسماء مسيحية؟ ولكنه لم يصدق أن الموضوع سيجري بهذه الطريقة المربكة، وبشكل لم يرتب له.

اختلى في الكنيسة بنفسه يمعن النظر. وتذكَّر أمه وهي تضع قوقعة بحرية كبيرة على أذنه قبل خلوده للنوم، وكيف كانت جميع الكلمات التي ينطق بها في القوقعة تدوي وتتضخم برجع صدى متعدد الدرجات. وأنه أخبرها ذات مساء سماعه لصوت الرب. فهللت مشجعة. أيفع الطفل مصدقاً ومزهواً بأصواته، وتجلى له في حالات كثيرة فيما بعد صدى صوت متضخم لإنسان عاش منذ الأزل وقال لأمه بيقين إنه صوت آدم وهو يطلق على كل ذات حيَّة اسماً فيصبح اسمها. أشكل الأمر على الأم، وتيقنت أن الموضوع لم يعد مجرد لعبة ابتكرها صبي مع صدفة بحر. أخذته للقس الذي أرهب الطفل بأسئلته. وأخيراً طلب من أمه حظره عن اللعب بالأصداف والقواقع البحرية.

في رحلتهم الأخيرة قرر بسبب وهن حارب الاستجارة بشاطئ متروك، على رمله الأبيض الناعم أصداف وقواقع بأحجام مختلفة، وتملأه السلاحف العملاقة المشغولة بوضع بيوضها. أعاده الشاطئ إلى طفولته. واستمر في

وضع الأصداف البحرية على أذنه والإصغاء بتركيز بالغ على الأصوات المتضخمة والتهليل لها. إلا أن وقع السقم الذي أصاب حارب وشدته كدر عليه فعاد به إلى المدرسة. وذعر لما تأكد أن علة حارب ليس بعدها إلا الهلاك. وبرر ذلك بالأصوات وفكرة تغيير الأسماء وهما يقضيان ليلتهما على ذلك الشاطئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
أعمرُ من حَجَلة

- 1 -

يملأ الضوء الأحمر المغارة مثل غيم ثقيل يسيطر على سقر وقت القيلولة حين تهجع العائلات مع أطفالهم هرباً من جبروت الشمس القاسية إلى غرف صغيرة باردة مشبعة برائحة أدخنة مما تشعله الأمهات من الشبَّة والحرمل والجاوي واللبان والحبة السوداء لطرد الأرواح الشريرة والأباليس المتحفزين كل صباح على عتبات البيوت.

اختفى أبي، اختفى المرقد، اختفت حدود المغارة، ولم تكن هناك الأدخنة التي تشعلها أمي في دخولي وخروجي من البيت. أشعر بجسدي ككيان مستقل عني. أعرف أنها المغارة التي تسللنا إليها قبل قليل، لكنني غدوت الآن عاجزاً عن الإبصار، مستفحل الشيخوخة، تتكسر عظامي بيسر، ويضيع السمع من أذني. تساءلت بخوف: هل أصبحت كفيفاً؟ عيناي مطبقتان أحاول فتحهما بيدي ولكن دون جدوى. صرختُ لعل هناك من يسمعني. وحين عجزت تسمَّرت في مكاني في سكون ووحشة.

مرَّ الوقت طويلاً حتى شممت رائحة بول نتنة. أدركت أن غلبة النعاس والخوف الرابض فوق رأسي دفعاني دون إرادة إلى عدم استمساك البول وأنا في مكان مجهول وبعيد عن عيون يمكن لها أن تبكيني. قررت النهوض وتحسس الجدار ربما أجد مخرجاً أو أتمكن من العثور على السُّلَّم الذي استخدمناه عندما جئنا إلى هنا. استجمعت طاقتي وبدأت أحبو متوجساً من شياطين واظبت أمي وكافحت لطردها طوال الثمانية عشر عاماً من عمري.

وقعت يدي على فتحة كبيرة. وقفت أمامها أتحسسها محاولاً تحديد طبيعتها وحجمها. وضعت رأسي فيها وناديت بصوت رفيع ولم يكن هناك إلا هزيز ريح من بعيد فأيقنت أنه المخرج الذي دخلنا منه. عقَدتُ عمامة أبي حتى أصبحت صُرَّة تحتوي على الحزمة والمغلف ودفعت بها داخل الفتحة. تشبثت بطرف الجدار ودفعت بجسدي إلى الأعلى حتى أصبحت داخلها. جلست أفكر في خياري الوحيد، وهو الحبو داخل النفق الذي سيؤدي بي إلى المخرج الذي ولجنا فيه حيث أشجار الأراك الوافرة تنثر رائحتها المميزة. ربطت الصرة حول خصري وبدأت التحرك بحذر متحسساً طريقي.

وسط هذا الصمت المطبق، سمعت صوت أمي وهي تهتف. بعدها بقليل تحوَّل هتافها إلى صراخ ألْهَبَ فيّ الحماس لاكتشاف ما نزل بها. زحفتُ مسرعاً باتجاه مصدر الصوت، ولكن كلما كنت أشعر بالمشارفة على الوصول كان الصوت يحتجب، فأتوقف وأصيخ السمع مرة أخرى ثم أواصل تحركي. غدا صوتها مثل صوت امرأة في مخاض، صرخاتها متقطعة، تخفت وتعلو، وسمعت بعدها صياح طفل رضيع، وصوت امرأة أخرى تزف لمولانا رشيد

حمدان خبراَ: البشارة يا مولانا، لقد أنجبت حائرة صبياَ جميلاَ يشع ملاحة وعلى وجهه ابتسامة، ويمكنك تبليغ والده عبد الله علّه يستعيد فرحه الذي فقده منذ سنين.

ظللت واجماً في مكاني غير مصدق لما أسمعه. لم تتوقف دموع الطفل حتى خلتُ بأنني سأُجن بسبب هذا الصوت. لم أجد مفراً إلا التحرك للأمام عَلّني أصل إلى نهاية هذا النفق. وخمنت أن ذلك هو نتاج ما مررت به منذ أن غطى الضوء الأحمر تلك المغارة فتاه بصري. وها هو عقلي يتوه الآن أيضاً. بدأت أشعر بالجنون من الأصوات المتكسرة على طبلة أذني.

شاهدت من متاهتي الباردة جثث رجال مصلوبة على أعمدة خشبية في ساحة سقر. لم يمر وقت طويل على عقرهم. بعضهم مبقور البطن والبعض الآخر نُحر وتُرك ينزف حتى الموت. تتنافس العقبان والغربان على فتح صدورهم بمناقيرها الحادة. وفيما تحاذر العقبان لحظة تمزيق اللحم من اقتراب بعض النساء لانتزاع جثامين أزواجهن أو أبنائهن. تتقافز الغربان على الأرض منتقلة من جثةٍ مصلوبة إلى أخرى متروكة على الأرض دون أن تعير اقتراب النسوة منها اهتماماً. وأتى رجال نظير خان على البيوت كلها حارقين بعضها وخالعين أبواب بعضها الآخر حتى أمست سقر خراباً كبيراً. ولم يكن عليها تسعة عشر! صرخت بأعلى صوتي ورأيت النساء يرفعن رؤوسهن نحو السماء بحثاً عن مصدر الهزيز. وصار صوتي نذيراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

شعرتُ بالجوع والظمأ. فَقَدَ جسدي القدرة على الحركة، ولم أستطع تبيُّن الوقت الذي مرَّ وأنا على هذه الحال. تذكرت الصرة وقررت فتحها عند أول تجويف واسع يمكنني أن أرتاح فيه. وبدأت بفك عقدتها وفتح أطرافها. لَمع بشكل سريع ذلك الوميض الأحمر، فأغشى بصري مثلما حصل في المغارة. ومضة خاطفة خلتها لحظة تبصّر مطلق. تبعتْها ردة فعل عجولة دفعتني لإعادة ربطها بسرعة لأحبس هذا الضوء الذي أعاد لي القدرة على الإبصار من جديد. شَدَدت عليها وبدأت أعجل الزحف لأصل إلى المخرج غير مبالٍ بالنتوءات الحجرية وهي تخمش أطراف كتفي وكَفّ يدي، وأنا أسحب جسدي نحو الخلاص.

اقتربتُ من نهاية النفق الضيق. بدت أمامي مغارة واسعة، يتسرب إليها شعاع الشمس من فتحة متوسطة، تنفست الصعداء وحمدت اللّه على ذلك. ولكنني فكرت: هل ما رأيته وأنا في العماء كان خيالاً أم هلوسة لم يكن مصدرها سوى ذلك الضوء الذي سلبني بصري ثم أعاده لي؟ سأعود للقرية وألوم أبي على تركي وحيداً أواجه مصيراً لا أعرفه مع هذه الصرة المحزومة حول خاصرتي دون أن أعرف محتواها غير ذلك الضوء الأحمر الباهر. حاذرت قبل النزول من المغارة خيفة من جنود نظير خان، وقررت الانتظار ريثما يحل الظلام. ولكن الجوع والعطش تمكنا مني. سمعت نقنقة أفراخ طيور الحَجَل وهي في عشّها، شعرت بالطمأنينة، وقررت النزول إلى أرض المغارة لأتأكد أنني مازلت حيّاً ولم أمت. يرتفع هذا الثقب الجبلي عن أرضية المغارة في حدود ثلاثة أو أربعة أذرع، الأمر الذي لن يضرني لو قفزت أو تدليت منه. ثم قفزت قفزة عرفت على إثرها أنني متعب جداً وجريح. صرخة مكتومة تدوي داخل جسدي من شدة الألم قبل أن ينتشر صداها في المغارة. ظللت ممدداً وعيناي تراقبان صغار طيور الحَجَل وهي في عشها تستنجد أمها.

صفقت أنثى الحَجَل بجناحيها وهي تدخل المغارة وتصدر قَطْقَطة غاضبة، ثم حلقت حولي لتتأكد من جنسي وأنني لست ثعباناً يهدد صغارها. طافت حولي ثم هبطت قرب العشّ وهي ترسل إشارة تحذير بصوتها وضربات أجنحتها، مما تسبب في زيادة نقنقة الفراخ. اقتربت منهم وأسلمتهم منقارها تطعمهم ما حملته لهم من الخارج من بزور النباتات. وحين انتهت التفتت نحوي ورمقتني بنظرة حادة، وكأنها تحذرني من الاقتراب منها أو من صغارها. ثبتُّ في زاويتي معلناً لها احترامي للمسافة المتروكة بيننا، رغم رغبتي بالانقضاض عليها والتهامها هي وصغارها من ثقل الجوع وبؤس العطش.

فتحت عيني بعد غفوة. تأكدت من جديد أنني مبصر وما رأيته مجرد خيالات كفيف أضاع بصره في لحظة خاطفة. استجمعت شجاعتي وقررت التسلل خارج الجبل. وفي هدأة تركتُ أنثى الحَجَل مع صغارها، ولكن الطائر مرهف السمع باذخ اليقظة والاحتراس التفت نحوي متوجساً فسرت محاذياً لجدار المغارة. قَفَزَتْ الحَجَلة من عشها وأخذت تسير بحذر بشكل دائري حول صغارها وهم ينقنقون. قلت لنفسي: سوف أتركك وأخرج عائداً إلى منزلنا. أسرعت من سيرها وراحت تقفز وكأنها تعيد رسم الحدود الواجب احترامها. وصلت إلى مخرج المغارة. لمحت الشمس تتسلل غائبة خلف الجبال، ولا وجود لأي حس في هذه السلسلة الجبلية المحيطة بي.

جبال غريبة عليّ، ولم يسبق لي أن وصلت إلى هذه الأطراف من قريتنا سقر. جلست في الخارج أتأملها، سلسلة من الجبال الصخرية، لا أثر فيها لطريق يمكنني من بدء المسير إلى مساكن القرية أو ضواحيها. انتظرت لحظة سماع صوت أذان المغرب لأعرف اتجاهه وابدأ المسير. ظللت جالساً حتى غابت الشمس بشكل كامل ولم أسمع شيئاً فتأكدت أنني بعيد عن الديار. حَلّ الظلام وسيطر صمت عميق فشعرت بالخوف من جديد. قررت العودة إلى المغارة طالما هي مسكن آمن لطائر الحَجَل وصغارها، وأن اختيارها لهذه المغارة لم يأتِ إلا بعد اطمئنانها إلى عدم وجود ثعابين أو أي حيوانات مفترسة تهدد حياتها أو حياة صغارها في هذا الوادي الموحش. كما أن الضعف بدأ يدب في جسدي مصحوباً بدوار. عدت إلى الداخل أسير على أطراف أصابعي كي لا أخيف الطائر. ولكن ما إن تسللتُ حتى وجدت أمامي امرأة عارية ترضع صغارها الثمانية بالتناوب وأمامها نار تضيء المغارة!

هالني ما رأيت: كان ضوء الخشب المشتعل ينتشر في المغارة وينعكس من قناديل مثبتة في سقفها اللامع والمصقول. أيقنت أن الذي أمامي ليس تخيلات، وتأكدت من ذلك بعد أن أَوْمَأت لي بيدها أن ألتزم الصمت كي لا أزعج صغارها المهيئون للنوم. جلستُ عند مدخل المغارة غير قادر على الحركة أو الإدراك. أرمق من طرف كتفي محاولاً استبيان الحَجَلة. ولم يكن هناك سوى هذه المرأة العارية، تمدد أطفالها الرضع بعد أن احتواهم النوم، ثم تسحب شالاً تستر به جسدها وتقترب مني. أحسستُ بخطواتها وهي تقترب أكثر، شعرتُ بالجزع، وأيقنتُ أنها طائر ممسوس بسحر. أطرافي ترتعد وتصطك من شدة الهيبة. ازداد الدوار حين لامستْ أصابعها كتفي، همستْ قائلة: لا تفزع يا بني ولا تجزع. حلّ عليّ الهدوء والسلام من فرط الحنان الذي تركه كفها وهو يلامس كتفي، أغمضت عيني كي لا أرى عورتها. استرسلت قائلة: لقد خرجت أيها الفتى من رحم هذا الجبل. أنا حَجَلة وحيدة ترعى صغارها في هذه المغارة. لقد شهدت كيف قذف بك الجبل، وكان جلدك رقيقاً وشفافاً وتغطيك مادة بيضاء لزجة وبعض الدم. ولادتك لعنة عليّ

أيها الفتى. أدرت وجهي نحوها ورمقتها بتعجب. وهي المرة الأولى التي أنظر فيها إلى امرأة سمراء بمثل هذا الحسن. شعرت بالخجل أكثر، اعترتني المفاجأة لمشاهدة جسد امرأة. قلت لها: أنا يوسف بن حائرة، أنجبتني أمي في بيت مولانا رشيد حمدان. ثم سكتُّ أو أصابني الخرس. رفعت عيني نحوها لأتأكد ممن يقف أمامي، ثم سألتها:

أنتِ إنسٌ أم جان؟

أنا الحَجَلة! ضوء ممسوس اندفع قبل ولادتك من رحم المغارة، فَحَلّ بي ما حَلّ.

ماذا تقصدين؟

ربما هو دمك الضوئي. أنا من يسأل: هل أنت إنسٌ أم جان؟

اسمي يوسف وأمي حائرة وأبي عبد الله الكفيف، وسوف أموت من الجوع.

حاولت الوقوف، هالني حجم جناحيها وهي تفردهما بسرعة تنم عن استعدادها للانقضاض عليَّ بسبب تفاهة ما قلت، دبَّت الرهبة في أوصالي، ازداد الدوار فوقعت على الأرض. كنت مُمَدَّداً هناك، يملأني شعور كبير بالعجز عن الحركة، عيناي تحدقان فيها، منتظراً لحظة هلاكي العاجلة. ولكنها طوت جناحيها وجلست بهدوء عند رأسي، رفعته ووضعته في حضنها، مالت عليّ بجسدها، دست حلمة ثديها في فمي وهي تهمس مثل أم حنون: هذا كل ما لدي يا ابن الجبل فارتوِ لعلك تكبر، واللّه لأذهلنَّ بمن أرضعت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

استيقظتُ على صوت نقنقة أفراخ الحَجَلة الثمانية. بحثتُ عن أمهم في الأرجاء ولكنها لم تكن موجودة. نهضتُ بخفة، وتأكدت من وجود الصرة المربوطة في خصري، وسرت خارج المغارة. تمتد أمامي الجبال وبينها واد صخري لا أثر فيه لعبور القوافل. سلسلة جبلية متراصة تحجز الرياح وتفتح لأشعة الشمس حجرها الصوان فيزداد وهجاً وحرارة تتمدد على طول الخط الجبلي مما يجعل أمر عبورها صعباً ومحفوفاً بالمخاطر. تحسست الحجر، كان مثل شعلة نار ينشر حرارته. فكرت؛ كيف يمكنني النزول وأنا حافي القدمين وهذه الأرض أجيج حارقة؟ يتحتم عليّ نزول هذا الوادي عَلَّني أصل خلف هذه الجبال إلى بقعة مأهولة، ومنهم أستدل على الطريق إلى قريتنا سقر.

جلستُ على ربوة تكشف جميع الاتجاهات، واستشعرت سكوناً يرثي الوقت البطيء وهو يزحف مثل سلحفاة برية. تأملت الصرة، وفكرت في محتوياتها وما دسه أبي فيها. ووددت فتحها لكنني ارتبكت حين تذكرت ذلك اللهيب الأحمر الذي غطى المغارة ورمى بي في تهلكة لا أعرف كيف ستنتهي بي. سيطر عليّ فضول بفتحها لاكتشاف المغلف المصنوع من جلد الإبل، فعزمت على ذلك متوكلاً على اللّه. بدأتُ بفك الصرة ذات العقدتين، إحداها خرج منها ذلك الضوء الأحمر الباهر والأخرى تأكدت من ملمسها أنها المغلف. فتحت العقدة فتبين لي وجود مخطوطة وأوراق مطوية بعناية بين دفَّتي غلاف سميك. ظللت لدقائق أتحسسه وأطمئن نفسي بمواصلة فك هذا اللغز الذي حملته معي أو حمَّلني والدي عبء حمله فأضاعه وأضاعني.

وضعت المخطوطة في يدي، وكانت مثقوبة من الطرفين ومربوطة بشعر على شكل ضفيرة من عُرْف الخيول. فككتها فتبين لي أنها مجموعة من الأوراق المكتوبة بأكثر من خط عربي، بل هي مكتوبة من قبل عدة أشخاص. ميزت خط مولانا رشيد حمدان. ولاحظت تسجيل مولانا على هامشها تعليقات باللغتين الفارسية والعربية، وكلمات أخرى لم أفقه معناها رغم أنها كُتبت بحروف عربية. وفي أثناء الفحص للأوراق وقع بصري على صورة هي الصورة نفسها التي أخرجتها من صندوق عابدين، ويبدو فيها واقفاً قرب مجموعة من الرجال الذين يشبهونه في الملامح. ومن بين الأوراق سقطت بفعل التقليب قطعة جلد تشبه جلد الحيّة الذي حملته مع أبي ليثبت لأهل القرية أن هذا هو جلد الدابة. قرأت عنواناً من وضع مولانا رشيد وهو تقليد يقوم به في كل ورقة أو مخطوطة تقع في يده، إذ عنونها بخط مرتجف: «أوراق الضوء الأحمر: نار اللّه على الأرض.. في ذكر الحجر والدابة. وضعها العبد إلى اللّه يعقوب بن إسحاق». ثم حاولت قراءة أول ورقة من أوراق هذا الغريب. وهي رسالة موجهة إلى مولانا عندما كان في ديار الحجاز. عجزتُ عن فهمها. كما

قرأت ورقة بخط مولانا كتب عنوانها «ترجمة رسالة يعقوب بن إسحاق الأولى إلى حضرتنا» وكتب تحتها: «إلى جناب سيدي الأجل الأفخم مولاي المعظم المكرم رشيد حمدان، بعد السلام والتحية، أكتب لك هذه الرسالة المؤرخة في الحادي عشر من شوال من العام 1334هـ([4]).

أقول لك يا نور الأنوار، وأنت مُنعَّم ببهاء رسول اللّه وتحت سماء بيته الطاهر في المدينة المنورة. لقد وقعت علينا حوادث غريبة ما إن ركبت الإبل وغادرتنا. وأنا هنا في حيرة من أمري أفكر في محطات حياتي، منذ أن هبطتُ في ذلك النهر وأنا شاب يافع وحتى حلول المصائب علينا فيما بعد. منذ عقد المبادلات التجارية في أسواق البنادر الغربية من زنجبار وشرق مومباسا حتى قيل يا سيدي ويا مولاي إذا عزفت الناي في زنجبار فإن صوته سوف يعبر أنفاقاً تصل البحيرات الكبرى في أفريقيا الشرقية.

تيقنت يقيناً لا بعده برهان ولا قبله ظن ولأمرك السامي استجبت، وقررت أن أكتب لك الآن أول القراطيس لأكشف لك فيها بعضاً مما جرى علينا من أحوال بعد ظهور الدابة ونحن في مجاهل البحار وفي مدرسة أولاد العبيد المحررين تحت رعاية جليلة من الأب الرحيم بيتر زويمر الذي تكفل باللقمة والعلم والملبس.

ونحن بعد التوكل على اللّه سبحانه وتعالى، وعلى أمرك المطاع في وضع الحجر تحت الشاذروان، أخبرك بأمر من أمره لم أنسه منذ أن وقع في يدي: حجر له لون يشبه دم الحمام، صافٍ، حيّ وينبض بالروح واللّه أعلم.

وإذ أكتب لك هذا القرطاس فإنني أتشهد وأعلن عن استعدادي لما هو قادم ورهيب وأشعر به واللّه بين جنبات ضلوعي، خاصة بعد وصول مجموعة من العبيد الأحباش للبيع على دكة سوق باب الدريبة. فسعيت وسعى معي مشكوراً سيدي محمود بخاري وصاحبي عيسى النجار في تقديم الشكوى إلى والي مكة المنتشي بإعلان المملكة الحجازية الهاشمية، وكانت مكة واقعة في حقيقة الأمر تحت حكم الشيطان يتفشى فيها الفجور والفسوق، ويدخنون خلف النوافذ وأمام البيوت، وتسرب الخمر إلى مكة على الشقادف فوق ظهور الإبل. واللّه، لقد عجزنا عن عمل شيء لهم، وتركني سيدي محمود بخاري أساوم على شرائهم بمبالغ عجزت عن توفيرها في اللحظة والوقت. فخاب أملي وسهرت الليل كله أناجي ربي بحفظهم ورعايتهم.

وأخيراً أقول لك: لا تنسَ الشاذروان، إنني أستودعك هذه المخطوطات بعد أن أمرتني بكتابتها، وسوف أتركها لك في داري، فإن أعطانا اللّه من العمر سرنا معاً في طريق فعل الخير، وإن فرقتنا العواصف والأهوال والأحوال، وأُهرِقَ

دمي وفاضت روحي وصارت كالبخار تصعد إلى بارئها، فاعلم أن كل ما لدي من ورق وقرطاس وحجر هو أمانتك تفعل بها ما تشاء.

أسأل اللّه تعالى أن يجمعنا في الدنيا والآخرة في قضاء الخير والعدل، ويزيل عنا الكرب والأحزان». ثم كتب توضيحاً في الهامش: والذي يصادف 11 أغسطس 1916م. وعن باب الدريبة كتب: هو أحد أبواب الحرم المكّي الشريف.

شعرتُ بالوعكة لهول ما قرأت. وفكرت أن هناك أموراً كثيرة متشابكة حدثت قبل موت عابدين ولكني غافل عنها، وعليّ الآن لملمة هذه المخطوطات والأوراق والذهاب بسرعة إلى القرية ووضعها أمام أبي علَّهُ يفسرها. ربطتُ الصرة مرة أخرى حول خصري. ودَّعتُ بإشارة من يدي صغار الحَجَلة، وسرتُ نازلاً من على الجبل. سمعت صوت الحَجَلة وهي تحلِّق بشكل منخفض متجهة إلى المغارة، فهتفت لي: كن يا يوسف أعمر من حَجَلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

نزول الجبل لم يكن أمراً هيناً والطريق ليس سهلاً وسالكاً. لهيب الحجر والتراب الساخن يشوي قدميَّ وأنا أقفز من موقع لآخر بحثاً عن ظل أتنفس فيه قليلاً قبل مواصلة انحداري إلى أرض الوادي. لاحت لي صحراء متجبرة قادرة على ابتلاع شاب في مثل عمري؛ أنا الذي لم يخطُ خارج قريته من قبل ولا يعرف طرق القوافل ولا مواقع النجوم. يتحرك الرمل الناعم في نزولي بشكل دائري كلما هبَّت ريح حاصبة وجدت لها منفذاً بين الجبال، فأعرف أنها ريح محنتي القادمة. أسير وفي عيني مخافة الفقد، أبحث عن طريق ربما يأخذني نحو مساكن قريبة أو بئر ماء للمسافرين. أضناني أنه لا عشب أخضر ولا طيور، محض تراب أصفر عنيد ومكابر. أسرع في خطوي خشية الموت من اللظى في هذه المفازة المقطوعة من أي شكل من أشكال الحياة. وحدها الكتل الصخرية تتوزع في هذا المد الصحراوي الشاسع المحاصر بالجبال. أخاف من التعب، أهدهد نفسي؛ لا بد من وجود حياة قريبة. حياة تسمح للحَجَلة الممسوسة من مغادرة المغارة والعودة إليها حاملة رزقها لصغارها.

عبرتُ الوادي عند انتصاف النهار. لمحت طريقاً صحراوياً ورجلاً يسير الهوينى فوق بغلته باتجاه الغرب. اقترب مني، توقف وتأملني مدركاً أنني تائه بين هذه الجبال المتشابهة. ابتسم ومد قربة ماء جلدية، وانتظرني حتى أرتوي. اسمه سردار، وهو في طريقه إلى غوادر للعمل في بحيرات الملح لجني المال والزواج بفتاة أخرى بعد وفاة زوجته الشابة. سألني عن سبب وجودي في هذا القفر وفي منطقة خطرة ولا تجتازها إلا القوافل وقطاع الطرق كما قال. أخبرته أنني من قرية سقر فأطلق آهة كبيرة ثم سألني؛ كيف نجوت؟ فسألته: وماذا حدث؟ صد بوجهه، ثم قال:

قُتِل شيخها وذُبِـح شيبها وشبابها وسُبِيت نساؤها وفتياتها من قبل ابن الشيخ وأتباعه، وقد أعلن نفسه فهرساً على القرية.

هل تعرف والدي عبد الله الأعمى؟ سألته بروع.

لا أعرفه. القرية محاصَرَة ولا يستطيع أي أحد الدخول أو حتى المرور من الطريق المؤدي إليها، فإن كنت هارباً فلا تعد، وإن كنت مسافراً فلا تحط رحالك فيها.

بعد نهار كامل من السير، أخبرني سردار أننا وصلنا إلى طريق يؤدي إلى مضيف للمسافرين يقع بين جبلين ويتكون من ثلاثة أكواخ. اقتربنا منه، خرج علينا طفل وهو ينادي والده. كان رجلاً أربعينياً نحيل البنية يدعى مصطفى،

أدخلنا المضيف حيث يستقبل زواره وينظر في حاجتهم. وما إن أخبره سردار أنني من قرية سقر، حتى وقفت امرأة تسترق السمع لحديثنا وقالت: أنت يوسف ابن حائرة ومولانا هو من سمّاك! ثم جلست تحكي حتى تذكرت أنها زينب زوجة مولانا رشيد حمدان التي غادرت القرية بعد وفاة مولانا وانقضاء عدتها. وها هي تعيش الآن في منزل والدها سليم الذي قدمها هدية لصاحب قبس الحجاز، تباركاً وتعظيماً لعلمه وكراماته.

احتوتني زينب بحب أخجلني، خاصة أنها تبدو مثل أختي الكبرى، بيضاء بَضَّة الملامح، يغطيها نمش خرافي حتى يجعلها لا تمتّ بسببه إلى العِرق البلوشي بِصِلة، فسَّره أخوها مصطفى: يجري في دم زينب عرق إنجليزي من جدها الذي أُغرم بجدتهم وتزوجها مسلماً. جعلت زينب من وجودي معهم كعائلة لم تلتق منذ زمن بعيد بأحد أبنائها، رغم أنني لا أتذكرها، ولم أسمع يوماً عن جمالها الذي بهرني. عائلة تصيب قلبك بالطمأنينة.

وجدت نفسي في ذلك المساء محاطاً بعائلة سليم الذي توفّي قبل عودة ابنته زينب. تفيض بالكلام عن أخيها مصطفى وزوجته بيبي وابنتيها فاطمة وشاهزاد والصغير شاهباز، وزوجتَي أخويها الغائبين؛ درهاتون وغلبيبي وأطفالهم الرُّضَّع الذين لم أعرف أسماءهم. وهي تعيد وتكرر عليهم سرد حكاية موت زوجها مولانا رشيد حمدان الغامضة، وتقص عن الشجرتين المباركتين اللتين ضربتا بجذورهما في تربة قريتنا، وأضحتا مزاراً مباركاً لأسباب أجهلها ولم أسأل عنها أبداً. نعس الأطفال وتثاءب أخوها مصطفى وبدأوا ينسحبون باتجاه مخادعهم، ويستدرجون أحلاماً لا تفسر إلا بعد ضحى الجمعة.

اختبرتْ زيت القناديل لترى في وجهي نور الله الذي أودعه زوجها مولانا رشيد حمدان وأنا أطلق صرختي الأولى في هذه الدنيا. تصطفيني لنفسها لتشهد أن بعضاً من صفات روح مولانا رشيد حمدان قد حلّت في بدني. تقرأ ما بين جلدي ودمي لتعرف إن كان عليها القيام بخدمتي. عيناها ترمشان كلما رأت شيئاً أو تعرفت على شيء في تقاطيع وجهي. طلبت مني زينب المبيت في الغرفة نفسها التي نام فيها مولانا رشيد حمدان في طريق عودته من ديار الحجاز. كرم مبالغ فيه لشابٍ في مثل عمري، في حين ترك سردار مع بغلته في الحظيرة، وكان سعيداً وهو يشنف أذنَيْه مع زينب وهي تترع الليل بالتَّسْبِيحِ والتَّحْـمِيدِ والتَّهْلِيلِ كلما رفعت عينيها نحوي، حتى بدأ سردار في ترديد ما تقوله ظناً منه أن هذا التوقير والتعظيم لأنني مصان بيد إلهية.

وقالت قبل دخولها الكوخ المخصص لها ولزوجتَي أخويها وأطفالهم:

لا تترد في طلب أي شيء يا يوسف.

رددت عليها باحْتِداد وحنق:

لماذا تكذبون في شأن موقع ضريح مولانا؟

تفاجأت من سؤالي. دنت مني ووضعت وجهي بين كفيها ثم همست مع ابتسامة أثارتني، وكان هذا أول شعور يهز بدني من امرأة:

هل تحمل الأمانة معك؟

أي أمانة يا زينب؟

إن كنت قد عرفت موقع ضريح مولانا الحقيقي فأنت تعلم ما الذي أتحدث عنه. ليحفظك الرحمن.

تركتني مع سؤال موحش ودلفت إلى الكوخ. فطنت لألم جسيم في ضلوعي. علقتُ القنديل على الجدار، ووضعت الصرة قرب الوسادة على السرير الخشبي المشدود بالحبال. خلعتُ القميص وأبقيت على السروال. توضأت ثم ارتديت قميصاً نظيفاً تبرع به مصطفى لحين غسل وتنظيف وترقيع قميصي الذي تمزقت أطرافه. فرشت سجادة صلاة وتذكرت جهلي بعدد الصلوات الفائتة! فنويت صلاة خمسة فروض، كبَّرت وقرأت الحمد. تسلل ضوء أحمر وزحف مثل أفعى رشيقة. ضوء لا يشبه ضوء الفجر وهو يطل مع هبوب رياح مغبرة. نسيت أركان الصلاة. سكت الصوت داخلي. قلبي يخفق بشدة وعيناي تتابعان حركته. اتجه نحوي. سهوت، هل أركع أم أسجد؟ وقفت منتصباً. تسللت الكآبة في بدني ونضح العرق من جبهتي. حركت لساني لأنهي صلاتي بالتسليم. تراجعت إلى الخلف حتى لامس ظهري خشب الباب. عندها غيَّر الضوء من زحفه نحو الطَّاس الذي سكبت فيه الماء وأنا أتوضأ. وهناك تلاشى حتى اختفى بالكامل!

تسمَّرت في مكاني، راغباً في نسيان كل شيء حتى اسمي! تعوذت من إبليس الرجيم. طويت السجادة. حملت القنديل ودنوت من الطاس أبحث عن أثر الضوء ولم يكن هناك شيء. وقفت وسط الدار أشعر بشيء أعاد نشاطي وقوتي. اختفى الألم الذي كان يسكن ضلوعي. إحساس غريب يدفعني لمعرفة هذا اللغز الذي أحمله معي. دنوت من الصرة. أخرجت المغلف وتوقفت أمام الصحيفة التي سبق أن قرأتها في المغارة. فكرت في علاقة الضوء بالماء. علاقة الخالق بالمخلوق. استوقفني رق مكتوب عن التداوي بالماء. قربت الورقة من ضوء القنديل وقرأت:

«وجعلنا من الماء كل شيء حي... وعليه فقد جعلنا الماء سداً، وحافظاً، مثل ماء زلال، ومثل ماء الرجل. للّه درّكَ يا ماء الظهر، بك جاء الإنسان، وقتل بك الإنسان. أنا يعقوب بن إسحاق، أكتب لكم عن هذا السِّرّ الذي أتعبني حمله، وها أنا أمام بيت اللّه ولا لي غير الشاذروان، من بعد ماء زمزم، الماء المبارك

والحارس الصلد. لمواجهة الدابة لو خرجت علينا بعد انشقاق جبل الصفا أو ذاهبين إلى مِنى.

لقد عرفت اللّه في عدة أشكال:

في تنجانيقا كنت أعتقد أن أرواح الأطفال تنتشر عند الشواطئ، وفي قعر البحر والبحيرات، فحبلت كل نساء القرية، حتى أضحيتُ مباركاً لهم، ملعوناً في ذاتي. وبعد أن ابتلعته هجرتُ القرية، كنت أشعر به داخلي وهو يبتغي الخروج، فكان خروجه بعد وقوعي في الأسر. لذا أقول لمن يقرأ هذه السطور، عليك بالماء المبارك محبساً له، ضوؤه جلي حينما يتحول إلى عنصر واحد، هو عنصر الخالق والحيّ الأبدي».

فكرت، هل أفك العقدة الأخرى لأرى مصدر الضوء الأحمر؟ تحيَّرت، هل أختبر هذا الماء؟ وكيف أستدل على ماهية هذا الضوء؟ ومن أين استخلصت زينب قولها بحملي الأمانة، وهل هذه الصرة هي ما تقصد؟ هل هو الضوء الأحمر؟ نسيت الصلاة، وشعرت برغبة عارمة للنظر إلى هذا الضوء، لتفسير لماذا تسبب في ضياع أبي وفقداني البصر؟ وربما يسعفني ذلك في استعادة حياتي من جديد وعودتي إلى قريتنا سقر. نهضت بتُؤَدَة. وضعت الصرة أمامي. فككت العقدة الثانية وقد لُفَّت بجلد إبل بعناية كبيرة. ثبَّتها وسط قميصي الذي خلعته منذ قليل وسرت بحذر. جسدي يرتعد من الخوف وأسناني تصطك تحسباً لما ينتج عنه كشف ما في الصرة. خفت من العَمَى الذي مررت به من قبل. جلست أمام الطاس بعد وضع القنديل قربي. أنزلت القميص وأغرقته بشكل كامل في الماء. لم يحدث شيء. تجرأت وسكبت في الطاس بقية الماء من الإناء الفخاري حتى فاض. وقبل سحب قميصي من الطاس، سمعت صوت زينب تنادي: هل تحتاج إلى شيء يا يوسف؟ طمست يدي في الطاس مرة أخرى، وتشهدت باسم الواحد الأحد، ثم بدأت بفكّ الجلد المتغضن عن الصرة الصغيرة وتركتها تستريح وهي تتشرب الماء. كانت ملفوفة بجلد آخر يميل إلى السواد، أطرافه معقودة بخيوط سوداء. سمعت زينب تقول: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (5). توقفت يداي عن إكمال فكّ هذه الخيوط عن الصرة الصغيرة. شعرت بوجودها خلف الباب، ثم سمعتها تهمس: أنت سادنها يا يوسف، فتوقف عن ذلك. جمدت يداي وأنا أسمعها ترتل سورة الرحمن بعذوبة، ذكّرتني بصوت أمي حائرة. أعدتُ الصرة الصغيرة بعد عقدها. حملتُ القنديل وتوجهت إلى الباب، فتحته، وزينب تقرأ «خلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ، فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ، فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (6).

تركت لها الباب مفتوحاً حتى تدخل بعد الانتهاء من قراءتها ولكنها لم تدخل. ظلت واقفة على الباب، وقالت لي: لن أستطيع الدخول يا يوسف. فصرختُ

باهتياج:

سادن لمن؟ هل تعلمين ما حصل لحظة قيام أبي بمد يده تحت مرقد مولانا؟ هل تعرفين ما حل بقريتنا سقر؟ أريد أن أعرف؟

لا أعرف أكثر مما تعرف. ستختبر الكثير يا يوسف. الذي أعرفه الآن هو أنك حارس الذي تحمله معك.

وماذا أحمل؟

سألتها بغضب مكبوت كي لا تثور أعصابي على امرأة مولانا الجليل، إذ ومض في خاطري مشهد اغتصابي لها بوحشية. قطعت هذه الرغبة الجارحة وكسرت عينيَّ وشهوتي فلم أنظر نحوها وهي تقول:

نم يا يوسف ودعني أحرسك، هذا ما تستطيع امرأة ضعيفة مثلي أن تفعله لك الآن. للكون دوائره ونجمك بين دائرتين وضعك مولانا بعد ولادتك بينهما لهذا اليوم المختار.

يخنقني كلامكم، ها أنت تقولين ما لا أفهم، مثلما قال أبي وأمي قبلك.

لك الطريق كما هو، مرسوم ومقدّر!

رفعتُ رأسي لأكشف لها عن عينيين عاجزتين عن فهم ما يحدث. رأيتها وهي ترمي بيدها شيئاً غير منظور أو مثل من يرمي شيئاً ويداه خاليتان. شعرتُ بالنعاس. تمددت على السرير. انغلق الباب دون أن يدفعه أحد. لا أعرف لماذا شعرت بالطمأنينة ونمت من التعب؟ كانت زوجة مولانا تحرسني. هكذا تيقنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

وقع كل شيء بشكل سريع لم أتمكن فيه من استيعاب الصدمة. استيقظت على صرخة من زينب، وليس على خوار الثور في الحظيرة القريبة من الغرفة. كانت صرخة إنس، صرخة حارستي. فتحتُ عيني والظلام يغطي الغرفة. عدَّلتُ اللحاف واستدرت على الجانب الآخر برهبة. عادت الصرخة مرة أخرى. تبعها عَجِيج نسوة أهل الدار. قفزت من السرير ووقفت خلف الباب لمعرفة ما يحدث في الخارج في ظل الفوضى الناتجة عن طرقات حادة برؤوس السيوف والسكاكين على الأبواب والجدران الحجرية للغرف. بدأت أشعر بالنكد وأنا أسمع صوتاً يأمر الجميع بالخروج ومن يخالف سيتعرض للقتل. اسْتَطَار دخان القشّ الذي وضع أمام الأبواب والنوافذ وأصبح يقبض على تلابيب المكان قبل أن تمارس النار سطوتها.

تناولتُ الصرة وربطتها تحت خصري، وألقيت عليها القميص الأبيض الطويل، وتنفست عميقاً، ثم توكلت على اللّه وخرجت حافياً. رأيت زينب ومعها بيبي زوجة مصطفى وأطفالها فاطمة وشاهزاد، والصغير شاهباز محاصَرين من قبل ثلاثة رجال مسلحين بالسيوف والبنادق. وقفت مشدوهاً وأنا أتابع النيران وهي تأكل المنزلين والحظيرة. رفعت يديّ معلناً استسلامي. صرخ بي رجل تقدم نحوي شاهراً بندقيته فجلست على ركبتي ووضعت يدي خلف رأسي وتشهّدت. صوَّب فوهة البندقية خلف رأسي ودفعني فنهضت وسرت أمامه. لمحت درهاتون وغلبيبي وعيالهما وصاحب البغل سردار محاطين برجال مسلحين. سمعت الرجل الذي خلفي ينادي سيده: لقد عثرت على هذا الفرخ وحيداً، هؤلاء هم كل من في الدار سيدي شير محمد. ورفعت رأسي لأنظر نحو رئيسهم وكان شيخاً سبعينياً وفي يده عصا نحيفة يتكئ عليها ويوجهها نحو رؤوسنا ليرفعها ويتأمل فيها. بهدوء؛ أمر رجاله بإطفاء النار، فاندفع الرجال يخرسون ألسنتها وهي تمتد عالياً، خاصة في جانب الحظيرة المشيدة بالكامل من الخشب وأغصان النخيل والسَّعَفَ الجاف. استمر عويل النساء والأطفال عالياً ولم ينقطع حتى التفت زعيمهم نحو مصطفى آمراً: اطلبْ من نسائك السكوت وإلا رميت بكم في هذه النار.

تحرك مصطفى بسرعة نحو زوجته وأطفاله. خفَّ عويلهم قليلاً أمام هلع الصغار الذين لم يعرفوا كيف يصمتون. قادنا أصغر رجاله وهو شاب في العشرينات من عمره له شارب كث، دفع بنا نحو ساحة الدار الواسعة فاجتمعنا كلنا، أصحاب الدار وضيفهما الغريبان. رأى سردار القريب مني الذعر الذي يسكنني، فهمس:

إنهم قطاع طرق.

أليسوا رجال الفهرس؟

لا.

منحتني كلماته شعوراً بالاطمئنان ووهبتني يقيناً بأنني سأعود قريباً إلى القرية مع قبول والدي دفع الفدية نظير إطلاق سراحي. تبادلت النظرات مع زينب وأرسلت لها شعوري ورددتْ رسائل محذرة لم أكن أفهمها. ظللنا على هذه الحال حتى انبثاق ضوء الفجر. تحولت النار إلى جمر وهدأت الأصوات. تقدم الشاب المسلح من الرجل السبعيني الذي نصبت له مظلة، وجعل له مجلساً مثل شيخ قبيلة وقال له:

ليس لديهم الكثير يا أبي، لقد أحصينا الغنائم وهي ثلاثة بغال وعجل مع أمه وثور عجوز لا يصلح حتى للأكل.

وماذا عن الفتيات يا أصغر نجيب؟

قال الرجل العجوز وهو يمد فنجان القهوة إلى الصبي الذي كان واقفاً أمامه يطلب المزيد. لم يعرف أصغر نجيب ماذا يقول. تقدم أحد المساعدين وقال: سيدي شير محمد، إنها عائلة صغيرة مكونة من رجل وأمه وزوجاته الأربع وشاب وخمسة أطفال، صبي واحد وأربع بنات. أما هذا، فهو عامل عندهم إذ وجدناه نائماً في الحظيرة. ارتبك مصطفى وهو يصحح معلومات الرجل لزعيم المجموعة: يا سيدي، هي زوجة واحدة والكبيرة أختي والاثنتان الأخريات زوجات أخَوي الغائبين. واتخذ شير محمد قراره سريعاً بفصلنا، أنا والصغار وسردار بعيداً عن النساء وعن مصطفى. سمعت رجاء زينب لهم: سيمنحكم اللّه بركاته لو تركتم لنا الصغار نعتني بهم، هذا نزل مبارك يظلله زوار الحجاز في رحلتهم السنوية لبيت اللّه.

تغافلت المجموعة المسلحة عن حديثها، واتخذ شير محمد قراره باقتيادي مع سردار وأبناء مصطفى وهم فاطمة وشاهزاد والصبي شاهباز فيما ترك الأطفال الرُّضَّع مع أمهاتهم. وأمسكت زينب بقدم شير محمد تتوسل إليه إعادة أطفال أخيها، فنفضها بقوة، وقالت له بغضب:

ألا تعلم أنني زوجة مولانا رشيد حمدان؟

فرفع حاجبيه الكثيفين الأبيضين وردّ عليها بكبرياء وضحكة ساخرة:

أنا مولى الجميع، ابتعدي عني.

تناول مصطفى قطعة خشب ذات طرف ملتهب، واندفع بقوة للدفاع عن أطفاله وهوى بها على أصغر نجيب الذي تلقف الضربة بالسيف، وهَمَّ بطعن مصطفى ولكنه جزَّ عنق الطفلة شاهزاد فسقطت وهي تنتفض. تراكضت

النسوة نحوها بالعويل. رأيت شير محمد وهو يتقدم نحو إبنه ويصفعه بقوة على وجهه، ثم سار مبتعداً وهو يردد: ابن عاق لن تتعلم شيئاً.

اختفى صوتي المتخشب، ولم أستطع قول أي شيء لهول النازلة، وقاومت فاطمة ابنة مصطفى الكبرى بعدم التحرك من مكانها بعد أن قيدونا بحبل واحد يبدأ بسردار وينتهي بالطفل شاهباز. تقدم نحوها شير محمد ورفع العصا مهدداً، فصرخت زينب: اذهبي يا فاطمة، سيحرسك يوسف ويعيدك أنت وأخاك. ثم حدجت الرجل بنظرة طويلة وقالت له باستحقار وهي واجمة: ستُحرق في ماء، وتموت في ماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

مرَّ علينا أكثر من خمسة أيام بلياليها ونحن نسير بالليل ونهجع في النهار داخل الكهوف بعيداً عن العيون. مقيدون ضمن مجموعات صغيرة. لا تزيد كل مجموعة عن خمسة أفراد، يتم اقتيادنا كلما مالت الشمس نحو الغروب. تأخذ القافلة لها طريقاً سرياً بين ممرات سلسلة جبال مكران، يقودها خمسة حراس مسلحون، أحدهم أصغر نجيب، الابن الوحيد لزعيمهم شير محمد.

منذ هجوم تلك الليلة لم أعد أبصر إلا ضوء الكهوف التي يحجبوننا فيها، وخشيت من لقاء الحَجَلة مع صغارها الثمانية. كنا مقيدين في أربع مجموعات، مجموعتان تتكونان من فتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين العاشرة والثانية عشرة. ومجموعتان من الصبيان والشبان. وتألفت مجموعتي مني ومن سردار وشاهباز بن مصطفى الذي ظنوا أنه أخي الصغير، وآخر يدعى غلام محمد، نتصل فيما بيننا بحبال تمتد من كاحل لكاحل. وكل مجموعة تشكل كتلة لا يستطيع أي أحد فيها من الهرب إلا بجر بقية الأسرى. ولا يفك قيدنا إلا عند طلب قضاء الحاجة، حيث يقودنا رجل مسلح بقيد في رقابنا كالإبل للخلاء. وعادة ما تسند هذه إلى أصغر نجيب كونه أصغر الرجال المسلحين سناً. بلغ عددنا تسعة ذكور وإحدى عشرة أنثى وكان مجموعنا تسعة عشر! شاع بيننا بالخفوت والإشارات خبر مثير، وهو أن الصَّبيَّة مهديم هي صبي في واقع الأمر، وردي البشرة وعذب الصوت، وناعم الملمس. ولم يجرؤ أحد منا على الإفصاح بذلك.

تولت مهمة رعاية الفتيات أخت شير محمد، وهي سيدة رضراضة تدعى جُلَّنار تساعدها ماهتون إحدى زوجاته الأربع، وهي سريعة الغضب، وتعاني من التهابات بولية، نسمع نشيجها من شدة الحرقان كلما ذهبت لقضاء حاجتها. بينما تتَرَفَّعُ نساؤه الثلاث عن تقديم أي خدمة للأطفال والفتيات المختطفين بادعاء أنه لا يكفيهن حقوقهن ويفضل عليهن ماهتون التي لا يستطيع مجامعتها بسبب التهاباتها. ولم تستح كولي وهي أصغر زوجاته من المجاهرة بخلافها مع زوجها كونه قد بلغ من العمر عتياً، ولم يعد قادراً على استنهاض من احتسب في عداد الموتى، حتى تغير كل ذلك بعد اليوم السابع. شعرتُ بالأمان يملأني منذ اختطافنا. وأدركت لاحقاً أن الخطر لا يتجسد في صورة ابن شيخ القبيلة نظير خان وغلظته فحسب فوضعنا الحالي لا يقل جسامة، بل يزداد غموضاً، خاصة حين سمعت سردار يهمس لي إن كنت أعرف إلى أين نحن سائرون. تمتمت وغمغمت له دون أن أنبس بأي حرف. يؤذن أصغر نجيب في مواقيت الصلوات بصوت خافت لا يخرج من المغارة. ويؤم شير محمد الذي يتأنق في تلاوته جماعته ونساءه. كنا نصلي خلفهم، وعندما نقوم

بأداء صلاة من ثلاث ركعات فذلك يعني أن مسيرة القافلة ستنطلق في طريق لا أعرف نهايته.

طلبت الصَّبيَّة مهديم الذهاب إلى الكَنِيف لقضاء حاجتها، وماهتون تشتكي منذ الليلة الفائتة حرقان البول، حتى أننا لم نتمكن من النوم ونحن نسمع طلب شير محمد الغريب بقيام إحدى الفتيات باستخدام مروحة مصنوعة من سَعَف النخيل لتلطيف الجو على فرج ماهتون الملتهب. انشغلت جُلَّنار بإعداد وجبة الغداء لأخيها شير محمد الذي لم يتردد بإصدار أمره إلى كولي بعد أن هددها بالطلاق ورميها في هذه الصحراء، فوافقت على مضض بأخذ مهديم لقضاء حاجتها. لم يكن المكان سوى زاوية قريبة من مخرج المغارة. ستار مصنوع من سَعَف النخيل ومثبت بدعامتين خشبيتين. وبينما تنتظرها انتابها هاجس غريب. زادها الشك؛ كونها امرأة مجربة وخبيرة بشؤون النساء. شكَّت كولي وهي امرأة في منتصف الثلاثينات في صوت البول الصادر من خلف الساتر، فاقتربت دون انتباه مهديم لها وتفاجأت بتبول هذه الصبية وهي واقفة. وكي تتثبت نقزت أمامها وطلبت منها خلع سروالها، ولكن الصبية رفضت. قبضت كولي على عنق الفتاة وألصقتها بالجدار الجبلي ودست يدها اليسرى تحت السروال تهددها بالفضيحة فأصاب مهديم الخرس. ابتسمت كولي ولعبت الرغبة في حديقة رأسها فبدأت تلعب به دون حياء. ولكنه خذلها كما خذلها سابقاً صاحب زوجها. جربت حيلة أخرى بفمها إلا أن صرخة مهديم رجَّت المغارة. قفز الحراس وركض أصغر نجيب نحو الساتر، سبقه صوت كولي: ولد صغير يخدعكم!

لم يفهم أصغر نجيب. انطوت مهديم على نفسها تنوح، أما نحن ففهمنا قولها وخفنا أن يقوموا بقتلها. جرَّتها كولي إلى خارج المغارة حيث ضوء النهار يكشف عن جمال فتاة صغيرة تفيض أنوثة، وردية الخدين. هَدَّد أصغر نجيب زوجة والده بالبندقية، ولكنها سحبت سروال الفتاة ومزقته بحركة قوية لتظهر للجميع عورتها وهي تُعَيِّر أصغر نجيب ووالده على فحولتهما الخائبة: صبي صغير يخدعكم بملبسه وصوته الناعم واللّه إنكم تحتاجون إلى عيون أخرى تبصرون بها، وأُنُوف تميزون بها رائحة الأنثى من الذكر. خاب رجائي فيكم يا أنصاف الرجال.

خرج شير محمد يضرب بعصاه على الأرض ويجر قدميه بهدوء وهو يسمع طعن كولي وتشنيعها. في حين تركت جُلَّنار طبخها وعجلت مع بقية زوجاته ليشهدن على ما تقوله كولي. هاله جمال هذه الفتاة ولم يشك أن تكون ذكراً منذ اختطافها، ولم يسعفه قلة الضوء داخل المغارات من تفحص وجوه الأطفال الذين اختطفوهم من أماكن مختلفة. كان واثقاً من عمل حراسه وابنه وأخته جُلَّنار. مدَّ عصاه نحو يد مهديم وهي تحاول إخفاء عورتها فكشفت

عن عضو ذكوري، حرّكه بعصاه ليرى مؤخرته ثم اقترب منه وتأمل وجهه الناعم وسأله: ماذا تفعل لتعيش؟ تمكن الخجل من الصبي ولم ينطق، فانتبه شير محمد لذلك وأشار للجميع بالدخول، ثم أمره بارتداء سرواله وزفر زفرة عميقة خاف أن تسمعها النساء وتدرك مغزاها ثم استغفر وحمد، وأعاد السؤال:

لا تخف، أخبرني ماذا كنت تفعل لتعيش؟

أغضى الصبي بصره وقال:

مغنٍّ وراقص.

ربت عليه بعصاه وأَوْعَزَ له بالدخول للكهف. ظل الصبي في حيرة؛ هل ينضم إلى الفتيات أو الفتيان! تقدمت جُلّنار نحو أخيها تسأله وهي في الْتِباسٍ من أمرها: هل هو صبي؟ دخل شير محمد المغارة وهو يفكر في هذا الأمر. شيء عظيم هذا الذي سلب تفكيره ووضعه في موقف لا يعرف تفسيره لنفسه بعد حياة مديدة زادت على السبعين، تعرَّف فيها إلى العشرات من النساء، وتزوج تسع مرات، وسحب تحته مئات الإماء، واختطف آلاف الفتيات، وباع واشترى الكثير منهن. كيف خانته كل هذه الخبرة وتنصلت منه حياته في لحظة أمام صبي لم يتعد الخامسة عشرة من العمر؟ وقف الجميع ينتظرون منه الكلمة الفصل ولكنه قال: أستغفر اللّه العظيم وأتوب إليه. ما اسم هذا الفتى؟ سارعت جُلّنار إلى الرد: تدعى مهديم. عَايَنَه مرة أخرى قبل أن يدخل مخدعه، هز رأسه، وقال: مهديم تعني وجه القمر، سيكون اسمه قمر الدين. اختفى للحظات. واستمرت كولي في معايرة الجميع على الاكتشاف الذي اعتبرته وصمة في سيرة شير محمد. أمر أخته جُلّنار: دعي قمر الدين مع الفتيات ولا يقترب منه أحد. وأرسل بعدها أحد حراسه المقربين في مهمة خاصة إلى قرية قريبة من موقعنا. ومرَّ علينا ذلك النهار طويلاً. أذَّن أصغر نجيب لصلاة المغرب. لم يخرج شير محمد من مخدعه فصلى بنا أكبر الحراس الموجودين ويدعى سيف أكبر.

عاد الحارس بعد الزوال ومعه عازفان موسيقيان، أدخلهما مباشرة على شير محمد. وبعد وهلة تم استدعاء قمر الدين، وشعرنا بالمهابة مما يمكن أن يحدث أمام هذا الوجوم. خرج شير محمد ومعه العازفان، في حين لم يخرج قمر الدين ولا جُلّنار. أشعل فتيل قنديل مجلسه الخارجي لتدخين الخشخاش كما درجت العادة كل ليلة قبل ذهابه للنوم في مخدع ماهتون في الليالي التي لا تشكو فيها حرقان البول. كنا نترقب مثل أرواح منسية عازفين يدوزنان آلاتهما، وندوخ مع انتشار رائحة الخشخاش. خرجت جُلّنار من مخدع أخيها وخلفها قمر الدين وقد ألبسته سروالاً نسائياً أحمر اللون، ووضعت في كاحله

خلاخيل، وفي معصميه أساور، وفركت شفتيه وخديه بالدورم فازدادت حمرته وجماله. بدأت إيقاعات الطبلة والكارتال ([7]) وسمعنا صوت الخلاخيل مبهورين بإتقان قمر الدين الرقص وغناء القوالي ([8])، وانتشينا مع أول إنشاد يخرج من فمه، وهو يترنم ببعض القصائد في المدائح النبوية من أشعار حضرة «أمير خسرو»([9])

«بلمحة خاطفة منك فقدت بصري، هويتي

جعلتني أشرب النبيذ من جرعة الحب

بلمحة خاطفة ثملت بك

تنصفني الأساور الخضراء في معصمي الرهيف

وقد عقدت بإحكام منك، بلمحة خاطفة

أمنحك حياتي، يا ملوّن حياتي

لقد صبغتني في نفسك بمجرد لمحة خاطفة»

تمايل قمر الدين وهز رأسه يميناً وشمالاً وهو يغني، مع حركات متقنة برجليه تتبعها إشارات يديه بين الفتح والضم. ذاب الجميع في جمال صوته الذي يتراقص قبل الطبلة وبعدها، وهو يعيد ويكرر ويدور ويرفع يديه في رجاء أبكانا وهو يردد:

«مَن كنتُ مولاه

فعليٌّ مولاه

يا علي يا علي يا اللّه»

نحبت كولي وشعرت أنها أساءت إلى ملاك صغير نسيته ساحرة على باب قرية بلوشية هجرها الحب وترك لها هذا الصبي يصدح برجاء إلى اللّه، ولكن غيرتها كامرأة لم تتغير، فقمر الدين تحول إلى منافس جديد لها مع صاحبة الحرقان البولي. استنكفت عن الحديث، وعن حضور حلقات الطرب التي تنعقد كلما أَزِفَ علينا النهار ودخلنا إلى أقرب مغارة أو كهف. وتعلق شير محمد بقمر الدين أكثر من تعلقه بأبنائه ونسائه. ونجح قمر الدين في استغلال ذلك لصالحه، فسمح لنا شير محمد بالجلوس مع بعضنا البعض ومعنا فاطمة ابنة مصطفى وشاهباز مما غيَّر كثيراً من حالتي النفسية.

تبلغ فاطمة الثانية عشرة من عمرها، ولم يبرز صدرها ويشب عودها بعد. طلبتُ منها ومن سردار الاحتفاظ بالسر بعد توعك شاهباز بالحُمَّى المصحوبة

بوجع في الرأس. فك قيدي بفضل تغنج قمر الدين على شير محمد بعد رقصة صوفية دوخت النساء والرجال المسلحين. فوافق شير محمد على ربطي مع فاطمة للاعتناء بشاهباز. كنت أعالجه من ارتفاع حرارته حين سمعت شير محمد يطلب من أخته جُلّنار:

أريد قمر الدين.

ماذا تريد أن تفعل به؟ إنه أرض بور لا ينبت فيه إلا الحصى والمعاصي.

أحضر الرجال والنساء وأبان عن رغبته في الزواج بقمر الدين، بعد تطليق كولي! قُوبِلَ الإعلان بالاستهجان، وعمَّت الفوضى بين نسائه، وألقى أحد حراسه بندقيته وانسحب من القافلة بذريعة أن ما ينوي شير محمد القيام به ضد تحريم الإسلام الزواج بالغلمان! تهامست النساء فيما بينهن، وقالت كولي: سبب ذلك عبورنا بوادي العجوز الأسطوري الذي يتزوج فيه الأخ أخته، وينام الأب مع ابنته وتنام الأم مع ابنها. ردَّ شير محمد على نسائه وكأنه آب إلى شبابه بشكل حازم: لقد نجح قمر الدين فيما عجزتن عنه منذ سنين!

توقف قلب شاهباز عن النبض قبل أن يؤذن أصغر نجيب لصلاة المغرب. غسله وكفنه شير محمد بقماش أبيض. أمر بفك قيدي لأقف خلفه ونصلي عليه صلاة الميت وندفنه في ذلك الوادي. وخفت أن تتوه روح هذا الصبي، وتصادف أرواحاً من محارمه، لا يجوز في الإسلام مصاهرتها! وتخيلته ينام مع عمته زينب فجافاني النوم. وغرقت فاطمة في حزنها، وزادها قمر الدين أَسَىً وهو يتفنن في تلوين فجيعتها بصوته الشجي وهو يشدو:

«لا تتجاهل بؤسي

بلطف عينيك وحكايات النسيج لا تتجاهل بؤسي

أيها الحبيب، لماذا فرطت في صبري

ولم تأخذني إلى أحضانك

منذ تجعيدة الجدائل في ليلة طويلة

قصيرة لحظة التقائنا قصيرة

يا عزيزي كيف أمرر الظلام المحصن بالليل

دون أن أنظر إلى وجهك البهي.»

عاشت فاطمة بانكسار على فقدان أخيها، وازدادت حالتها سوءاً بعد عبورنا بحر العرب. أخرجونا قبل العصر خارج المغارة من النهار الأخير لنا ونحن نختفي في الكهوف الجبلية. وضعونا جميعاً قرب بعضنا البعض. تقدم نحونا

شير محمد ترافقه أخته جُلّنار. عيناه مليئتان بالعمش. يتمعن في وجوهنا ويتحسس أجسادنا ويتفحصها مثل طبيب. يجلس بعد ذلك في الظل. يهمس لأخته جُلّنار ولأصغر نجيب بما يتوجب عليهما فعله ثم يتفرس فينا ويبحث عن قمر الدين، ويسأل عنه فتخبره أخته أنه مازال نائماً. يشعر براحة كبيرة، ثم يقول مخاطباً الجميع: سنتحرك بعد صلاة المغرب، وسندخل مرفأ غوادر وستكونون أبنائي كلكم وهؤلاء النسوة أمهاتكم. الحراس من خلفكم وبنادقهم تحت شالاتهم، ولا تظنوا أنني عجوز، والله أستطيع بيدي هذه كسر رقبة أي واحد منكم يحاول الفرار. هل فهمتم؟

بدأنا السُّرى بعد انتهاء الصلاة نحو مرفأ غوادر. امتازت المدينة ببيوتها الطينية الصغيرة والجميلة. تنتشر في أزقتها الضيقة رائحة البخور العماني. كنا نشبه عائلة كبيرة تسير نحو طريق المرفأ المفتوح والذي يقع على برزخ رملي، وعلى طرفيه خليجان ضحلان، ولا تستطيع البواخر الكبيرة الاقتراب من الشاطئ. بدأنا صعود قوارب صغيرة تنتظرنا، ومعنا عائلات أخرى تشابهنا يقودها رجل عجوز ويسير خلفهم رجال مسلحون يخبئون أسلحتهم تحت شالاتهم. اقترب مني سردار وهمس:

يعيش السلطان هناك في تلك القلعة المضاءة بالقناديل.

أي سلطان؟

السلطان العماني الذي يحكم غوادر.

امتازت القلعة ببرج عالٍ، وبانتشار بيوت من الطين والحجر حولها، وجميعها لسكن خدم الوالي العماني، مع جنوده العرب التابعين له. ويقع بالقرب منها مسجد صغير أخذ إمامه ينادي لإقامة صلاة العشاء.

شرعت فاطمة تبكي لما شمَّت رائحة البحر دون ضجة ودون عزاء، دنت منها جُلّنار وسألتها عن سبب بكائها، فقالت لها فاطمة: إني أودع أرضي. حُمل الصغار والفتيات إلى سفينة كبيرة تدعى «الراجفة»، فيما صعدنا أنا وسردار وغلام محمد سُلّماً خشبياً مُدَّ لذلك. وما إن بلغنا السطح حتى قادنا رجال إلى قبوها، ووضعت الفتيات قرب جُلّنار وبقية زوجاته في جانب.

في القبو سألت سردار:

إلى أين سيأخذوننا؟

أعتقد إلى مطرح.

ولكنني يجب أن أعود إلى قريتنا سقر.

عليك أن تنساها.

سمعنا صياح النساء والأطفال بعد ليلة طويلة من ضرب الموج لجدار السفينة. هرج وصريخ يحدث، تبعه صوت رصاصة مع ارتطام شيء بخشب السطح. صخب وضجة من نساء ورجال، وأصوات هَيْنَمة وجَمْجَمة لا نميز منها شيئاً. رصاصة أخرى تعيد الفوضى ويعلو بكاء النساء والفتيات على وقع أقدام تتراكض فوق سطح السفينة. حَلّ الصمت المطبق مع تعكير ضئيل بسبب الموج وهو يضرب في الجوانب. فُتح باب القبو وطلب منا الصعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• تسعة عشر:

صَعُبَ على شير محمد، في هذه الرحلة، أن يكتمل له العشرين، ظل معلقاً بين تسعة عشر صبيّ وصبية وكان قمر الدين الأمرد رقماً مخنثاً لا يضاف إلى الذكور ولا إلى الإناث! رقماً ناقصاً ويقال هو رقم على صورة الرجال وأحوال النساء. لا يقبل الجمع ولا يقبل القسمة. جماله ونعومته وعذوبة صوته أعادت للعجوز شير محمد الهِمَّة بعد أن عجزت عن إعادتها له جميع نسائه بمن فيهن كولي، وهي الأصغر سِنّاً والأكثر مَلاحَةً، بل إنها من دفعت الثمن بسبب رونق قمر الدين. وتحولت ملكية ثيابها المنسوجة بإتقان بيد عجائز خرافيات لهذا الصبي المصبوب من عجين إلهي.

وشير تعني الأسد. وشير محمد هو الأسد الذي لا تدخل في عرينه سوى النساء العصِيَّات والمميزات بشفاه سفلية أكثر امتلاء من العليا، وأرداف سمينة مثل كثيب الرمل، وعجيزات ضخمة بارزة الاستدارة، ويستطعن مجاراة رغباته إلى ساعات متأخرة. ويجلس بعدها في بركة دائرية تحيطه النساء للمداعبات التي تسبق أذان الفجر. وبعد أداء الصلاة، ينطلق في الإغارة على القرى والبلدات النائية لاختطاف الصبيان والصبيات كعبيد وإماء ثم تصديرهم إلى الضفة الأخرى من بحر العرب.

مهنة ورثها عن جدّه شير جلال. وقد حالف الجدَّ النجاح في اختطاف إحدى بنات السلاطين المغوليين. وكان ذلك وقت حكمهم في ربوع الهند والسند. وهو حكم مهدد بالانهيار بسبب الفساد والإغراءات والرِّشا التي نجح في تقديمها مديرو شركة الهند الشرقية الإنجليزية لبسط هيمنتهم على هذه القارة المتخمة بالثراء، والغنية بالعمالة التي تتقن كل حِرَفِ الآلهة بدءاً من التطريز والبناء والتطبيب وصولاً إلى صناعة البنادق والمدافع والسفن بجميع أحجامها. تفشى اسم شير جلال كأخطر شخص مطلوب من قبل الأمن الإنجليزي في القارة الهندية بعد فشلهم في العثور على هذه الأميرة نقية الأصل صافية الدم وذات الجمال التركماني. ووصفت الصحافة الإنجليزية ذلك بالفشل الكبير للأمن الإنجليزي ولشركة الهند الشرقية. تنقل شير جلال متخفياً من قصر إلى قصر، ومن بيت إلى بيت دون أن يكتشفه أحد. وبعد أيام اقترح عليه أمير فارسي تنظيم مزاد علني على هذه الصبية التي شارفت على الثانية عشرة. وهي ذات قوام رائع، متناسبة الطول واللحم، فأرسلت الدعوات بشكل شخصي للأمراء والتجّار.

بدأ العزف والرقص والسكر والعربدة في الليلة الموعودة. وكانت النساء ينتقلن بين أحضان الأمراء والتجّار الذين جاءوا خصيصاً ليشهدوا ما قيل في

السِّرّ عن ملاحة هذه الصبية، ويتمنون استملاكها كأمة يصلح حوضها لتربية وإنجاب فرسان وأمراء ذوي دماء وعروق مخلوطة بين التركمان والهنود والفرس وعرب فارس، موقنين أن الفروسية تسري في الدماء قبل أن يتعلمها المرء، بل وقبل إتقان علوم الحرب وفنون المبارزة رغم انتشار البنادق. وتابع شير جلال الحفل من فتحة مَشْرَبيَّة في القصر انتظاراً للإشارة. وقف الأمير الفارسي معلناً بدء المزاد. سكتت الطبلة والآلات الموسيقية واختفت الراقصات. خرج شير جلال من مخبئه يرتدي ملابس الوجهاء أمام همس الأمراء واستهجانهم من حضوره. وقف متحدياً الإنجليز وأمر بعرض الأميرة بعد أن أطلق عليها اسم زارا ويقصد سارة. بيعت بنت السلطان المغولي على ابن أحد الأمراء العثمانيين تصادف وجوده في هذه القارة ضمن رحلة استكشافية بسعر تشترى به الإمارات والدول، وقيل إنه تزوجها في الآستانة.

ذاع خبر تلك الحفلة التي لم تتكرر في جميع أراضي الهند والسند وفارس. وبعد شهرين نجحت قوات بريطانية في القبض على شير جلال بعد دفعها رِشاً كبيرة إلى أمراء حتى وصلوا إلى رشوة عصابته. واستخرجوا بشكل سريّ كعادة الإنجليز دائماً حكماً بإعدامه هو وأبنائه التسعة عشر بمن فيهم والد شير محمد. ونجحوا في استصدار فتوى شرعية تبيح إعدام الأبناء بجريرة والدهم! أعدم شير جلال، ولم تعدم ذريته وإجرامها. فقد أودع في دماء أبنائه وأحفاده جذوة المغامرات الخطرة. وما إن خط شارب شير محمد وقذف بحيواناته المنوية إلى أبعد مسافة في مسابقة صبيانية حتى شكّل أول كوكبة للقيام بسرقة المواشي والتهريب. تطورت معاصي الصبي وآثامه وجناياته بسرعة أعادت إلى أذهان الإنجليز تاريخ شير جلال على أوراق الصحافة والبرلمان البريطاني والنخبة المثقفة الإنجليزية الداعية لقطع الطرق على مهنة مربحة للكثير منهم.

يقول شير محمد: في هذا العمر كان يفترض بي الجلوس عصر كل يوم أمام عتبة باب كوخي وشرب القهوة، والتحدث عن أحوال القرية مع عجائز مثلي حتى يحين أذان المغرب. ثم أتربع بين أربع نسوة على ذمتي وأنا بلا أسنان. ولكن المغامرة تسري في دمائي وشغفي بالمخاطرة كبير. ويعيد اختطاف الصبايا القوة لكل جزء من جسدي. ويساعد بكاء الأطفال وتوسل الأمهات في إفرازي للعرق وزيادة حيويتي، وتنشيط أعضائي، فأعود إلى عنفوان الشباب. لكن لِسان كولي يجعل بدني يبهت وينام. وكنت أفضل النوم مع ماهتون؛ لأن خثلها دائم الالتهاب، فلا تطلب مني شيئاً، وتقبل بأدنى مداعبات على جسدها الناعم، حتى سطع قمر الدين فجعلني لا أكف عن الاستغفار وتقديم الحمد والشكر للّه سبحانه وتعالى!

• ابن الجبل:

أشكل على يوسف تخيل نفسه وهو يسير تحت جنح الظلام، ويسكن داخل الكهوف في النهارات الطويلة، ويرمى في سفوح الجبال السوداء مقيداً بين مكران ووديان صحراوية لا تنتهي إلا أمام البحر. بدا الأمر كمن ضرب على وجهه فتاه في أضغاث أحلام. عرف أن شير محمد ينوي نقلهم في سفن تعبر بهم مضيق هرمز باتجاه مطرح وتصريفهم هناك كرقيق يخدمون ويقومون بإنجاز الأعمال لمن يدفع فيهم ما يوازي قوّتهم وصلابتهم. أوقفوهم في سوق العبيد في مطرح. أطلق عليه الدَّلاَّل اسم ابن الجبل لأنهم لم يصدقوا من حكايته الخيالية إلا أنه كان مقذوفاً من جوف مغارة، لا أصل له، ولا تُعرف قبيلته. وقال عنه:

اسمه يوسف ونسمّيه ابن الجبل. شاب يافع بمظهر ناعم قليلاً ويداه لم تختبرا العمل في الحقول أو بحيرات الملح ولكنه ذو معدن أصيل. في أضلعه جمود المعدن والنحاس، وفي دمه رائحة التراب والحصى الصوان. هو ابن أمير ضاع في الوديان. عاشق فقد عقله وتاه بين الجبال. أصابه سحر ضيع من لسانه الكلام. لا نعلم إلا ما نراه، شاب نحيل جاء لنا من جبل مكران. في لياليه يستيقظ من كوابيس يحكي فيها عن طائر كان يرضعه من الجوع وله ثمانية إخوة أفراخ في كهوف يصدأ فيها النسيان. وأحلام أخرى حول رؤوس تتدحرج أمامه وهو يشهد على قطعها من جنود وهميين يسفكون القرى ويبيدون أهاليها. يستيقظ من نومه مذعوراً يهلوس فيها عن فصول القتل والدم النافر على حَدّ السيوف والخناجر. نعومته الظاهرة تثير العديد من الأسئلة حول شاب التبس عنده الواقع بالخيال، ونجزم أنه خرج عاشقاً وتاه بين الجبال، وأخرجت له الوديان شياطينها على عدة أشكال.

تقدم نحوه العديد من رواد السوق: أمراء وتُجّار عمانيون وهنود، وبدو حفاة من شبه الجزيرة العربية، ومعهم بعض الأوروبيين المصابين بلوثة بيع وشراء هؤلاء الفتية والفتيات المهربات من أرض بلوشستان لإعادة تصديرهم للأسواق الأوروبية بأسعار باذخة. قام بعضهم بفحصه بدقه واكتشاف ما يخفيه من أسرار بين جوانبه. ولكنهم لم يجدوا فيه ما ينبئهم بتميزه عن غيره، بل إنهم شككوا في قول الدَّلاَّل وتحاجَّوا معه ثم تركوا الفتى المعروض واقفاً كما كان، عاري الصدر، غارقاً في عرقه، لا يولونه الاهتمام. تنتصف الشمس فيفقد قواه، وقبل انهياره يحملونه بعيداً عن الأنظار ويأتون به في اليوم الآتي. ظل على هذه الحال حتى تقدم رجل عماني من مطرح واشترى فاطمة، أمسك يدها برفق وسار مبتعداً ودموع يوسف لا تتوقف، فصرخ الدَّلاَّل بالحارس: خذ هذا الناقص من هنا. ترك يوسف، لا هو حُرٌّ ولا مملوك!

• عُرْف الخيول:

طفر رشيد حمدان من غرفة الدرس والمطالعة إلى حوش الدار، فهبَّت زينب مرعوبة من نومها واكتشفت أنه أكثر ارتياعاً منها فحضنته ولمته فباح لها بأن ما انتهى منه في ديار الحجاز قد وصل إلى سقر مع دخول عابدين أبوابها.

قضت بقية الليل تقرأ عليه آيات وأدعية حتى هدأ واستكان، وشعر بحاجته إلى حضن أنثى تفجر فيه التفكير وتجدد دمه المتخثر. وانتبه أنه لم يرَ شعرها منذ مدة. مدَّ يده نحوه وفلَّ رباطه فسقطت جديلتان طويلتان وشعر بانجذاب رهيب نحوها. نهض مسرعاً إلى مكتبه وعاد يحمل مقصاً. تذوَّق أطراف شعرها وشمه، ثم قص منه. وطلب منها أن تقص من شعره. تركها في نزوع شبق وقضى بقية الليل وتالي النهار وهو يوضب خصلات الشعر، شعرة شعرة، ويضفرها حتى اختلط شعره بشعرها. وجعل من الشعر رباطاً للمخطوطات.

رأت زينب غوايتها تشتعل في المرآة، وعرفت أن زوجها رشيد يلهو عنها مع خيالات الكتب فبدأت تعتني بشعرها وتزينه بالورد والعطور، وتضفره، وتقصه بأشكال مختلفة، لعل هذا الرجل يسهو عن علمه قليلاً، ويهجع في فراشها ويستكين. وفشلت في ذلك؛ لأن من ترجوه كان قد تجاوز صباه ولم يعد قادراً على مجارات عنفوانها وشبابها المتألق، اختفى من حنجرتها الصوت القادر على استنهاض الموتى، والمحفز لجعل فارسها العجوز يهبّ من فراشه ليستقبلها وهي أجمل نساء سقر. وزينب لا تشتكي، وتكبح رغباتها بالسجود والركوع.

وعندما عادت بعد انقضاء عدة زوجها، كرست وقتها لمحبة فاطمة، وبذلت أيامها تعلمها تسريح شعرها وتطيّبه ليحوم حولها زوجها، ويتوله بضفائرها، ويشدَّ عُرْفها كلما امتطاها.

وظن يوسف عندما فتح المخطوطة ووجد خيوطاً سوداً تحكم ربطها، أن هذا ليس إلا شعر فتاة فارسية اختطفت من فراشها قبل مطلع الفجر لتباع في مرفأ غوادر السائر نحوه باستسلام تام، وطالما ظل سرّه بعيداً عن شير محمد فهو بأناة وسلام. أما شير محمد فقد نسي كل الصبايا والفتيان الذين كانوا في عهدته بعد أن سلبه جمال قمر الدين واستولى عليه بمقدرة الطيب والريحان التي نثّها هذا الفتى الغندور.

• أعمر من حَجَلة:

ترضعك الحَجَلة حتى تصاب بالكهولة. تكبر في العمر ويتكاثر الأبناء من حولك ويكبرون فيما أنت تحسب السنين. تراهم يشبّون ويتزاوجون ويتكاثر بهم البيت. يناديك الأحفاد يا جدّنا الحَجَلة، وأنت لست إلا يوسف، ذلك الشاب الوسيم اليانع الذي وجد نفسه يختلس النظر نحو حَجَلة، فتَشَرَّدَ وضاعت

الرؤيا. ظن أن كل هذا مجرد حلم، وأنه سينهض بخفة بعد قليل، وسيعاتب والده ويلوم أمه، ثم يعجل بالركض كعادته ويشتكيهما عند عابدين الذي رآه ذات نهار بعد أن دخل عليه دون استئذان وهو يرسم الصليب، ويصلي بغير صلاتهم، وهو في مكتبة رشيد حمدان واضعاً عند قدمه سيفاً عريضاً رسم فوقه شكل الصليب، سأله يوسف:

لماذا هذا السيف كبير يا عابدين؟

لقتل الدابة.

أكون معك عليها يا عابدين؟

لا، لن تقدر يا يوسف.

اندفع يوسف لحمل السيف، ولثقله فقد توازنه، فأسنده عابدين وقال له: «جاء شاهداً ليشهد للنور»([10]) فَكُنْ شاهداً على النور يا يوسف. تركه في غموض وبلبلة، ونسي قصة السيف حتى علم بموته، فأخبر والده بالكلمة المنقوشة عليه، فردَّ عليه والده عبد الله الكفيف:

ستكون النور يا يوسف.

وكيف ذلك؟

بأي حال لم يتخيل تجشم حمل السنوات على كاهله، ولا غواية السفن والبحر والحوريات التي نسجت له شعيرات بيضاء انبسطت في رأسه وشاربه حتى أصيب بمرض العجائز بعد إنجاب العيال، واختلاس النظر إلى زوجته وهي ترضعهم، فيقول لها:

يا أنتِ، أنا أعمر من حَجَلة.

• سردار:

يعبر هذا الشاب اليتيم الوديان الجافة للعمل في تكسير الملح الحجري ونقله على البغال من مكران إلى غوادر ومن غوادر إلى كويتا بين جبال مراد وجبال كليتان، رحلة مستمرة بلا انقطاع في طلب الرزق وتغطية مصروفات علاج زوجته الصغيرة لالي التي سقطت عليلة بعد شهرين من زواجه، فلم يهنأ بها.

صحبتها خالته بعد أسبوع من مرضها مشياً على الأقدام إلى رجال دين معروفين في كويتا بإعادة العافية وفك السحر، بلا فائدة. وبدأ بترك عمله وحملها على البغل مع خالته إلى رجال دين آخرين منعوتين بالطب وإبراء النساء المصابات بالعيون والحسد أكثر شهرة وكلفة، ولم تتحسن صحتها. بعدها زادت حالتها سوءاً وماتت في أكثر شهور السنة حرارة. وبعد انقضاء

أيام العزاء طرقت خالته باب كوخه الذي ورثه من والدته بعد موتها. وضعت أمامه قائمة بالمصروفات التي تكفلت بها منذ إصابة زوجته لالي بالأسقام، ولم تكن قيمة الكوخ تغطي التكاليف. وعليه الآن العمل في كل شيء، أي شيء كي يؤدي ما دفعته للالي.

عمل في نقل المسافرين؛ وكانت رحلته الأولى نقل مسافر من كويتا إلى غوادر. وهناك وقف مع شباب يملكون بغالاً ينقلون الملح الحجري بعد تكسيره إلى سفن تجارية تنقل كل شيء إلى الضفة الأخرى من بحر العرب: الخشخاش، والمورفين، والنساء الراقصات، والنساء العاهرات، والنساء المؤمنات، والمحاربين، والمخنثين، والغلمان، والصبيان، والعبيد.

وبسبب الملح الحجري أصيب بمرض الجفاف. تسلخ جلده وتغضنت أطراف أصابع يديه وقدميه، واضمحل جسده القوي وضعف. صار غير قادرٍ على حفظ أسرار الملح. وبخطوات متعبة يسير ويفكر في عدم العودة إلى خالته بعد ادخاره المال اللازم للزواج والاستقرار في غوادر والعمل كعتّال. يفكر ويرى يأس البغل الذي أصبح هو الآخر عاجزاً عن مواصلة العمل، وقطع هذه المسافات الصحراوية والجبلية الطويلة. توهم في تلك اللحظة أنه يرى شبحاً يهبط من فوق جبل موحش. وظن لوهلة أن مرض زوجته انتقل له أو أن أحد شياطين خالته يتعقبه لتجريده من المال القليل الذي يكسبه ويبعده عن الضنك. انجلت الصورة بيوسف، واقتنع بجريان الخير في صحبته، حتى انتهى به الأمر مرمياً في قبو سفينة تعبر بحر العرب باتجاه مطرح!

يعتقد يوسف أن سردار كما في معناه: حافظ السر، هو الرفيق شاحب الوجه والجسد الذي عركته بحيرات الملح فنسي قيده وهم يجرجرونهم بين مغارة ومغارة. وأنه أوشك على البوح له بالسرّ الذي يثقل ظهره وهو يحمله معه من سقر. إلا أن مرض فاطمة جعله يحجم عن البوح لحافظ السر.

• تُحرق في ماء وتموت في ماء:

تعتقد زينب وهي زوجة الرجل الحكيم الذي قضى زمناً من حياته في ربوع الحجاز، أن الحياة لن تخذلها، وستثأر لها، فحُرقتها على عيال أخيها مصطفى لن تمر هكذا دون قول الحياة كلمة فيها. فهي تؤمن إيماناً مطلقاً بدورانها في إنتاج الخير لأصحاب الخير، والشر لأصحابه أيضاً. وعلى ذلك، فقد اربدّ وجهها وارتعشت أطرافها وهي تصيح في شير محمد بكلمات مشحونة بالشر، مؤمنة باقتصاص الحياة منه. فخرجت منها جملة قصيرة: تُحرق في ماء وتموت في ماء.

أَلِفَ شير محمد سماع كلام مماثل فيه الكثير من اللعنات والسباب والشتائم من أمهات وأهالي أطفال اختطفهم بكل صفاقة؛ لذلك لم يعر كلامها اهتماماً،

فمنذ أكثر من خمسين عاماَ أراد إعادة سيرة جدّه شير جلال في تعميم الرعب ببلوشستان وعلى حدود الهند. رعب دوخ ملك بلوشستان المكسور المير محمود خان الثاني بعدما نجح الإنجليز في تقسيم بلوشستان إلى قسمين حيث مُنحت الدولة الفارسية الجزء الغربي من بلوشستان، واقتطعوا فيما بعد قسماً آخر قدموه هدية لأفغانستان، بانتظار مستقبل مظلم قادم لكل أرض البلوش بعد إعلان قيام دولة باكستان التي أفنت مئات الآلاف من البشر، قبل أن تدخل كل البلوش في الشتات، وتبعثرهم بين ضفتي الخليج الفارسي، وتسحق هويتهم، ويضيع من ثمَّ لسانهم بين الفارسية والعربية.

كان شير محمد وغيره من قطاع الطرق يعبرون من قندهار إلى قلات مروراً بمكران حتى بندر عباس أو عبر مكران ووصولاً إلى غوادر. ولكن قبل أن يتحول كل هذا مجرد تاريخ لشعب مسلوب عنيد، رافقت دعوة زينب الغاضبة قافلة شير محمد وهي متجهة إلى غوادر.

أما قمر الدين فتعوَّد بعد قضاء الليل في الغناء، الدخول إلى مخدع شير محمد ليرى حاجته ومزاجه ورغبته، فإن وجدها ظاهرة تدلع بين يديه وأثار جميع حواسه وأعضائه. وإن ألْفَاه متعباً دائخاً ومكتفياً بالغناء والرقص، قام بتدليك قدمه وظهره بدهان المنثول المصنوع من النعناع المخلوط بدقيق الفلفل الهندي الأحمر حتى يشعر هذا العجوز المتصابي بالراحة ويغرق في النوم.

تتهادى السفينة على بحر العرب في الليلة الثانية على إبحارهم من مرفأ غوادر. ويتقلب معظم المسافرين على بسطهم وفرشهم المصنوع بعضه من خوص النخيل والبعض الآخر من وبر الغنم والجمال، أما الهنود الأغنياء الذين اعتادوا السفر المتكرر فإنهم يدفعون أجرة قمرة خاصة، تحتوي على سرير خشبي مشدود بليف النخيل المفتول، إضافة إلى مبولة يتم تفريغها من قبل عمال السفينة نهار كل يوم.

في تلك الليلة غرق شير محمد في النوم سريعاً. وجالس قمر الدين جُلَّنار العانس يتسامر معها ويجيب عن أسئلتها الكثيرة حول شبق الرجال وهم يقضون وطرهم منه. وكان صوته الفتان الذي يلونه مع تنوع حديثه وقدرته على سرد تفاصيل مثيرة يرى وهجها في عين جُلَّنار التي قضت عمرها تسترجع صور رجال قابلتهم وهي برفقة أخيها شير محمد، وتنام على استعادتهم وهم يخرطونها ويجعلونها تصرخ كما تفعل نساء وإماء أخيها. وذات ليلة دخل عليها بعد أن سمع تأوهاتها ممتشقاً عصاً وخنجراً ليسكت عاره، إلا أنه عندما دخل لم يجد أحداً معها. ولم يكن هذا سوى حلم عميق عبق ببهارات جموح خيالها وأمنياتها المكبوتة في القلب والفؤاد والفرج. أيقظها وقام بجلدها حتى آلت بالصوم شهراً كاملاً؛ متناسية أن شهوة المرأة لا يطفئها الصوم ولا يقف في وجهها سيف أو عصا. تعلمت عادات جديدة تسمح لها

بتفريغ شهوتها بحِيل لا صوت فيها ولا تكشفها العيون. ورغم استنكارها لما شهدته عينها في خسوف قلب أخيها الذي انهار أمام جمال قمر الدين الظاهر منه والخفي. إلا أنها صاحبته وأحبته ومال قلبها نحوه. واكتشفت فيه تلك البذرة الذكوريّة الصغيرة المنسية في هذا الجسد المغناج الذي ظلمته الحياة. كما قهر جسدها الذي ظل مغلقاً ومنكفئاً يقتات على أحلام تهرب منها كلما سمعت خطوات أخيها تقترب من مهجعها.

قضيا نصف الليل يتسامران ويتضاحكان مع انفلات كلمات تخدش الحياء وتثير الجسد، متناسيين وجود شخص ثالث لم يتمكن منه النوم. وكان حديثهما يصله ويفعل فيه مثلما يفعل في عمَّته جُلَّنار. شعر أصغر نجيب بالإثارة، واشتعلت فيه ذَكْوَة الشبق وأصابته بالزيغ. تناول بندقيته واقتحم قمرة عمته ووضع فوهتها على صدر قمر الدين في حركة فاجأتهما. صرخت جُلَّنار وحذرت ابن أخيها من فداحة نواياه، وافتضاح رغبته. لمح قنينة الدهان ودون أن ينتبه أنه دهان المنثول سحبها وجرَّ معها قمر الدين مبتعداً عن عمته. استمر صراخ قمر الدين مستنجداً لإنقاذه من هذا الشاب الجامح. أسنده إلى طرف السفينة مع استيقاظ بعض المسافرين والبَحَّارة، سحب سروال قمر الدين وسكب القليل من الدهان على مؤخرته ثم رطب عضوه بما تبقى. شعر أصغر نجيب بحرقان أرجعه عقله لرغبته الجامحة. جامع قمر الدين بالقوة، والصبي يعتقد بتعرضه لاغتصاب من محرم. استيقظ شير محمد على صوت صراخ النساء وميَّز نحيب قمر الدين فخفق قلبه وأدرك حدوث أمر جلل. وبالكاد سحب بندقيته وهمَّ بالخروج من القمرة حتى سمع دوي رصاصة. أصابت جميع المسافرين بانزعاج ودبت رهبة في كيان السفينة، وهي تعبر مياه بحر العرب الهادئ. رأى شير محمد ابنه أصغر نجيب يبحث عن ماء يُبَرِّد حرائق عورته المكشوفة. وبعين يتطاير منها الشرر بحث سريعاً وسط هذا الظلام الكثيف الذي لا يكسره سوى قنديلين ضعيفين عن قمر الدين. رأى البَحَّارة والمسافرين وهم محشورون في زاوية ينظرون إلى البحر. أشارت جُلَّنار إلى البحر وهي تبكي بصوت متقطع: قمر الدين! لم يصدق ما تعنيه جُلَّنار. رأى بحراً هادئاً وموجاً خفيفاً ناتجاً عن حركة السفينة. بحثتْ عيناه بهلع بين المسافرين الذين أكدوا ما قالته له أخته: لقد اغتصبه وقتله.

التفت شير محمد نحو ابنه أصغر نجيب الذي لَفّ عضوه بقماش مبلول بالماء. استنجد بِرُبّان السفينة رمضان خان طالباً حمايته فوقف بينهما محاولاً السيطرة على الموقف. وضع شير محمد بلا تردد البندقية على صدر الربان. وأدرك أن عليه الانسحاب من هذا الخلاف العائلي، نفض أصغر نجيب، وتنحى عنهما وهو يردد لشير محمد: استعذ من الشيطان. لكن شير محمد حسم أمره. تقدم ببطء نحو ابنه أصغر نجيب ووجَّه فوهة البندقية إلى جبهته، والابن مُنحنٍ يردد كلمات الاعتذار ويطلب الصفح والغفران، إلا أن الرصاصة دوت

في الأجواء، وبعثرت فروة رأس الشاب ونثرت دمه على مساحة كبيرة من سطح السفينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
أيقونة الفراق

- 1 -

دفع ماثيو باب مدرسة العبيد المحررين في نهار يوم الاثنين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر في العام 1910م، يحمل في يده كاميرا ضوئية. تفاجأ بالفرح المنتشر في المدرسة. تقدم لتحيته بشكل مبالغ فيه فتية سود البشرة، بينهن فتاتان. جميعهم يرتدون ثوب الكتان الأبيض، ومستعدون لتنظيم أول حفل تخريج تعقده هذه المدرسة التي ولدت من ألم دوَّخ الأب بيتر. ألم بدأ بعد إطلاق البارجة فيكتوريا ثلاث عشرة طلقة مدفعية إعلاناً بوصولها محملة بخبر كارثة سفينة الرُّبّان عبد الله التوانقي. هذه الحادثة وشغفه بالطيور قلبت مجرى حياته رأساً على عقب. وها هو اليوم بعد مرور أربعة عشر عاماً يعود مرة أخرى ليرى الأطفال العبيد الذين عثروا عليهم في قبو السفينة المنكوبة قد باتوا اليوم رجالاً ضخاماً مرابيع القامة، ونساء ناضجات لهن صدور ممتلئة؛ بالكاد استطاع أن يتذكرهم.

لم يكن يتخيل أن شغفه وصدمة السفينة ستعيده إلى ليفربول لدراسة الطيور، وستجعله يتعلق بالكاميرا للتوثيق والدراسة والتأمل. وقفت إيزابيل قرب قفص خشبي معلق على شجرة لوز، وبالقرب منه يقف على أحد الأغصان طائر الببغاء الرمادي اللون ذو الذيل الأحمر، يستمع لما تهمس له، وما إن ابتعدت عنه حتى صاح بصوت حاد: مرحباً سيد ماثيو. شدّه هذا الترحيب وهو غير مصدق، دنا منه، وقبل أن يصل إليه بادره الطائر مرة أخرى: شكراً لك سيد ماثيو. توقف ونظر إلى الحضور الذين بدأوا يتضاحكون. ابتسم لهم مستفسراً عن الطائر، فردت عليه الشابة إيزابيل صاحبة العينين الخضراوين الفاتحتين وذات الستة وعشرين عاماً: نعم، هو من تظن. لقد كبر وعاش معنا بفضل رعايتك له. طائر ذكي ومبذر للكلام.

خرج الأب بيتر مرحباً بماثيو لقبوله دعوة الإرسالية لحضور حفل التخريج وتصوير الفوج الأول الذي أسهم في إنقاذهم. وبعد موعظة قصيرة ارتجلها الأب بيتر حول باب النجاة الذي منحهم فرصة العيش من جديد بفضل الرب. حثهم في كلمته على اتخاذ قرارات حول شكل الحياة التي يريدون، بعد ترتيب فرص عمل لهم في مراكب تجارية وأخرى حربية. وقال في كلمته: إن الرب يفتح باب الرزق لهم في أي مكان آخر يختارونه. رددوا بعد العظة صلاة الكنيسة البروتستانتية وكرروا آمين وهللويا كلما تطرّق الأب بيتر في إشارة إلى حريتهم الممنوحة لهم بحسب قوانين الإمبراطورية البريطانية العظمى. وحين انتهوا من كل ذلك رحَّب بتواجد رسول نجاتهم الأول، معبِّراً عن غبطته بقبول الدعوة لالتقاط صورة في هذا الحفل البهيج. ابتسم لهم ماثيو ابتسامة باردة.

توسط الأب بيتر إستيفان وجيكوب وناثان ومايك، في حين جلست كل من ماريا وإيزابيل على مصطبة خشبية. غطى ماثيو رأسه بالقماش الأسود لالتقاط الصورة. وتأمل الوجوه التي غيرت حياته بشكل كامل، واستطاعت أن تحوله من مجرد جندي في البحرية البريطانية إلى باحث أكاديمي متخصص في الطيور.

بحثت الوجوه السوداء المبتسمة عن ريش لتحلق بحرّية، وقد تبيَّن له ذلك بوضوح وهو في الغرفة السوداء يُحَمِّض الصور. رأى في هذه الظلمة من يسقي ربه خمراً، ومن يُقتل، ومن يغرق، ومن تأكل الطير من رأسه! دبَّ فيه هلع قديم فترك غرفة التحميض وخرج إلى غرفته التي خصصتها له القنصلية البريطانية في محمية من البيوت يسكن فيها الإنجليز والزوار الأوروبيون في مسقط. فتح النافذة واستنشق عبير الهواء المشبع بالرطوبة. تأمل البحر الواسع أمامه وهو يستعيد دراسات ومقالات علمية كتبها في أنواع الطيور الأفريقية وتوحشها. ارتشف كأساً من الويسكي الأيرلندي ثم قرر الانتهاء من تحميض الصور.

لمح في الغرفة السوداء في وجه إيزابيل طائراً جميلاً ورقيقاً، شعر أن أمامه كَرَواناً صحراوي اللون أليفاً ووديعاً وله عينان كبيرتان وساقان طويلتان ومنقارٌ مستقيمٌ. وأثاره وجه جيكوب، وأبصر فيه طائر الحكمة الذي كاد يفقأ عين الفرعون الأعظم رمسيس الثاني. طائرٌ جارحٌ يَنشَطُ في تأملاته ليلاً مستعيناً بحاسة سمعِهِ القويّة وعينيه الكبيرتين اللتين توفران له رؤيةً ليليةً تخترق العادي وتكشف ما وراء الأشياء والوجوه والكلمات. كان يشبه البومة. وفي تقاطيع وجه ناثان رأى حمامة بيضاء تستسلم لمصيرها وعقبان تنقر رأسها حتى الموت! في حين كانت ماريا نسراً يمتاز بطول جناحه وحدَّة بصره وتحليقه على ارتفاعات شاهقة. وتجلى في وجه مايك عصفور صغير يألف الناس بسرعة، خفيف الحركة، سريع التنقّل ومسرف في الحذر. ولم يكتشف في وجه إستيفان غير طاووس يتميَّز بريشه الجميل متعدد الألوان، ومزدان بعيون سرية يرى بها ما لا تراه عيناه.

خرج ماثيو إلى الشرفة. تناول منشفة بيضاء ومسح العرق المتصبب من جبهته. فتح أزرار قميصه العلوية وسمح للهواء الشحيح بالتسلل إلى روحه علَّه يشعر بالراحة. تناول كأساً أخرى من الويسكي، بسط الصور أمامه وأخرج دفتر ملاحظاته، وأخذ يكتب ما يراه في هذه الوجوه وهي تسرد حياتها عندما كانت طيوراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 2 -

عاد ماثيو في اليوم التالي حاملاً معه الصور. استقبلته إيزابيل بسلَّة فواكه. مدّ يده مبتسماً وتناول موزاً. بُشَّت وأشارت نحو رجل عربي كفيف محروق الوجه، جلده متكسر وندوبه عميقة تمتد إلى أطراف عنقه، بقع بلون وردي بين حاجبيه وطرف عينيه. ويجلس على مقعد خشبي في ساحة المدرسة، ويقف قربه رجل أفريقي أسمر على مشارف الخمسين، ولكنه مازال قوي البنية نشيط الحركة وكثير الابتسام. عرف أنهما الرُّبّان عبد الله التوانقي ومساعده نزنجي الممباسي. وتذكَّر الرُّبّان الذي نجا رغم تعرّضه لحروق التهمت وجهه وكتفه حين كانوا يبحثون عن أحياء على سطح السفينة المنكوبة.

لاحظ ماثيو أن الرُّبّان الضرير يستعين بشكل كامل بمساعده نزنجي. رحَّب به وشكره على دوره في إنقاذهم. وأيقن أن المكان يتسع لروح المحبة والتسامح بين الجميع بمن فيهم أطفال الأمس، الذين تخرجوا اليوم من مدرسة العبيد المحررين، وتحولوا إلى رجال وشباب قادرين على اقتحام الحياة العملية، ومغادرة المدرسة ليبدأوا حياتهم بشكل حرّ وبانعتاق كامل! حرية لم يستوعبها ماثيو بعد تظهير صورهم في غرفة التحميض. يرى أمامه جيكوب وإستيفان وناثان وهم يضحكون على حكايات الرُّبّان المسن الذي لا يكف عن سرد القصص المضحكة، ويتابع إيزابيل وماريا وهما تقدمان الفواكه والحلوى والقهوة العمانية مع ابتسامة لا تفارق محياهما.

ظل السؤال الجوهري الذي شغل ماثيو: هل تعرفتم على السفينة أو السفن التي اعترضتكم ودمرت سفينتكم وأودت بمن عليها في تلك الليلة المكفهرة البعيدة؟ سؤال طوَّق تفكيره وأنساه حتى سبب مجيئه إلى مسقط وقبوله دعوة حضور وتصوير حفل تخريج الفوج الأول من هؤلاء العبيد. ابتسم الأب بيتر فيما ضحك الرُّبّان عبد الله التوانقي. وبصوت مرتفع ردد؛ إنها اللعنة، اللعنة! إجابة لم تخمد جمرة السؤال لباحث صرف شبابه وهو يختبر الفرضيات، ويجري التحليلات، ويختار العينات، ويدوِّن الإحصائيات، ويقترح الحلول، ويكتب التوصيات، ويؤلف البحوث التي ناهزت ستين بحثاً، نشرها في الدوريات والنشرات العلمية المتخصصة، وقدم بعضها في مؤتمرات بجامعات أوروبية وأمريكية عتيدة، وأعدَّ قاموساً فريداً للطيور حدد فيه نوع الطير وأسماءه وأهم صفاته وموطنه ومواسم هجراته مرفقاً كل ذلك بصورة أو رسمة بريشته. اختصار الكارثة في كلمة لعنة من الرُّبّان العماني زادت فضوله ولم تبطل شهيته للمعرفة.

شعر ماثيو منذ أن وضع قدمه في هذا المكان الذي لم يزره من قبل ولكن قرأ عنه في المجلات المتخصصة بالتبشير بحجم أسلاك الكنيسة البروتستانتية المتخفية خلف مظهر مدرسة العبيد المحررين. وتأكد أن هذه الأسلاك يشتبك فيها الدين بالعلم، والنتيجة هزيمة نكراء للعلم، وصراع خاسر للعقل لمصلحة الخرافة. وأيقن أن التفكير لا يمارس هنا إلا كالاستمناء، في معزل ودون علم أحد! وأظهرت له نظرات الطيور المغلولة بأسلاك المدرسة لحظة التقاط الصور لها أن بعضها يعرف أموراً تخضع للتصديق ولكنها لا تستكين للتفكير. نبهه صوت الأب بيتر وهو يسأله عن نتائج الصور، وما إن أخرجها ماثيو حتى الْتَفَّ حوله الجميع بمن فيهم نزنجي. رأى الفرحة تغمر الوجوه الشابة والأطفال الجدد الذين انضموا إلى المدرسة لظروف تشابه ظروف هؤلاء الرجال والنساء الذين انتشلوا وهم أطفال من حطام السفينة. جلس الأب بيتر على طاولته الخاصة وبدأ يكتب خلف الصور بعضاً من آيات الإصحاح الخامس من إنجيل متى، فيما تناول كل واحد منهم صورة وهو يردد شكره للرب الذي حفظهم. تفاجأ من تعليق جيكوب الذي شكر الأب ومدرسة الرب، ثم ردد كلمتَي «الحمد للّه» بلغة عربية ولهجة سواحلية عرفها ماثيو بسرعة! واستفسر من الأب بيتر عنها فردَّ عليه الأب بشكل ممتعض: جيكوب ينوي الدخول في دين العرب.

لم يعطِ ماثيو الأمر أهمية كبيرة، فلم يجبر وهو الشاب الإنجليزي الذي طار خلف حلمه من حوض ألبرت بالمواظبة على الصلاة في الكنيسة، وكانت مغادرته ليفربول نهاية ارتباطه بالدين. تقدم منه نزنجي وهو يقود الرُّبّان الضرير. تنحنح عبد الله وسأله: ألم تعثروا قبل غرق سفينتي على حجر مقدس؟ لم يفهم ماثيو مقصد الرُّبّان المُسِنّ الذي قضى أكثر من سنتين يتلقى الرعاية في مصحة الإرسالية الأمريكية عن حروق وجهه التي حالت دون تغلغل الضوء إلى عينيه مجدداً، ومنعته من ركوب البحر.

شكَّ ماثيو في أشكال الطيور التي رآها في وجوه هؤلاء السود وهو يهم بالتقاط الصورة التذكارية لهم. شعر بسرّ يقف خلفهم، أكده الأب بيتر باستحضاره حوادث غريبة وقعت في المدرسة خلال هذه السنوات، وأثارت عنده الحيرة والأسئلة. وعلى ماثيو الآن التخلي عن منظوره العلمي في التحليل والتفسير، واللجوء إلى الطير الذي يسكن داخله. وأن يكف عن ممارسة العادة السرية للتخلص من ذلك الشعور المزمن بالخطيئة! ترك استدلالاته في ذلك النهار وتبادل الحديث معهم. لاطف إيزابيل، وهو يكتشف غواية الريش الذي ينبت على جانبي خصرها، وعرف أنها ستحلق في يوم قريب وسيكون هو لها مثل ذكر الطير الذي يرافق أنثاه أينما حلت. جعله هذا الاكتشاف يتأمل بولع الكَرَوان الصحراوي، الوديع، والقادر على احتمال صمته وعمله في الكتابة ودراسة عالم الطيور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 3 -

أرادت أن تكون جميلة جداً مثل الإنجليزيات والأمريكيات اللواتي كن يزرن مدرسة العبيد المحررين ويبدين إعجابهن بها وبالفتيات الأفريقيات اللائي جيء بهن بعد افتتاح المدرسة وانتشار أخبارها بين حملات التبشير على طول الساحل الشرقي لأفريقيا، وفي شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي. اشتهت الغناء بصوت عذب مثل الصوت الذي تغني به مزنه زوجة حارب لتخفف عن نفسها غياباته الطويلة وهي في كامل زينتها، تعتني بجسدها ليكون دائماً نضراً، تمرن حنجرتها على أجمل الكلمات والألحان الشعبية. لكنها ظلت كما هي منذ أن عاشت في مسقط. مرتبكة بين اسمين، وهويتين، وامرأتين تكونهما معاً. لا تبلغ معنى جمالها ولا تدرك عذوبة صوتها، فظلت مقيمة في الارتباك!

باحت ماريا بذنب عظيم اقترفته لأول مرة في حياتها. ففي لحظة صفاء بثَّت للأب بيتر ما سبَّب لها غصة مستمرة؛ في تلك اللحظة لم تكن تفكر في أي شيء آخر سوى شعورها هي «موانتي» بالتقزز والرغبة اللحوحة في إخراج ما في جوفها دفعة واحدة. نفايات تراكمت داخل جسدها الطري والغض، وسيئة اقترفتها وهي ابنة ثمانية عشر ربيعاً حين رماها قدرها في رحلة قاسية. لم تكن تعتقد أن جسدها سيكون قادراً على تجاوزها كلها بعد خروجها من جزيرة بمبا مروراً بالسفينة المنكوبة، وأخيراً وصولها إلى هذه المدرسة المؤسسة لهم.

أَذْعَنَت طواعية مع الآخرين لأوامر الأب بيتر بأداء التراتيل وقراءة آيات معينة من الكتاب المقدس لطرد شياطين أحضروها معهم من زنجبار وتنجانيقا. وتعليمهم الأسماء ومحاولاتها الدؤوبة لنسيان اسمها الأصلي «موانتي» وحفظ الاسم الجديد «ماريا» قبل خلودها للنوم. استذكرت ألف مرة على امتداد أكثر من عشر سنوات مرت على تأقلمها مع حياتها الجديدة دون أن تنسى اسم الأمس وتنتصر لاسم جاء وليد حالة من حالات الصفاء الديني أو كما يطلق عليها خطاب الوحي. عندما جمعهم وقال لهم قوله الشهير الذي أربكهم ورمى في رؤوسهم فكرة الحرية الدينية دون أن يعي ذلك: سأغير أسماءكم.

درَّبتها مزنه على الاعتناء بجسدها، وكيفية إزالة الزغب بعد كل دورة شهرية. تختلي بها مع إيزابيل في غرفتها الخاصة بعد مضي زوجها حارب في جولات مع الأب بيتر لبيع الأناجيل والتبشير بالمسيحية أو قضاء حوائج المدرسة. وتفاجأت ماريا وهي ترى هذه المرأة العمانية تغتسل وتؤدي فروضها كمسلمة من زوج آمن بالمسيحية كدين للخلاص. ولم تتحدث معها مزنه في أي يوم حول مسائل تتعلق باختلاف الأديان. بل أحبت أن تمارس دورها كامرأة

مستعدة دوماً لاستقبال زوجها بأليق ما يمكن. إلا أن هذا الزوج دخل في مشاحنة طويلة مع نفسه، ولم تستطع مزنه ولا الأب بيتر معرفة أسبابه.

تعرفت مزنه على ماريا وإيزابيل منذ لحظة إنقاذهما والشروع في بناء المدرسة. وتعودت أن تحكي لهما حكايات الجن والساحرات وعلاقة الرجل بالمرأة والزواج والمتاع بتلميحات غير مباشرة. وحين بلغت إيزابيل حدثتهما عن الدورة الشهرية وطرائق الاعتناء بجسديهما. وصحبتهما إلى منابع الأفلاج المخصصة للنساء، يحملن ليف النخيل والقليل من الصابون ويفركن أجسادهن. وبالغت إيزابيل في فرك كعبها علَّ سواده يبيَضُّ قليلاً. وكلما عُدْنَ يتلقفهما ناثان بأسئلته المليئة بالفضول. شاب يافع تتفجر من عينيه الرغبة أمام رفض ماريا الإجابة عن أسئلته. ولم تتحرج إيزابيل وهي تَعْبر الخط الفاصل بين الطفولة والأنوثة ببهجة المكتشف، في الإجابة عن أسئلته، بل تبالغ في سرد ما فعلن في الأفلاج، وتكتم متعتها في مشاهدة قيامة الشهوة في عينيه وجسده.

يستدرجها ناثان ويطلب منها بإذلال أن يرى ما تخفيه تحت سروالها الأبيض وحين تستجيب له يصابان معاً بالحُمَّى. يتجرأ أحياناً في مد يده إلى صدرها مثيراً تلك الرغبة النامية داخلها، وهي مترددة في ترك طفولتها خلفها والقفز إلى مرحلة الأنوثة وفيضها. وصادف أن وقعت عليهما ماريا ذات صباح وهو يستدرجها ويهمُّ بالدخول بها. اندفعت نحوه وسحبته من فوقها، وكان هائجاً فدفعها بقوة، ولكنها استجمعت قوتها لمجابهته وجهاً لوجه. أمسكت خنجراً وهددت بقطع عضوه إن لم يتوقف عن جنونه الذي سيدنس المدرسة ويُضيِّع عليها وعلى بقية الإخوة هذا العيش الكريم الذي لم يكونوا ليحلموا به؛ استجاب لها. ورأت ارتخاء رغبته فأرخت قبضتها وتركته. لبس سرواله بسرعة، نحبت إيزابيل وخافت من افتضاح أمرها، فطمأنتها ماريا. وبحث ناثان عن مخرج يداري به رجسه، وعن قصة لتغطية إثمه، وضمانة للإبقاء على سرية السقطة بعيداً عن الأب بيتر وبقية الإخوة. فلم يجد غير حكاية جيكوب، فقال لها مرتبكاً:

سأخبرك عن جيكوب؟

وماذا عنه؟

سيتحول إلى الإسلام.

وما شأني بذلك؟

بل شأننا كلنا.

وحدثها عن لعنة الضوء الأحمر وتردد الرُّبّان عبد الله التوانقي عليهم بسبب إخفاء جيكوب للسرّ، وهو يحمله معه منذ شحنهم للبيع كرقيق في زنجبار، وهو يعرف مخبأه. كنت أعلم بذلك. قالتها بثقة، وهي تهزهز الخنجر الذي في يدها. وذكرتها حيلة ناثان البائسة بلحظة دخول نزنجي عليهم للمرة الأولى بعد خروجه من المستشفى باحثاً عما يخفيه جيكوب، وكيف جبنوا واختفوا بعيداً عنه وبقيت هي واقفة بجرأة في وجهه، ثم توسطت الحديث بينه وبين الأب بيتر. زاد ارتباك ناثان وهو يرى فتاة جريئة وقوية، وعزم على مصارحتها بما سمعه من إخوته:

أنت تستلطفين نزنجي أليس كذلك؟

لا، ولا تتحدث عن مشاعر تخصني وحدي.

ساروا باتجاه البئر الآسنة، والمدرسة خالية إلا من مزنه التي تطهو وجبة العشاء. وقفوا ثلاثتهم حول البئر المخصصة لسقاية الحمير، قبل تحويل الإسطبل إلى مدرسة تؤويهم. طلب ناثان منهما وبحذر إلقاء نظرة عميقة داخل البئر. أطلت إيزابيل برأسها، وظلت تحدق هناك دون أن ترى شيئاً. في حين اقتربت منه ماريا وقالت بثقة وبهمس كي لا تسمعهم مزنه وقد وقفت تراقبهم من زاوية المطبخ وهي تسحب الخبز من التنور:

هو الضوء الأحمر الذي يرى في منتصف كل شهر قمري؟

وكيف عرفت ذلك؟

التزمت ماريا الصمت، في حين ظلت إيزابيل جاهلة بما يتحدثان عنه. ما حدث في ذلك النهار أمسى سرّاً بين هؤلاء الثلاثة، رغم أن ماريا أدركت أن ما يجمعها بنزنجي ليس مجرد استلطاف طالما لاحظ ذلك ناثان وبقية الإخوة. رامت أن تكون جميلة مثل الإنجليزيات والأمريكيات الجميلات اللواتي كن يزرن المدرسة لرؤية عظمة الرب وهو يرسل محبته لهؤلاء السود الذين حملهم بلطفه إلى برّ الأمان من فم الموت الأكيد. وودَّت الغناء بصوت عذب مثل صوت مزنه. لكنها ظلت مرتبكة بين اسمين، هويتين، امرأتين، تكونهما معاً. ماريا الجالسة كل مساء في صلوات لا تنتهي إلا بطلب المغفرة والغفران، وموانتي التي وقعت في الفاحشة مع ذلك المسن الكفيف الفاقد للشم.

رافقت موانتي ذكريات كثيرة عاشتها قبل أن تغادر بمبا. ومنها كيف ظلت جالسة لثلاثة أيام في كوخ صغير تنتظر الأمر من رئيس القبيلة بتشييع والدها، والذي لا يتم إلا بتقدم أحد رجالات القرية ووضع ملحة صغيرة في فم الرجل الميت معلناً بذلك رغبته في الزواج من أرملته.

في اليوم الثالث كان الجوع قد أصابها هي وأمها مصاباً كبيراً. طرق باب الكوخ رجل عجوز ثلاثاً، فوقفتا عند قدم والدها المُمَدَّد على حصيرة. دخل الرجل وتأمل الميت الذي بدأت جثته تتحلل وتصدر رائحة عطن. تأملها هي وأمها ثم أخرج كرة الملح ووضعها في فم والدها وخرج بوقار تتبعه هي وأمها. وجاء رجال القرية وحملوا الجثة مسرعين. سارت موانتي وراء أمها الواجب عليها الآن أن تتبع هذا الرجل الذي كفلهما بحسب الأعراف القبلية، دون أن تدرك أن صنة والدها دفعت برئيس القرية لتدبير ذلك الزواج. توسدت العراء في تلك الليلة، وتفاجأت بدعوة أمها لها بالدخول للكوخ بدلاً منها. رفضت موانتي طلبها لمنافاته التقاليد. تكرر ذلك في عدّة ليال. ولم تحتمل، فشدت رحالها من بمبا إلى ستون تاون. وعرفت في رحلتها تلك أن عليها إنجاز مهمة بائسة، وأن حياتها ستنتهي بانتهاء هذه المهمة. وعلى النسر الأسود إغراء الذكر والبدء بجمع حطام العيدان في ثقوب الجروف الصخرية أو على أعلى الأشجار بعيداً عن مسقط. وكي يتحقق ذلك عليها الآن أن تكون الأجمل شكلاً والأعذب صوتاً وهي تتخطى العامين بعد الثلاثين، تراقب ظهور زغب ريشها الذي أخفته طوال السنوات الماضية بينما كان نزنجي، سيد الطيور، يستنهض غموضها بصفير مميز لا تسمعه إلا هي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

كان أمام البروفيسور ماثيو ثلاثة أيام قبل اتخاذ قرار بوجهته المقبلة. هل يتوقف عن الترحال ويجعل من أيامه القادمة لحظة نقاوة تحت جناح طائره الأليف والحنون، ويترك مسقط متجهاً إلى زنجبار بصحبة رفقة لم يكن يتخيلها أو يتوقعها، أم يستمر في ترحاله العلمي في أصقاع الأرض مواصلاً كشوفاته وإنجاز بحوثه ومصنفاته؟ وقبل حسم أمره أمضى النهار في صحن مدرسة أولاد العبيد المحررين، يتحدث مع هؤلاء الزنوج، ويمازح مزنه ببعض الكلمات السواحلية والعربية التي تعلمها في ارتحالاته بين أفريقيا وشبه الجزيرة العربية. ويستعرض لها صوراً التقطها للكعبة انتحل أنه مسلم لأجلها. وفي الأثناء يردد الببغاء الأفريقي الذي أنقذه قبل أربعة عشر عاماً صلاة الشكر قبل أن يبدأوا بتناول وجبتهم المتميزة بنكهتها العمانية الممزوجة بالتوابل الهندية. وذهب الأب بيتر للحصول على قيلولته المعتادة، بينما تابع ماثيو هؤلاء الرجال والنساء والأطفال الجدد الذين كان يؤتى بهم إلى المدرسة بين وقت وآخر. يجلس على المقعد الخشبي ويشرب الشاي ويتحدث معهم في كل شيء. وتراقب عيناه إيزابيل وهي تنتظر بفارغ الصبر أن يطلب أي شيء منها لتلبّيه قبل أي شخص آخر.

قبل ثلاثة أيام: تأمل جيكوب صوراً للكعبة والحجاج بملابسهم البيضاء. واطلع ناثان على صور لليفربول ولندن فيها فتيات شقراوات وجسور تعبر من تحتها السفن والبواخر الكبيرة. وجَّه جيكوب سؤالاً لحارب حول شروط وأركان الحج مما أثار حفيظة حارب المسيحي فغافل قرينه وقال بجلافة: هذا من دين إبراهيم وليس له علاقة بدين محمد. عندها استيقظ القرين ودفع حارب بقوة نحو الجدار، وأمسك برقبته وشدَّ عليها محاولاً خنق نفسه. دهش ماثيو ومن معه من ذلك كانوا يستمعون لصوتين مختلفين يصدران من حارب، الأول ينتصر للكنيسة والآخر للمسجد ضائقة عظيمة شلَّت جميع الموجودين عن فعل شيء لإنقاذ حارب؛ هرعت مزنه من غرفتها بعد استنجاد ماريا بها لتهدئة حارب المسيحي وتطيِّب خاطر حارب المسلم حتى اختفى صوته وبدأ يزبد وينتفض على الأرض إلى أن ركد جسده. التفتت مزنه تطلب المساعدة فهبَّ نحوها نزنجي وجيكوب وحملاه إلى غرفته. سار ماثيو نحوهم يحمل على ظهره سؤالاً يريد أن يجد إجابة علمية ومنطقية عليه. سأل جيكوب فلم يجبه بشكل وافٍ؛ لأنه لا يعلم بالفعل ما حدث لحارب إلا أنه كان مسلماً ودخل المسيحية، وأن هذا مجرد نداء الماضي له كما رجّح. في هذه الأثناء أعلنت مزنه وبجرأة للجميع أن قرين حارب مازال مسلماً ورافضاً للمسيحية. حاول ماثيو أن يفهم معنى القرين بصفته consort المرافق والمتصل بجسد كل فرد، وهل يرجع السبب إلى حالة نفسية يمرُّ بها زوجها. نفت مزنه ذلك وألقت

في عقله شيئاَ يشبه الجنون. استدل أنها تقصد بالقرين companion بالمفهوم الديني عند المسلمين. تَبَدَّى حارب بالنسبة لماثيو مثل غراب يدفع بنفسه نحو الموت لسبب غامض لم يتمكن من فهمه! وعليه الآن فتح نافذة جديدة في عقله لاستيعاب الأمراض النفسية للطيور! عاد إلى سجلاته ودفاتره لإعادة قراءة سلوك الكثير من الطيور فلم يتوصل إلى نتيجة. وأيقن أن حالة حارب تشبه انفصام الشخصية وتعذيب النفس حتى الموت. حالة تشبه رقصة الموت عند الغراب.

نسي ماثيو إيزابيل، ولكنها لم تغفل عنه. رأت في عينيه غُمُوضاً، وحاولت قدر استطاعتها تغيير مزاجه. ظل سارحاً بفكره حتى حلول الليل، وفي يده مفكرة يسجل فيها ما يخطر على باله للإحاطة بمرض حارب. يقارن ويستذكر ويكتب حتى اطمأن على حالته لما رآه يؤدي الصلاة في الكنيسة مع الأب بيتر وفتيان المدرسة. في تلك الليلة شرب أكثر من كأس من الويسكي الأيرلندي، ونام. استيقظ عند منتصف الليل من كابوس بدأ يباغته منذ أن التقط الصورة الجماعية لخريجي المدرسة، شاهد رجلاً بربرياً يمتطي طائراً يشبه النعامة ينهش لحوم الناس ويحملهم مثخنين إلى موضع في البحر ثم يأكلهم أحياء فرداً فرداً. وفي لحظة قطع رأس إيزابيل؛ ينهض من نومه، يتنفس بصعوبة حتى يتيقن أنه مجرد حلم. يخرج من غرفته، يفتح شباك نافذته المطلة على ساحل مسقط، فيرى المراكب تتراقص على سطح الماء في دعة. يعود إلى الداخل ويصب له كأساً من الويسكي ويتذكر كابوسه من جديد. تلازمه صور الحلم الذي يتكرر ويعيد ترتيب نفسه بشكل مُلحّ يقضُّ مضجعه حتى بعد استيقاظه. ويبدأ في استرجاع تفاصيله، يرتبه كما يرتب صوره إلى مطلع الفجر، ويعود للنوم.

قبل يومين: جلس كالعادة على الكرسي الخشبي في ساحة المدرسة ولم يذهب الأب بيتر لقيلولته اليومية المعتادة. تقدم نزنجي وهمس في أذن الرُّبّان عبد الله التوانقي، فما كان منه إلا أن قال له: خذني إلى الأب بيتر. أمسكه من يده وسار به حيث الأب بيتر. وإستيفان يجلس قربه. نهض هذا الشاب الذي ينتظر صَكّ حريته من القنصلية البريطانية، لحوحاً بطلب الحصول عليه، مع وعد من الأب بالحصول على الصَّكّ بعد يومين. جلس الرُّبّان قرب الأب بيتر فساد الصمت بين الجميع، كانوا يتوقعون سؤال الرُّبّان المتكرر حول الحجر المقدس، إلا أنه قال بصوت سمعه الجميع عدا مزنه وحارب اللذين كانا في دارهما. لقد عرفتم نزنجي، هو ابني الذي لم ينبثق من صلبي، نما على ظهر السفن ولم يتزوج، ولم يفكر في الزواج حتى قابل ابنة المدرسة ماريا! أحاق الصمت بالمكان وفهم جميع الموجودين نوايا الرُّبّان عبد الله وابتسامة نزنجي الكاشفة عن رغبة في خوض تجربة عاطفية بعد هذا الحديث. تبادل الجميع الابتسامة المستلطفة والسعيدة لهذا الطلب. وفي

الأثناء أوفد ماثيو نظرات عميقة وفيها رسائل كثيرة نحو إيزابيل. حدّق الأب بيتر نحو ماريا فنهضت مبتعدة عن التجمع وهي تشعر بالخجل. وقفت عند باب غرفة الفتيات تسمع ردّ الأب بيتر الذي قال: إنه لمن دواعي سرورنا أن تكون هذه المدرسة مصدراً للفرح والغبطة، إلا أن موافقة صاحبة الشأن مطلب رئيس. والتفت الأب بيتر نحو ماريا يبحث عنها، وقال لها بصوت سامق: ما قولك في ذلك يا ابنتي؟ تمكن منها الخجل فدخلت الغرفة دون أن تعلن موافقتها. ولكن جميع الموجودين كانوا قد لاحظوا هذه العلاقة الصامتة بين نزنجي البحار الذي شجَّ بطن ثعبان التهم أخاه، وكبر في حضن سفينة تجارية، وهذه الفتاة التي جاءت من بمبا وسلبت قلبه.

اختلى ماثيو بقية اليوم بإيزابيل يحدثها عن البومة الأفريقية ويصفها بطائر الحكمة، وشبه جيكوب بهذا الطائر، فقالت له:

ولكنه ينوي الرحيل إلى مكة والتحول إلى الإسلام.

الحكمة لا تحتاج إلى دين.

فكر ماثيو في هذه اللحظة في عمره وهو في بداية الأربعينات، أنه لم يكن سوى طائر النحام الذي حلق وهاجر وعليه الآن أن يضع دفاتره وصوره على منضدة الكتابة لتسجيل أفكاره الشخصية وتدوين رحلاته العلمية بين البنادر والمرافئ والخلجان والبحار والمحيطات. استيقظ في منتصف الليل بسبب الكابوس نفسه الذي أصبح يداهم ليله منذ التقاطه الصورة الجماعية لخريجي المدرسة. رأى مسقط وهي تسقط، رمق في وجه ناثان حمامة بيضاء تستسلم لمصيرها وعقباناً تنقر رأسها حتى الموت! ورجل ما في صحن الكنيسة يسقي ربه خمراً.

وقبل يوم تمكن منه شعور بالنفور، وهزته رعدة الخوف وهو جالس قرب الأب بيتر. نهض من مكانه وتحرك في ساحة المدرسة ليخفف من حالة التوتر التي سبق أن أصيب بها قبل أربعة عشر عاماً وبالفظاظة ذاتها. رَبَتَ على كتف الرُّبّان عبد الله التوانقي فشعر بزَوَال هذا الرجل الكفيف. تركه واقترب من نزنجي وماريا الملتصقة به حدَّ الالتحام، فرأى أشجار القرنفل تفرد أغصانها وتنشر رائحتها العطرية في الأرجاء. جذبته الرائحة فظل واقفاً قربهما لشعوره بالراحة وانتفاء حالة الهلع عنه. وما إن ابتعد عنهما حتى عادت إليه، بل إنها زادت عندما اقترب من ناثان.

لمح طيف مزنه وهي تجري في سوق مسقط بحثاً عن زوجها حارب وقرينه، ولم تكن مسقط هي المدينة الساحلية كما عرفها وعشقها؛ غبار حالك ينتشر ويخفي التلال الجبلية الواقعة خلفها. دنت منه إيزابيل وقدمت له الشاي، شمَّ

رائحة القرنفل مرة ثانية، ارتاحت نفسه وهدأت، وشُغِلَ بالعلاقة العطرية المرتبطة بين إيزابيل وماريا ونزنجي.

ظل مستيقظاً في ذلك المساء، خوفاً من الكوابيس التي بدأت تكبر وتحتل حيزاً هائلاً في عقله وتفكيره. لبث جالساً يقرأ في دفاتره، ويدخن حشيشة أفيون حصل عليها من جنود يعملون في باخرة فرنسية رست قبل أيام في مسقط، ويشرب ما تبقى من الويسكي الأيرلندي. عندها جاءته رائحة القرنفل وأيقن أن جسده قد طلب النوم؛ فرمى بنفسه على السرير وقد ثقل رأسه تاركاً الشرفة مفتوحة للنسيم العليل الذي ينتشر مع ضوء الصباح ليوم ستتذكره مسقط. يوم سيغير مجرى حياته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

تهطل دَرَداب الطبول من عدّة جهات لا يمكن تحديد مصدرها بدقة. قطع الأب بيتر صَلاته، وسأل بصوتٍ مسموعٍ، مخاطباً أبناءه السود: هل تسمعون؟ لم يرد عليه أحد من أبنائه. كان الجو خريفياً مشبعاً برطوبة تنزل على جبال مسقط وتغطي رؤوسها الصغيرة. قمم تراقب السفن وهي تطرح مراسيها في هذا الخليج الصغير الذي تسد منافذه الجبال. أسوار المدينة مفتوحة للقادمين من مطرح وجبال الحجر الشرقي وصور. محلات السوق نشطة بالباعة والمشترين من كل الجنسيات ومنهم الفرنسيون والدنماركيون والإنجليز المغرمون بهذه الأسواق لشراء المصوغات الذهبية والحلي الفضية والمنسوجات والأزياء العمانية التقليدية. وعرب وهنود وبلوش كُثر يشترون البخور لطرد الأرواح الحزينة قبل تسنُّم السفن وعبور هذا المحيط الممتد من الهند إلى زنجبار.

اعتزل الأب بيتر في صحن الكنيسة يرتل صلواته. شعر بصوتٍ عَليل أو صوت ينشر العِلَل، كما كتب قبل أن تحل عليه اللعنة هو الآخر. وقد فضَّل أهله في زيلاند تشارتر بولاية ميشيغن أن تحفظ لعنته في سِرّيّة تامة بسبب غموضها المثير. هكذا خمنوا بعد دراسة ذلك التقرير الذي كتب بيتر حروفه المرتعشة بحبر هندي، في ليل طويل لم يرَ مثله مطلقاً.

أنصت جيكوب لدمدمة الطبول من مكان ما، جازماً بينه وبين نفسه أنه يعرف مصدرها، فهو أكثر شخص تآلف مع هذا الصوت. أصوات خبرها منذ انزلاق قدمه وهو في الغابة يسعى لتعميد رجولته قبل أن يختفي عن قبيلته ويجد نفسه في متاهة الطريق. هرش إستيفان رأسه، وسأل بثقة مفزعة: ستخرج الدابة؟ واعتقد مايك أن ما يسمعه هو وناثان مجرد صوت يصدره بطن جيكوب ليثير فيهما الأسى. ولكنهما في واقع الأمر لم يريا شيئاً مماثلاً لما حدث منذ أن كانا مقيدين في قبو السفينة. ووقفت ماريا، ذلك النسر اليقظ على طرف السطح، تراقب الأب بيتر وهو يستجمع قدرة الرسل الاثني عشر الذين حملوا رسالة الرب إلى العالم. تنظر بعينين يقظتين مدركة أن روحها انعتقت الآن من الماضي الذي سجنت فيه، وهي تحلق عالياً للنجاة مما هو قادم. هكذا جاءهم صوت قرع الطبول، قبل أن تحل على مسقط وعلى مدرسة العبيد المحررين نكبة؛ وقيل لعنة غيرت مسقط وأغارت على تاريخ المدينة، حتى أن شكلها تغير تماماً بعد زوال شمس ذلك اليوم. وستتناول ذلك عدّة كتب تحليلاً وشرحاً واستقصاءً. وسيكتب عنها علماء الجيولوجيا والفيزياء طويلاً وكثيراً.

خرج حارب في ذلك الصباح مع دفعة جديدة من الأطفال السود المذعورين الذين عثر عليهم قبل أسبوع في سفينة رُبّان عربي كان يهم بتهريبهم إلى الحجاز. اصطحبهم في جولة ترويحية أوصى بها الأب بيتر لتحسين مزاجهم. ولم يمهله الوقت هذه المرة في استغلال الجولة لترديد التراتيل وتحفيظها للأطفال. غصَّ حارب مع أول عزف لصوت الطبول. حاول بلع ريقه ومواصلة إنشاد التراتيل وتكرارها، ولكنه شعر بشيء يلجمه. انعقد لسانه فأصبح غير قادر على النطق. وأشار إلى أكبر الأطفال سناً للاعتناء بهم. واختفى خلف جبل صغير محاولاً العثور على ماء سائغ. جاءه الصوت من داخل بطنه: عُدْ إلى دينك يا حارب.

ذهب ناثان في ذلك النهار إلى المرفأ ليبدأ عمله كمُقيد للشحن في السفن الأوروبية التجارية. وجوه مقبلة نحوه ومدبرة عنه تلقي عليه التحية وهي مسرعة في طريقها اليومي. مرّ بخاطره وهو يعبر أزقة مسقط: أن هناك أمكنة أخرى لحياته غير هذه وعليه اكتشافها، وأن روحه تسبح في فضاء غير هذا الفضاء. وضع قدماً داخل مكتب تسجيل البضائع بينما بقية جسده في الخارج وإذا بهزيم رعد قوي. رفع يده لتحية ماريا وهي تفرد جناحيها وتصدر صفيراً مميزاً في سماء مسقط. لم يستغرب من ذلك. أرسلت إليه تنبيهاً وتحذيراً، ولكنه لم يكن يخمن ما سيحدث عند الأصيل، ولم يعره اهتماماً إلا بعد عودته إلى المدرسة.

قضى جيكوب ومايك الظهر في باحة المسجد القريب من المدرسة، يلقنهما الإمام الشهادتين، وطلب منهما إشهار دخولهما دين محمد في مكة. كان لسانهما ثقيلاً وهو يعيد ويكرر: «أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه»، وعندما عجز مايك عن لفظها بشكل صحيح قام بكتابتها باللغة الإنجليزية ليتمكن من مراجعتها كلما احتاج إلى ذلك. وجلس جيكوب في زاوية يردد ويعيد لفظها بشكل واضح وصحيح. بعد ذلك قام الإمام بتعليمهما كيفية اكْتِسَاء الإحرام لأداء مناسك العمرة بعد الانتهاء من إشهار إسلامهما؛ لذلك فإن أول شيء فعلاه هو إخفاء إحرامهما في حقيبة السفر كي لا يجرحا شعور الأب بيتر.

صحب الأب بيتر إستيفان في ذلك الصباح إلى مكتب القنصلية البريطانية لختم صَكّ حريته، ورسالة التوصية للعمل في مكتب شركة الهند الشرقية في مرفأ بومباي. وكلما وجد الأب في القنصلية وجوهاً إنجليزية غريبة لا يعرف أصحابها يبدأ بقص حكاية الوحي الإلهي وفكرة إنشاء مدرسة العبيد المحررين، وإستيفان بعمر الثامنة. ثم يسلمه دفة الحديث لتأكيد أنه والمجموعة كانوا محظوظين بالحصول على أسماء تليق بهم. فتبتهج الوجوه وتؤكد أن ما قام به الأب بيتر يعدُّ إنجازاً هاماً لهذه الكنيسة المباركة. أكملا

النهار كله وهما ينتقلان من مكتب إلى آخر، يشربان الشاي السيلاني ويأكلان قطعاً من البسكويت الهندي الذي يصدَّر إلى نساء بريطانيا اللواتي يتناولنه مع شاي العصر. صَكّ موظف إنجليزي بالختم الأحمر على ورقة صفراء تشهد على حرية هذا الشاب الأسود، ثم قدمها له مصطنعاً ابتسامة، وجملة تختصر الكثير: أنت حرٌّ الآن! انتظر إستيفان حرية ثقيلة يشق حملها. ولم يتخيل قط أن حريته تكمن في هذه الورقة. تفاجأ بخفة هذا الصَكّ وتلك التوصية بالعمل التي يمكن أن تنقله إلى بلاد الهند البعيدة. حرية خفيفة بوزن ورقة معجونة من نشارة الخشب. لم تكن باهظة الثمن ولا تستحق التعب المطلوب للحصول عليها. صُكُوك تنافس مشيئة الرب وتزعم أنها مِنْحَة حياة. خرجا من ذلك المبنى الإسمنتي الأبيض. رأى إستيفان غيماً غريباً يهرول في السماء فقال للأب بيتر: انظر يا سيدي، قمل يحلق!

انتهت ماريا وإيزابيل ومزنه من إعداد وجبة العشاء مبكراً: سمك ورقائق خبز ورز يضاف إليه لبن يقسّمه الأب بيتر على الجميع بالتساوي بعد الانتهاء من صلاة الشكر. انسحبت كل امرأة لعملها الخاص بها. واختفت مزنه في غرفتها ساهمة تقلب بين يديها وتتلمس قماشاً أبيض للحج، وتنتظر الفرصة المناسبة لطرح الموضوع على زوجها حارب، في محاولة نهائية منها لتحريره من هواجسه وهو أمام الكعبة. وجلست ماريا تمشط شعرها بعد إشباعه بزيت جوز الهند الذي أهداه إليها نزنجي استعداداً للزواج، وهي تشعر بطمأنينة داخلية لم تكن تشعر بها من قبل. أما إيزابيل المصابة بسخونة تفشت في جسدها، فهي تجاهد في إشفاء نفسها باستنشاق بخور عماني أشعلت الكثير منه بعد أن غطت رأسها بقماش مبلول بالماء. وخلدت للنوم، وفي نومها رأت ماثيو يبحر بعيداً عنها وهي تقف وحيدة على شاطئ مسقط تبكيه.

جميعهم عادوا قبل مغيب الشمس إلا حارب والأطفال الجدد. ولم تساور الأب بيتر الشكوك في الأمر. ورجح سبب ذلك لفرح الأطفال بسوق مسقط ورؤيتهم البضائع الكثيرة والغريبة. وقبل أن ينتهوا من تناول وجبة العشاء جاءت الطرقات قوية على باب المدرسة. وظهر لهم رجل اعتقد أنهم نسوه. اثنان فقط لم يغادر ذاكرتهما منذ ذلك اللقاء الذي لم يزد عن ليلة وجزء من نهار قبل أن يطير. هكذا تذكّره الصغير إستيفان. ولكن جيكوب تذكر شيئين تركهما معه، الأول كتاب المسلمين والآخر معرفته بالسِّرّ. دخل ثابت بن جارم عليهم مع سماع الأب بيتر لأصوات طبول تأتي من بعيد. سألهم: هل تسمعون الصوت؟ لم يردّ عليه أحد. تركهم وذهب لينام. تفاجأ إستيفان بحضور ثابت بن جارم بعد كل هذه السنوات. وقفوا جميعهم أمام باب المدرسة يحملقون لمعرفة مصدر الصوت الذي يسح عليهم، بينما الرجل يعرّف بنفسه: أنا ثابت بن جارم.

ورددوا جميعهم بصوت واحد:

نعرفك، ماذا تريد؟

أسأل عن أختي مزنه، هل هي موجودة؟

نسيت مسقط يومها الطويل. تضيع معالم المدن حين تتذكر لحظة الموت. تفنى المدن وتبعث من جديد. تغافلت، كيف مَرّ عليها ذلك الصباح العادي المكرر كأي مدينة ساحلية، ولكن ما إن تجاوزت العصر وسارت نحو الأصيل حتى شعر أهل مسقط أن هذا يوم عظيم فيه خُسْر. بدأ صوت الطبول يتحدر عليهم مثل الندى، ثم ازداد طشاً ورشاً. وكانت ريح عاتية لم يتوقعها أحد في هذا الموسم الخريفي من العام. ريح صرصر ضربت الجبال فتشظت حجراً في الجهات الأربع. كتب ماثيو، وذيّل ما سطره بأنه لم يرَ في حياته المليئة بالترحال والتنقل شيئاً شبيهاً بما رآه ذلك اليوم: «حجر بركاني تسبب في قتل الكثير من أهل مسقط ومن لم يقتله سبَّب له العمى أو أصابه بجروح غائرة. تراكض الناس يبحثون عن مخبأ من هذه الأحجار مختلفة الأحجام وهي تتطاير وتتساقط عليهم من كل صوب. فقدت القوارب الصغيرة توازنها على الشاطئ وتكسرت. تاهت السفن الكبيرة وأصبحت مسيَّرة تحت رحمة الريح والموج. نزحت إلى الشاطئ وبعضها الآخر ضاعت في المحيط».

وأضاف: «انخلع باب المدرسة بسبب التدافع البشري للباحثين عن مأوى قريب. تراكض الجميع داخل الغرف. هبَّ ناثان نحو الخارج عندما لمح طفلاً عارياً يقف في الساحة القريبة من المدرسة. صرخ فيه إستيفان وحاول استخدام ضلفة الباب التي انتزعت بسبب التدافع لتحميه من الحجارة المتناوحة عليه. أمسك ناثان بالضلفة وتقدم نحو الطفل الذي لم يصبه أي حجر. كان الخوف وغياب أهله عنه سبباً كافياً لبكائه الجارف. أمسك به ناثان وسار بصعوبة بالغة نحو مدخل المدرسة. سقطت على وجهه قطعة قماش حملتها الريح بقوة باغتت ناثان وغطت وجهه، وفقد على إثرها توازنه وسقط. انفلتت من قَبْضَته ضلفة الباب. أزاح القماش عن وجهه، فأصابته الحجارة في عينه بشكل دقيق. صرخ الأب بيتر وهو يرى ابنه بهذا الشكل عاجزاً عن فعل أي شيء لحمايته. كان أمامهم حين مُزّق جسده إلى شطرين منفصلين، ولم يتمكنوا من رؤية الدابة وهي تقضي عليه بسرعة فائقة».

وأكمل روايته: «دوي الصراخ والصياح ينتشر في أرجاء المدينة كافة، بل ربما أصوات عويل المدينة نفسها. والمسلمون يصرخون طالبين الغفران والتوبة والنجاة واثقين أن تبدل حال السماء والأرض هو يوم الدينونة المذكور في كتابهم المقدس. العديد منهم يصطفون في مجموعات ويصلّون ويستغفرون

ويتشهدون داخل المساجد وفي الساحات، وكان من بينهم من يطير، ومن تقذف به الريح، ومن تفلق رأسه الحجارة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لملمت مسقط ضحاياها. سافرت البرقيات بأسرع مما يمكن تخيله، منتشرة بين أمريكا والدول الأوروبية. كتبت الصحافة البريطانية عن الإعصار الغريب الذي دمر المدينة. توافد خبراء الأرصاد المتواجدون في المنطقة إلى مسقط المنكوبة في محاولة لفهم سرّ هذه الظاهرة الغريبة التي لم يروا أو يسمعوا عنها من قبل. وحده الرُّبّان عبد الله بن حمود التوانقي يصرخ في مسقط الميتة قائلاً: إن ما حدث في ذلك الخريف من العام 1896م في المحيط الهندي هو بالضبط ما حصل في مدينته. وشاعت اللقاءات مع بعض الأوروبيين المتواجدين في هذا القوس الساحليّ.

نهض البروفيسور ماثيو ذلك اليوم وهو يشعر بصداع ثقيل لم تشفه الأدوية، حتى فاجأه صوت عاصف بعد العصر، صحبه تغيُّر وجه السماء وحلول الغيوم الداكنة في توقيت لا تظهر فيه عادة في سماء مسقط. استطاع التقاط بعض الصور من شرفة منزله لتطور ما أسماه بالعاصفة العابرة، قبل أن يحمل الكاميرا ويسير في مخاطرة مجنونة. حالفه الحظ في الوصول سالماً إلى مدرسة العبيد. وهناك شهد انفلات الحصى من الجبال الخلفية لمسقط، وهي تصيب من تصيب فتشج الرؤوس وتبقر البطون وتعمي العيون. شعر أن روحه قابلة الآن إلى الارتقاء لمن يملكها. وخاف كما لم يخف من قبل، وهتف باسم الرب في قلبه، وعلى لسانه. ضاعت فكرة العلم والدين وتمنى لو ظل في غرفته بعيداً عن هذه السماء الغاضبة، وذلك الصوت الطاحن، وتلك الدابة التي سمع أن هناك من رآها وشكّ كثيراً في أمرها. حاول أن يكتب عنها فيما بعد، ولكنه لم يجد أي صيغة علمية تسعفه لفهم ما رآه أو تخيل أنه رآه أو بناه في عقله من قص الشهود الذين ظنوا أنهم رأوا أو سمعوا، فتغاضى عن ذكرها.

بيعت تقاريره المعنونة بالعاصفة العابرة على صحف مثل الديلي ميل، والديلي تلغراف، وذا مانشستر غارديان. وصف فيها ما حدث لمسقط، من اشتعال السوق، وتفحم بعض المراكب الكبيرة والصغيرة، وانتشار الحرائق هنا وهناك نتيجة انفلات الحصى واحتكاكه بالأجسام. وأشار إلى كونها عاصفة مشبعة بزيت انهمر مثل مطر أسود رمت به من مناطق لم يتمكنوا من تحديدها، فأكمل مهمة إضرام النار في كل شيء قابل للاحتراق. وخفف هذا التفسير الكثير مما لم يفهمه ولم يجد له مبرراً علمياً سوى أن هذا المطر قابل للاشتعال. وتسابق مديرو تحرير هذه الصحف الإنجليزية في طلب المزيد من التقارير وتقديم أسعار مجزية. فيما عرضت عليه جهات علمية أخرى شراء ونشر ملاحظاته عن هذه الظاهرة الفريدة، واستجاب لمجلة ناشيونال جيوغرافيك في نشر رؤيته لهذا الحدث بشكل يتداخل فيه العلمي

بالتأويلي. وأرفق مع المقال صوراً كان يحتفظ بها لنفسه. وافقت المجلة على النشر بعد اقتناعهم بحججه العلمية التي لم تفسر كل شيء، بل ترك ماثيو بعض الأسئلة بلا إجابات قطعية، مفسحاً المجال لباحثين آخرين للتوسع في الإحاطة بالتفاصيل.

استفاقت مسقط على ملمة لم تختبرها من قبل. الرجال يشيعون موتاهم. المرفأ صار مقبرة كبيرة للسفن والقوارب. وجدوا أسماكاً ميتة فوق ذروة الجبال البعيدة عن البحر. كل حدود السوق اختفت: الباعة والبضائع والكثير من المتسوقين والدكاكين والمظلات والبيوت المبنية من سعف النخيل والخشب. ظلت مسقط عارية إلا من بعض القلاع والمباني المشيدة من الجير والجص الأبيض وأبراج المراقبة المنتصبة على سفوح الجبال المطلة على البحر.

رست البوارج البريطانية قريباً من الشاطئ بعد استلامها برقيات عاجلة تطلب منهم سرعة التوجه إلى مسقط وتقديم المساعدة وفهم الواقعة. في حين تواصلت الحكومات الأوروبية والأمريكية مع القنصلية البريطانية لتسجيل قيدٍ بالوفيات من الأوروبيين ورعايا الدول الأخرى. وشهدت الأرقام ازدياداً يوماً بعد يوم.

عمل ماثيو على لملمة الأحداث والانتقال بكاميرته من مكان إلى آخر، لالتقاط التفاصيل عبر عين تتسع خلف العدسة وهي تسعى للمعرفة والعلم. سمع استغاثة الرُّبّان عبد الله التوانقي، وتذكَّر شهادته حول السفينة. وقرر فيما بعد الكتابة عن الحدثين! وفي نهار اليوم الثالث ذهب مع جميع أبناء مدرسة العبيد المحررين إلى مقبرة المسيحيين لدفن ناثان. استمعوا إلى كلمات الأب بيتر حول شجاعة هذا الشاب الذي دخل عامه الرابع والعشرين، وعن التزامه الديني تجاه الكنيسة، وحبه للعمل على مراكب الإنجليز بشكل مجاني، ومساعدته في تعليم الأطفال العبيد الذين أنقذوا من سفن تتاجر بهم. وبعد أن أنهى خطابه الطويل عادوا جميعهم إلى المدرسة. وبدأت مزنه وماريا وإيزابيل تقديم بعض العصائر وماء جوز الهند. بينما غاب الأب داخل الكنيسة وسط صمت مطبق لفَّ الجميع.

وعلى نحو مفاجئ تقدم نزنجي نحو ماريا وقال للجميع: سوف نذهب إلى زنجبار لنعيش حياتنا الزوجية هناك. تبادل الجميع ابتسامة مشجعة، وباركوا هذا القرار؛ وأضاف نزنجي جملة وجَّهها إلى الرُّبّان عبد الله التوانقي: سوف نأخذك معنا يا أبا حمود. دنا منهم الرُّبّان عبد الله وباركهم بلمسة حنونة من يده وهو يردد: سأظل هنا، أبارك لكم أيامكم السعيدة دائماً، ثم سكت، وحلّ الصمت مجدداً، قبل أن يعود الرُّبّان بسؤاله:

ماذا ستفعل يا مايك؟

سأعمل في البواخر الإنجليزية، مثلما كان يفعل ناثان.

دفع هذا القرار جيكوب للسؤال مستغرباً بنبرة فيها خشونة:

وماذا عن إسلامك وذهابنا معاً إلى مكة؟

سأظل على ديني.

ولكن دينك ليس المسيحية.

إنه ما علمني إياه الأب بيتر.

في هذه اللحظة بدأ الببغاء الرمادي ذو الذيل الأحمر يبكي بصوت مرتفع مثل آدمي، ثم ردد باللغة السواحلية: لقد قتل ناثان، قتلته الدابة. بدا الأمر مفاجئاً لماثيو الذي عالج هذا الطائر. اقترب منه؛ تشقلب الطائر على الغصن مثل من يندب. فسأله ماثيو: ماذا تقول؟ فردَّ عليه بالسواحلية مجدداً: لقد قتل ناثان، قتلته الدابة. ولم تستطع إيزابيل أن تستر حزنها فبكت وهي تسمع الببغاء الذي افتقد من يعتني به ويعلمه الكلام. خرج نحيبها يكسر وحشة الصمت والتوتر الذي توزع في نفوس الجميع. شعر ماثيو وهو ينظر إليها بكثير من الحب والحاجة، إنها طائر الكَرَوان الصحراوي القاطن في قلبه. حاول الرُّبّان عبد الله التوانقي أن يخفف من بكائها فاقترح عليها: ارحلي معهم إلى زنجبار. قلبها مشحون. ولم تتوقف دموعها. بل سالت بغزارة مع نحيب أَلِيم. دنا منها ماثيو وحاول بتردد وخجل الإمساك بيدها. وتمنى أن يقول لها: ابكي على صدري، لكن اقترابه منها دفعها للارتماء في حضنه وتفريغ الحزن وإرسال إشارات الحب المصحوب بالألم. خرجت كلمات مبهمة من فمها، وهي تردد: كانت الطيور تأكل من رأسه!

لم يعجب مزنه احتضان ماثيو لإيزابيل فانتزعتها، وانصاعت بدورها خجلة من انكشاف أمرها العاطفي. ابتعدت عنه، ولكنها تركت غواية الريش وهي تنبت بين جانبي خصرها، شعر به ماثيو بيقين تام. إنها هي الكَرَوان الصحراوي اللون الذي ينقر قلبه. التَفَتَ نحو نزنجي وقال بلطف إنجليزي مبالغ فيه: هل تسمح لنا أن نرافقكما أنا وإيزابيل؟ ثم وجَّه كلامه ناحية الرُّبّان عبد الله التوانقي، وأعلن للجميع بصوت واضح ومباشر: أود الزواج بإيزابيل، إنْ قبلت بي زوجاً لها. ثم مال نحوها وقال: هل تقبلين بي زوجاً يا إيزابيل؟ حل الصمت من جديد، فيما ضحك الرُّبّان بصوت جهوري وهو يقول: ليأتِ الأب بيتر فهو صاحب الشأن. ثم وجَّه كلامه مباشرة ناحية إيزابيل وقال لها: ماذا تنتظرين يا إيزابيل، استدعي الأب بيتر لنسمع رأيه؟ أسرعت إيزابيل إلى الكنيسة بمشاعر متناقضة: في قلبها غبطة من طلب ماثيو، وفيه حزن مبرح على

موت ناثان. غابت لثوان ثم سمعوا صراخها. جرى الفتيان وماثيو وحارب ونزنجي الذين أدركوا حدوث أمر مريع، فيما ترك الرُّبّان عبد الله التوانقي يتخبط وهو يتحسس بيده الطريق، حتى قاده طفل صغير إلى حيث تكدس الجميع داخل الكنيسة.

كان الأب معلقاً كذبيحة تنزف دماً غزيراً أحمر قَانياً مثل نبيذ. وغطت إحدى الصحف الأمريكية خبر مصرع الأب بيتر لاحقاً بعنوان أَحَّاذ: هلك مثل من يسقي ربه خمراً. جاء حادث مصرع الأب بيتر مبهماً، وكأن مسقط لم تكن بحاجة إلى كل ما مرَّ بها من غموض مدمر، حتى تَضَاعَفَ ذلك بموت الأب. فجيعة هزت الإنجليز والأمريكان على امتداد المحيط الهندي. استقبلت مسقط من جديد بوارج رست بسرعة البرق. انضمت لها فرقاطة أمريكية كانت تجوب البحر المتوسط. نزل مئات من الضباط والجنود والمحققين البريطانيين والأمريكيين الذين قاموا باحتجاز المتواجدين في ذلك النهار في مدرسة العبيد المحررين.

ظل الجميع لأكثر من أسبوعين رهن الاحتجاز والتحقيق، حتى أطلق سراحهم. وكان البروفيسور ماثيو أول شخص أخلي سبيله، إلا أنه رفض الخروج إلا ومعه عموم من كان في المدرسة. شفعت مكانة البروفيسور العلمية لهم، فأفرج عنهم بعد تحقيقات استمرت أياماً طويلة، باستثناء حارب الذي سلمه الإنجليز لحراس السلطان، والذين أودعوه قلعة سان لوران المطلة على البحر لاعتقادهم بإصابته بلوثة في عقله.

تفرَّق الإخوة. ولم يجرؤ أحد من المبشرين الأمريكان على طرح موضوع إعادة فتح المدرسة. ووجد ماثيو نفسه مع إيزابيل برفقة نزنجي وماريا وقد ظهرت عليها عوارض الحمل وهم وسط المحيط، فوق باخرة بريطانية تقطع الطريق نحو زنجبار وتنجانيقا. وسافر جيكوب حيث يعشق قلبه إلى مكة. في حين توجه إستيفان للعمل في ميناء بومباي مسكوناً بحزن بالغ على فقد الأب بيتر الذي كان بحق والده الذي لم يعرف أحداً قبله. وقرر مايك العمل في البواخر البريطانية في مسقط حتى علم بوصية الأب بيتر، فرحب بتنفيذها. ونصَّت على قيام أحد أبناء المدرسة بأخذ صندوقه النحاسي الخاص مرفقاً معه رسالة معنونة إلى أخيه صموئيل زويمر في مستشفى ماسون التذكاري في البحرين، أو كما هو معروف هناك باسم مستشفى الإرسالية الأمريكية. أصر برغبة خالصة للقيام بهذه المهمة، وكأنها مهمته الأخيرة قبل الموت مبدياً حماسة في تقديم المساعدات للمبشرين الأمريكان هناك أو الذين يعبرون شبه الجزيرة العربية، قبل أن يُطرد ويهان وتُطعن كرامته وينسى ربه ليؤمن بالجاه ورنين المعدن المسكوك في بومباي والأستانة ولندن.

أما الرُّبّان عبد الله التوانقي فعاش وحيداً لمدة ثلاثة أشهر وسبعة أيام. يخرج كل يوم من منزله ويقضي وقته من بعد صلاة العصر إلى ما قبل الأصيل فوق كرسي خشبي قرب الشاطئ. ينصت لصوت السفن الإنجليزية ونداء الحيتان البعيدة، ويستعيد نطع الملح وهو يطفر من ماء البحر عندما تضرب موجة صدر سفينة عابرة، وتسقط على لسانه فيستطعمها ويعرف الطريق. ظل كذلك حتى ضاع في حلم عُهِد إليه فنسي تفاصيله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• باب النجاة:

وصلته برقية من والدته تخبره بموت أبيه. استدعى كل أبناء المدرسة، ووقف يرتجل موضوعاً في معنى الحياة والموت. ترقرقت عيناه بالدموع وهو يبوح بحنينه إلى ولاية ميشيغن الأمريكية، ثم أخبرهم بوفاة والده، وشعروا بالحزن، لكنه بدأ يرتل ترنيمة للأب والطبيب جون لانسينغ: «هناك أرضٌ مَنسيّة منذ زمن، هناك قومٌ مازالوا منبوذين، لكنّ الربَّ اصطفاهم للحق والرحمة من أجل حُبِّه لهم. أرقُّ من هفهفة النسيم في لياليهم، وأوفرُ من خيامِهم الشاردة، وأقوى من رمالِهم المَنيعة هو حُبُّه لهم. إلى المسلمين في عُقْرِ دارِهم، ومن أجلِ العبد النازفِ في قيدِه، إلى البَدويِّ الضارعِ في الصحراء، فلنَجْلِبْ حُبَّ الرَّبِّ لهم.»([11]) وما إن انتهى حتى أَجْهَشَ بالبكاء. خيَّم الصمت على كل أبناء المدرسة، ثم بدأ يتغنى بترنيمة من تأليفه، تتحدث عن المسيح الرب كونه باب النجاة وسط صحراء العرب:

«من الصحراء جاء إليكِ يا بلادَ العرب! هذه أمنيتكِ، مُخلّصُك ومليككِ.

إنه مَكْسوٌّ بالنار المقدَّسَة. تحت سماواتكِ المُزَيّنة بالنجوم يقف، ومنتصفُ الليل يَسمع صيحتَه.

إنه يُحبُّكِ. نعمْ، يُحبُّكِ بشغف. بحُبٍّ لا يمكن أن يموت. بحُبٍّ لا يمكن أن يموت رغم أن الشمسَ تَخْصَرُ والنجومُ تَذبُلُ وصفحاتُ كتابِ القيامة تَتجلّى»([12]).

ثم تحدث عن الباب الصحراوي السرّي الذي أتعب أتور وهو يبحث عنه عندما كان في العاشرة من عمره. الباب الذي كبر في مخيلة هذا الطفل وهو يشب بين جدران الكنيسة، وأصبح يقارن جهراً بين بياض الرب وسواد جلدهم. وأشاع: بأنه سيكون بلون المسيح حين يعبر باب النجاة. كتب عنه فيما بعد إستيفان في رحلته من سكك بومباي وصولاً إلى سقر.

وقف ماثيو حائراً: كيف مات الأب وعلقت جثته على عمود من خشب الآروا الأفريقي في منتصف هذه الكنيسة الصغيرة؟ مَرّ على موته أكثر من نصف ساعة تقريباً هي مدة غيابه عنا داخل الكنيسة حزناً على موت ناثان. هل كان هناك من ينتظره بالداخل لقتله؟ ومن قتله؟ وكيف علقت جثته في وضع مقلوب؟ ولماذا لم يسمع أحد منا أي صوت استغاثة أو اسْتِرْحام أو حتى مقاومة؟ هل انتحر؟ وأنَّى له النجاح في الانتحار بهذه الطريقة الغريبة؟

بعد ذلك بسنوات طويلة دشنت جامعة كولومبيا الدولية في ولاية كارولينا الجنوبية مركز زويمر للدراسات الإسلامية، وشكلت محتويات صندوق الأب

بيتر زويمر الذي حمله مايك إلى البحرين باكورة وثائق التبشير في شبه الجزيرة العربية التي يكشف عنها. وقد عدت رزم الأوراق والتقارير والمذكرات الموجودة في الصندوق فضلاً عن رسائل الأخوين زويمر والطبيب جيمس كانتين والطبيب بول هارسون ولانسينغ ونسائهم مصدراً لدراسات هامة للمستشرقين عن المنطقة لجهة: عاداتهم، وأمراضهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وعيوبهم، وطيبتهم، وغبائهم، وفطرتهم، وطرائق تعبد هم وإمكانية التأثير عليهم وتنصيرهم. والعديد من القصص، والحكايات، وجداول المصروفات، والتبرعات، والترانيم، والأيقونات. كل هذه الأوراق وضعت تحت رعاية خاصة لا يسمح بتصفحها إلا لمن يحصل على موافقات عديدة بما فيها موافقة شرطة ولاية كولومبيا.

• العقل والخرافة:

صعد البروفيسور ماثيو بصحبة زوجته الشابة إيزابيل برفقة البَحّار نزنجي الممباسي مع زوجته ماريا على سطح السفينة. ودّع مسقط وجبالها، وأدرك أن مهمته المقبلة هي تدوين المشروعات العلمية المؤجلة بسبب تنقلاته. وعليه الآن تدوين كل الأفكار المستندة إلى حقائق علمية، بجانب أفكار لا تخلو من الخرافات والأساطير.

تقدمت إيزابيل نحوه وألصقت كل جسدها وحواسها بزوجها الذي سيبدأ حياة مختلفة، هادئة، تساعده على تحقيق أمنياته القديمة في العودة للكتابة والتأليف حول الطيور والبحر والناس. وأن يسهر في الليالي القادمة وفي حضنه امرأة تبجله وتكاد تحوله إلى إله يستحق العبادة. لَمّها بيده وشَدّها نحوه بقوة وهو يشعر ببكائها وهي تودع المدينة. قبّلها على رأسها وقال لها برفقٍ: أحبك. ومع تلك الكلمة شعرت أن جسدها نغمة وحياتها موسيقى ستعزف له أجمل لحن وستربي معه أجمل الأبناء.

جاءت إليهما ماريا ووقفت قربهما تلوِّح لجيكوب ومايك وإستيفان الذي كان يقود الرُّبّان عبد الله التوانقي وهم يقفون على المرفأ في لحظة مفصلية من حياتهم جميعاً. وعلى كل شخص منهم بعد هذا الوداع قطف الفاكهة المشتهاة من شجرة الحياة المثمرة. صعد نزنجي فرحاً فوق سور السفينة ولوَّح بيديه الاثنتين وهو يوصي بالاعتناء بالرُّبّان عبد الله؛ والده الذي علمه أن الحياة هي البحر حتى اكتشف أن الحياة تكمن في تفاصيل جسد ماريا.

• الارتباك:

خرجت نواتي من حدود قريتها أوجيجي وهي في الثانية عشرة من العمر. وجهها جميل، ومسحت على جلدها عاصفة غبارية أضفت على بشرتها لوناً حنطياً مميزاً. انزلقت في دائرة جحيمها التي رمت بها في مدينة مسقط قبل

العودة إلى زنجبار. تحولت أوجيجي إلى مجرد قرية متخيلة عليها سرد تفاصيلها لأبناء ملونين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة ويتباهون بهويتهم البريطانية.

اقتادها رجال من قبائل شرقية يتحدثون السواحلية دون أن تودّع أمها. لم تقاوم ولم ترفض. سمعت من جدتها قبل وقوعها في أشراكهم عن أسواق للنساء يبعن ويشترين فيها من قبل رجال ذوي ألسُن مبلبلة. تعرفت على أطفال ذكور وإناث أُسروا من مناطق قريبة من قريتها في ليلة سرق القمر الأزرق الأطفال الذين يموتون في الغابات، فلا ترتفع أرواحهم إلى السماء بل تمضي بهم نحو أقرب نهر أو مصب، وتغوص في الماء فتختفي الأسماء وينسى الأهالي أطفالهم. صاحبت صبياً لم يتجاوز العاشرة كثير البكاء ويدعى كنجي، وفتاة في عمرها نحيلة وعليلة وتدعى نورو. وكانوا جميعهم مكبلين في كواحلهم بحبال من اللِّيف، وتمثلت مهمتهم في حمل العاج وأغصان شجر السندروس الذي يستخرج منه صمغ اللبان. يسيرون عبر طرق وعرة، مخدرون برائحة المطر وهو يرافقهم مثل صديق حزين يصيبهم بالدُوار والدوخة، تضربهم فيترنحون تحت شمس حارة ورطوبة عالية.

سقطت نورو في اليوم الثالث غير قادرة على السير وحمل العاج أو خشب السندروس. وقف شاب عربي يضع خنجراً معقوفاً تحت حزام يلفّهُ حول خاصرته. وبعد أن كشف عليها وجد أنها فتاة رقيقة البنية لم ينتشر اللحم أو العضل في جسدها، ولا تصلح لغير الصلاة ورعاية ماعز أهلها. قرر تركها وانتظر حلول الليل وانحدار القمر الأزرق لانتشال روحها من أقرب نهر أو مصب للماء فترسب هي واسمها. توسلت إليه نواتي وأبدت له استعدادها بمراعاتها حتى تكون قادرة على العودة إلى قريتها. وافق على إنزال ناب فيل أثقل منها وطلب من نواتي حملها ليستطيع البغل حمل هذه الفتاة المعرضة للكسر في أي لحظة. ارتضت نواتي وتشجع كنجي بحمل العاج الإضافي رغم ثقل الطريق.

ومع حلول اليوم الخامس بدأت نورو تتحسن. ولاحظ الجميع ذلك. أخذت تنشد بصوت عذب سلبت عقل هذا الشاب العربي فراح يقدم لها حليب المواشي الذي يشترونه في الطريق من سكان القرى الصغيرة المتناثرة. وازداد الأمر غرابة وهم يرونه يأخذها لتنام معه. يستيقظ عند الرابعة والنصف فجراً أكثر نشاطاً وحيوية بينما التعب يحفر في عظام نواتي وكنجي.

طلب منه كنجي أن يخفف أثقالهم طالما نورو قد تحسنت صحتها وأصبحت قادرة على حمل العاج أو خشب السندروس لكنه أبى. أصبحت نورو مثل أميرة يحملها بغل منهك، ويسير خلفها أطفال بثياب مهلهلة يحملون حكايات سوف يتعلمون تداولها بحذاقة من اللحظة التي انقضَّ فيها كنجي على الشاب

العربي لخنقه. ولم يتردد الشاب العربي في سحب خنجره المعقوف ومزق به ذراع كنجي. ثم قيده وباعه بالجملة مع نواتي وكل حمولته عند أقرب محطة تبادل لمجموعة أخرى تقود قافلة أكبر.

اختفى الشاب العربي مع نورو وتطايرت أخبارهما حتى ضربت النوافذ الخشبية في بيوت مبنية من الطوب ومصبوغة بدهان أبيض في ستون تاون. أدركت نواتي أن فألها الحسن لم يكن في تميز لون عينيها الخضراوين ولا في بشرتها الحنطية بل في معرفة كنجي الذي رغم صغر سنه فإنه سيكون لها مثل الأخ الذي لم يختطفه القمر الأزرق بل أرسلته شمس مسقط الحارة ليرعاها ويربي معها الأمل في معرفة الحياة والتضحية بالنفس من أجل إنقاذ طفل في يوم جددت فيه مسقط تربتها.

بعد إنجاب ابنها الثاني، طلبت من ماثيو أن تسميه ناثان ثم وقعت في بحر الحيرة والارتباك، فذلك الصبي الذي رافقها منذ اختطافهما في قرية من تنجانيقا كان يدعى كنجي حتى جاء الأب بيتر وأطلق عليه اسم ناثان. صبي ولد باسم ومات باسم آخر؛ بكت تلك الليلة كما بكت بعد دفنه.

• Consort/Companion:

رجع الأطفال السود وحيدين في ذلك اليوم الذي كشفت فيه مسقط عن قرينها. سألهم الأب بيتر عن حارب، ولم يعرف أي واحد فيهم مصيره. بعضهم قال إنه اختفى خلف الجبل. والبعض الآخر أكدوا أن الجبل ابتلعه. وذهبت الرواية الثالثة إلى ترجيح طيرانه بفعل العاصفة لخفة وزنه.

لم يستطع أحد الخروج للبحث عنه. كانت أوامر الأب بيتر بعد فجيعة ناثان صارمة بعدم خروج أي شخص من المدرسة حتى يهدأ كل شيء ويستتب. زوجته مزنه لم تمتثل لتكليفه. خرجت في ذروة الهيجان الذي لم يُعرف أين بلغ مداه لحظة أن طوت مسقط نفسها، ثم تمددت في هدوء مثل من يريد النوم. حذرها ثابت قائلاً: سيحفظه قرينه لا تشغلي بالك عليه. خرج خلفها بعد أن أصرت على البحث عنه، ولكن خطورة الوضع أجبرتهما على العودة بعد أقل من ساعة. وظلت تبكيه الليل كله.

عند الفجر، عاد حارب إلى المدرسة بعد غياب يوم كامل عاري الجسد مثلما ولدته أمه، ملطخاً بسُخام الفحم. أشفقت عليه وأخذته بيديها وحضنته كي تخفي عورته عن أبناء المدرسة. لم ينطق ولم يقل شيئاً. أجلسته تحت البئر العكرة. جلب لها إستيفان ومايك المياه من أفلاج غيرت طريق نزولها من الجبال. جلست وبدأت تفرك جسده مستخدمة صابون الأب بيتر الذي قدمه لها عن طيب خاطر. استخدمت الليف لإزالة كل السُّخام من على صدره

وظهره ووجهه. ولم يفوّت ماثيو فرصة التقاط صورة لهما، نشرتها لاحقاً «ناشيونال جيوغرافيك» على صدر غلافها.

انشغل الأب بيتر بإعداد جنازة تليق بناثان. وتَوَلَّى نزنجي رعاية الرُّبّان عبد الله التوانقي وإعادة ترميم منزله. وتعاونت ماريا وإيزابيل على تقديم العشاء للأطفال وأخذهم للنوم. واختفت مزنه مع زوجها في غرفتهما. جلس أطفال الأمس القلقون من زيارة ثابت بن جارم الغريبة، بعد اختفائه أربعة عشر عاماً ليعترف لهم أن من كان يبحث عنها كانت معهم وكانت ترعاهم. سأله ماثيو عن موضوع القرين وهل قرينه هو consort الذي يكون مثل الزوجة أو هو Companion الذي يشبه المرافق؟ فقال ثابت: هو مرافق مثل ظلك. هو الشيطان وهو الملاك. فهم ماثيو الشقّ الأول من الجواب وضاع في فهم الشقّ الثاني منه. استفسر عن ذلك وكان إستيفان وجيكوب يتابعان ما يقوله هذا الرجل المعضل الذي طار دون أن يفصح عن علاقته بمزنه. أحسَّ باهتمام الجميع فأردف: في الإسلام نحن لدينا قرينان، واحد من الجن والثاني من الملائكة. وحارب مصاب بقرين من الملائكة يحاول ثنيه عن التنصر. ثم نهض واستأذن من ماثيو وأطفال الأمس لرغبته في النوم؛ لأنه سيغادر صبيحة الغد إلى مطرح، ثم التفت إلى جيكوب: الأمانة في قلبك يا ولدي. دخل غرفتهم ليبيت فيها، وذهب خلفه إستيفان وجيكوب ومايك، وتركوا ماثيو وحيداً في عالم غامض ومثير فتذكَّر الغراب الذي يشبه حارب!

• أنت حُرّ:

قضى إستيفان حياته وهو يحمل صَكّ الحرية معه، يقدمه مع بقية أوراقه كلما دعت الحاجة وعند سؤال أصحاب الأعمال له: هل أنت حر؟ يسترسل حينها في حكاية طويلة لا تنتهي إلا بعرض صَكّ الحرية. على الجانب الآخر، لم يطلب مايك صَكّ الحرية ولم يسع إليه. كان ينوي الذهاب إلى مكة مع جيكوب ليقف حرّاً أمام رب المسلمين. ولكن الطامة التي واجهته دفعته إلى الإخلاص للأب بيتر، وهو ما أزعج جيكوب كثيراً. وجد نفسه يحمل صندوقاً نحاسياً كبيراً معه رسالة مختومة بالشمع الأحمر كتب عليها: «إلى أخي صموئيل زويمر» ممهورة بتوقيع من الأب بيتر. سعد مايك بأداء هذه المهمة الكبيرة تقديراً وامتناناً للأب الذي احتواه ورباه وعلَّمه. وكانت سانحة السفر إلى البحرين لتسليم صموئيل الصندوق فرصة لاختبار الارتحال والابتعاد عن مسقط لفترة وجيزة. يقرر بعدها ما يريد بين الالتحاق بجيكوب أو العمل على السفن الإنجليزية وسط البحار أو البقاء والعمل على المرفأ والبحث عن زوجة وتأسيس عائلة حلم بها كثيراً.

وفيما هو يخطو خطوته الأولى على أرض البحرين متأملاً ضخامة المرفأ ومبنى الجمارك ودبيب أشكال كثيرة من البشر، وقف حائراً يسأل عن عنوان

المستشفى الذي يحمله معه. لم يسأله أحد إن كان عبد اً أو حرّاً. وأيقن وهو يركب عربة يجرها عَتّال بشكل سريع يعبر به سكك وطرق المنامة أن الحرية مرهونة بطنين المعدن المسكوك في الهند.

استقبله الأب والطبيب صموئيل زويمر. وكان لقاء دافئاً مليئاً بالحنو والحزن، تحوَّل عند مايك توقاً لاكتشاف ذاته عبر هذه الرحلة، وأن ما يقوم به سيسعد روح الأب بيتر. ابتهج صموئيل وهو يتعرف عن قرب على أحد أبناء أخيه الذي حكى له عنهم كثيراً، وعن لحظات الفرح والتعب والحزن والرضا وهو يسميهم ويراهم يشبون ويكبرون. عرَّفه صموئيل على زوجته إيمي وأخذه إلى بيت قريب من مستشفى الإرسالية الأمريكية أبهره كمبنى حديث بالغ النظافة مشيد من الحجر البحري والجَصّ. ويستقبل يومياً الكثير من أهالي البحرين الذين يأتون من كل المناطق بقبول وطواعية وإيمان تام في التطبب عند هؤلاء الأمريكان مقارنة بقطيعة أهل مسقط ومطرح.

مكث مايك شهرين كاملين في ضيافة الطبيب صموئيل قضاهما في جولات سياحية إلى الجزر البحرينية القريبة خاصة جزيرة سترة، وجزيرة المحرق المتميزة بشواطئها الجميلة، وفي العمل معهم في المستشفى ومساعدة الممرضة روث، فتوطدت علاقتهما وشعرت بميل عاطفي أخفته عنه في البداية رغم إحساسه به. فكر مايك في احتمالات هذا الحب الذي بدأ يشتعل في قلبه، ويعيد مراجعته بعقله حول إمكانية قبول آنسة بيضاء برجل أفريقي أسود سيق كعبد . قضى الليالي يحدق في السماء وهو ممدد فوق سرير خشبي فوق سطح المبنى المخصص لإيواء الأيتام والأطفال مجهولي الهوية. يقلب في هذه الأفكار والاحتمالات، ويركن إلى إيمانه بالرب كنقطة التقاء جوهرية بينه وبينها.

الشهران تحوَّلا إلى أحد عشر عاماً قضاها في البحرين مؤمناً بالرب، وكافراً به، حرّاً وعبد اً، يبحث عن ذاته وعن حبه. وبإصرار وعناد وتحد، أصبحت البحرين مسكناً ومعيشة وجاهاً له بعد شقاء!

• عهد:

وفَى الرُّبّان عبد الله بن حمود التوانقي بالعهد. بعد أن استيقظ على صوت أذان الفجر، وثب مسرعاً، وأمسك عصاه وعبر الطريق الذي حفظ خطواته شبراً شبراً إلى المسجد. صلى الفجر وعاد في عجلة من أمره، أنزل المِرفاعة، وأخرج طاسة فيها رزٌ وخبزٌ بائتٌ لفه بقطعة من إزار قديم، وحمل معه قِرْبَة فيها ماء ثم جلس بانتظار من يطرق الباب.

تعود به الذكريات الجامحة في خياله، وتتجسد في ثلاث صور لم يقصفها تقدمه في العمر.

الأولى: كان في السادسة عشرة من العمر. أخذه أبناء العم والأصدقاء صباحاَ فوق البغال إلى عين حارة عند بادئ السلسلة الجبلية. قضوا الصباح في الاستجمام. ووقف رجل يُلَيِّفه، بينما الإخوة والأصدقاء يرددون أناشيد تزيده حماساً في رؤية جنان اللّه على الأرض بعد صلاة العشاء. وبعد أن داس البيضة وكسرها على شاطئ البحر زُفّ إلى زوجته مرتدياً العمامة العمانية، واضعاً خنجره تحت حزامه، ماسكاً عصا من الخيزران على غناء الفرح. كانت ابنة عمه مريم في الخامسة عشرة من عمرها، سمراء بسمنة معتدلة، وتظهر على خدها غمازة كلما ابتسمت خجلاً. وبعد أن صلى ركعتي شكر كما أوصاه والده، قال لمريم: سأناديك بأم حمود. هزت رأسها موافقة فسمع الجيران صراخ مريم في الأسبوع الأول.

وكلما اكتشفت والدة عبد الله نزول الدم على زوجة ابنها أخذتها إلى المَرَّاخَة، تكشف عليها بالضغط على أسفل السرة وقرب منطقة العانة. تمرخ جَسَدَها بالكثير من الأدهان والطيب، وتخبرهم بأنها أعادت «بيت الضنا» إلى مكانه الطبيعي وعلى اللّه التوكل. جاء الشهر الثاني وتبعه الثالث، وكلما غسلت مريم شعرها تأخذها النساء إلى المَرَّاخَة فتقوم بما قامت به سابقاً مع زيادة في الأدعية والأحجبة. الفتاة مصابة بعين حاسدة. وكل فتيات مسقط يتمنين شاباً مثل عبد الله بن حمود التوانقي، رباناً أباً عن جد. يتفاخرون بكثرة الإنجاب والإبحار. ينثرون سلالاتهم في كل أرض يدوسونها من ماجان إلى غرب أفريقيا وشرق الهند وغوادر ولا يكتفون. أحضره أبوه حمود وقال له: ربما يَتَعَزَّز عليك رحمها، سنزوجك بأخرى فَيَلين.

وأخذه مرة أخرى إلى العين الحارة. ووقف رجل يُلَيِّفه والإخوة والأصدقاء يرددون خلف القارئ الذي استدعي لطرد صغار الجِنَّ المقيمين في رأسه والمتشبثين بخصيتيه فتكمأت عليه الأرض، وحجبت عنه تدفق سلالة الحيتان السارية في عروقهم. تزوج ابنة خالته طيبة، وفرحت أمه كثيراً. تهللوا بالأماني مع سماع بكائها وهو يستمر حتى نزل عليها الدم. هجست الخالة للأم: ربما كانت الدار مسكونة! أُخِذَ عبد الله وزوجته طيبة إلى البحر فجراً وزادت الأحجبة أسفل الفراش وتحت قدميهما وفي مدخل البيت، وعند عتبة الدار. ذُبحت ثعابين وطيور وعُلق السمك المملح على باب البيت، وطبخ الرز بالسكر ووُضع على الجبال. قرر حمود تزويجه اثنتين دفعة واحدة، وسأله دون خجل: هل تدل مواقع شقهن يا عبد الله؟ فلم يردّ عليه. فأعاد عليه السؤال غاضباً، حرك عبد الله رأسه وسأله: ما بك إذاً يا بني؟ وكن أربع نساء على ذمته، يدخل كل يوم على اثنتين واحدة قبل الغداء والثانية بعد العشاء حتى أخفقت كل الحيل. وبعد مرور عامين قال له حمود: غداً تدخل معي البحر، ربما ترأف بك الحيتان والدلافين. وكانت ليلة داجية، طاش معها خبر مقتل سلطان عمان الأول في العام 1866م.

أما الصورة الثانية التي لم تفارق ذاكرته رغم تقدمه في العمر، حدثت له في العام نفسه، عندما ركب سفينة والده وتدعى «القابلة». سفينة كبيرة يقودها والده حمود وحوله خمسة رَبابين وخمسة وعشرون بحاراً يعتمد عليهم في رحلاته الطويلة حيث يقطع المحيط من مسقط إلى زنجبار فيحمل عليها مسافرين أجانب من هولندا والدنمارك إضافة إلى الإنجليز والهنود والفرس. تشحن السفينة بالعبيد والعاج والقرنفل وخشب السندروس والفواكه الموسمية والحيوانات الغريبة والأحجار القديمة التي يهوى الأوروبيون اقتناءها وتهريبها.

رحلته الأولى متعبة ومرهقة وهو بعيد عن نسائه. داخ مع الموج وولج في عزلة ليفهم جسده وأسماء الرياح وضربة القمر وعبرات الشمس. ظل يرافق جواخ ويتعلم منه فك الخط وقراءة الخرائط، ودروب البحر، وحسبة اللؤلؤ والميزان، وأنواع القرنفل، وفراق البحر واستقباله كلما عبت السفينة دربها الواضح. فَرِحَ به والده، فرح به البَحَّارة والرَبابِنة. لم يميزه حمود عنهم بل تعامل معه مثل عامل أجير يبحث عن لقمته.

أما رحلته الثانية فقد انطلقت من مطرح إلى عدة مدن هندية. وفي وسط المحيط تكهن جواخ بما هو قادم. حذر سيده حمود. وتدافع الرَبابِنة لكبح جماح «القابلة». ولكن الأمواج المتغطرسة ارتفعت إلى أكثر من خمسين ذراعاً. وسقطت السفينة في دوامة أعاقت الخروج منها. صاح حمود بجواخ للاعتناء بعبد الله الذي حلف لأمه بعد ذلك أنه رأى ملك الموت واقفاً على دفة السفينة. وقاومت «القابلة» مثل فرس ذبيح مقاومة لم تمنع من تفكك ضلوعها وانخلاع مساميرها، وخسارة بحارتها في اللجة. فتح عينيه واكتشف نفسه وسط البحر وليس معه سوى جواخ وهما فوق قارب نجاة صغير. استطاع جواخ فك حباله بخبرة الآلهة وهو يردد: النار حافظة. وكلما دخل عبد الله في وداعة الموت أعاده جواخ بقوة إلى الحياة حتى وصلا جزيرة سومطرة. وعاش بعدها يعاني من مرض الصقيع الذي يصيب باطن قدميه وهو على متن السفينة.

تظل الصورة الثالثة حاضرة بقوة لا تفارق ذاكرته، وتؤلمه في خاصرته، كلما جاء على ذكرها. بعد هذه الحياة الطويلة وكنز المال وتخزين الثروة وتكثير الزوجات والإماء اللاتي رغم ترطيب جسده الخشن بجسدهن الترابي لم تنجح أي منهن في طرد الجِنَّ من رأسه أو بين بيضتيه وهو ينتظر ابناً يطلق عليه اسم حمود حتى تيقن أنه حوت ضائع النسل وبلا ذرية.

ظل جالساً في بيته وقربه طاسة الأكل الملفوفة بقطعة من إزاره وقِرْبَة فيها ماء. تعالى الطَرق على الباب. نهض بارتياح، ونظر حوله مثل بصير يودع منزله. سار خطوات حافي القدمين، وفتح الباب وكان جواخ ينتظره:

هل أنت جاهز؟

ومازلت عند وعدي، لماذا تأخرت عليّ؟

لم يجبه جواخ، أمسكه من يده وسارا معاً إلى شاطئ البحر. ركب عبد الله قارباً صغيراً، ودفعه جواخ حتى صار داخل البحر. جدف عبد الله بنفسه مبتعداً عن الشاطئ. وقف جواخ على الشاطئ يودعه. غاب القارب في البحر، وغدا نقطة صغيرة لم ينتبه لها أحد بالمرة. كان هذا آخر خبر عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

سَدَنَةُ الريح

- 1 -

كان الوقت فجراً والسفينة تعبر بحر العرب في أمن وسكينة حينما أخرجنا رئيس الحراس سيف أكبر من جوفها، ولم نكن نعي ما حدث. استيقظ المسافرون تباعاً، وهَمَّ بعضهم لأداء الصلاة، وبعضهم الآخر بدأ بأكل ما اقتصد من فتات وجبات سابقة ولم يتعدى ذلك كسرة خبز أو تمر. وانطلق العمال لإعادة ترتيب الفوضى التي خلفتها قوة أمواج الليل. الصناديق إلى مكانها. والبضائع المتناثرة إلى محلها. وأمضوا معظم النهار في ملاحقة واصطياد أفراخ الديوك البلوشية الصالحة للمبارزة بعد أن فتكت جرذان السفينة ببعضها. ورأينا جحشين يتريَّضان قرب المقدمة.

رفعت رأسي شاكراً اللّه على بقائي حياً قبل أن يتقدم سيف أكبر ويلقي قربي بمجرفة وخيش مع دَلْو مربوط بحبل. وقف قرب رُبَّان السفينة رمضان خان وأشار نحو الجانب الأيمن من السطح. وللوهلة الأولى لم نلحظ وجود شيء ما مغطى بأقمشة، وحوله قطع سوداء وحمراء وشعر آدمي متناثر، اعتقدنا أنه ريش الأفراخ حتى صرخ سردار: يا إلهي، من هذا؟ انتبهنا إلى وجود جثة مسجاة، وحولها أشلاء من فروة رأس صاحبها، وبقع دم صبغت سطح السفينة بلون يميل إلى الأحمر الأَدْهَم، حتى صار لون السطح مثل لون خشب الساج. ولم يستطع غلام محمد الذي رافقنا في القبو منع نفسه من استخراج ما في جوفه.

استعدت صوت الرصاص الذي سمعناه ونحن في جوف السفينة وتيقنت أن الطلقتين قد أجهزتا على صاحب هذه الجثة. خطوت بحذر نحوها متجنباً وَطء الدم بنعالي. اقتربت منها وكشفت عنها، فلم أستدل على صاحبها. رقبة طويلة بشكل غريب، ورأس مفتوح على شكل دفتي كتاب يغور في وسطها لحم وعظم ودم. وجه مفلوق بلا ملامح، وجزء كبير من نثار جمجمة وفروة رأس مهروسة. لمحت عيناً وسط إرْب من اللحم. صعقت لما تعرفت على صاحب الجثة. بحثت عن إجابة عند كَبير الحراس سيف أكبر ولم أجد. واستمر غلام محمد في إلقاء ما في بطنه حتى استنزف ما يسكن معدته. قلت بيقين وحزن: أصغر نجيب؟ حرك سيف أكبر رأسه مؤكداً الاسم، في حين دفع رُبّان السفينة رمضان خان بالخيش والدلو والمجرفة وصاح بنا: عليكم تنظيف مخلفات شير محمد خلال ساعة من الآن.

بحثت عيناي عن شير محمد من بين المسافرين. وسمعت في الأثناء عويل رجل كأنه طعن بسهم ناري قذف من سماء سابعة فأصغت له كل الملائكة والشياطين. وعرفت أنها صرخة شير محمد. رأيتُ جُلَّنار تبكي، وفاطمة مركونة في زاوية يطمرها اعْتِلال مرعب، وحولها بقية الفتيات والأطفال

الذكور الذين بكوا أيضاَ. بحثت عن قمر الدين عَلّي أعرف منه ما وقع في ظل تكتم سيف أكبر.

ستر سردار وجه أصغر نجيب وأمرني بحمله من قدمه. حملناه ووضعناه في زاوية قرب سور السفينة، ثم بدأ يجرف النثار الآدمي الذي غطى بقعة كبيرة من المقدمة. كنت أرمي بالدلو في البحر ثم أسكب الماء على الدم المنتشر في كل مكان. وتقدم غلام محمد لمساعدتنا، وعرفت أنه لن يقوى على مسح أرضية السفينة فالبقايا البشرية الصغيرة مازالت موجودة. تركت له أمر الدلو وأمسكت الخيش وبدأت بدعك سطح السفينة. انتهينا مع حلول أذان الظهر الذي أعلنه بحّار ذو صوت ضعيف.

وضع سيف أكبر سلاحه قرب الجثة وحمل دلواً آخر، وجهز كفناً مع قنينة صغيرة فيها القليل من بلورات الكافور. طلب مني ومن سردار جلب الماء، وبدأ بتغسيل وتكفين أصغر نجيب تمهيداً للصلاة عليه. امتنع سردار رغم قوّته الظاهرة عن مشاهدة الجثة، ولم أتوقف عن معاينتها بفضول وقلب جسور. صلينا عليه وتخلف شير محمد الذي ثوى في قمرته، ولم نرَ قمر الدين أيضاً. ثبت البَحَّارة الجثة بأوزان ثقيلة ورميت في بحر العرب. وقفنا جميعاً وكانت معنا جُلَّنار نراقب الجثة وهي تغوص بعيداً في النسيان حاملة معها ذنوباً كثيرة في الخطف والقتل والاغتصاب.

حَلّ المساء، وطلب سيف أكبر إيداعنا مرة أخرى في المستودع، ورفض رُبَّان السفينة مبرراً أن وجودنا على السطح سيساعد البَحَّارة في إنجاز الأعمال بعد الفوضى التي تسبب فيها شير محمد. صفدنا بحبال في كواحلنا، وقيدنا قرب البحارة الذين بدأوا يتقلبون على مراقدهم، وآخرون يتابعون سير السفينة على بساط بحر العرب. جاءت جُلَّنار ومعها سيف أكبر وفَكّوا الحبل من قدمي، وقالت لي: أختك مريضة وتحتاج إلى رعاية، وأنا في حداد.

تكورت فاطمة على نفسها في عنبر مخصص لنساء شير محمد والفتيات الصغيرات، معتلة ولا تتوقف عن التقيؤ بسبب دُوار البحر وعدم اعتيادها على تلاطم الأمواج واهتزاز السفينة المتواصل إضافة إلى ما شهدته. اضطرت جُلَّنار إلى الطلب من سيف أكبر أن يسمح بوجودي مع فاطمة لعلها تلفظ أنفاسها، كما انْطَفَأَ الصغير شاهباز قبل دخولنا ميناء غوادر. وافق سيف أكبر شريطة أن أشهد أمام اللّه أنهم لم يؤذوها في حال فاضت روحها.

استضاف الرُّبّان رمضان خان في مجلسه عازفي الكارتال والإيقاع بحضور بعض العمال بينما السفينة تعبر البحر المنبسط. بدآ بالعزف والغناء بصوت مُنْخفض. لم يخرج شير محمد من قمرته، ولم نسمع قمر الدين، بل هو عازف الإيقاع الذي بدأ يغني من نظم حضرة أمير خسرو:

«فجأة، وباستخدام آلاف الحيل

عيون ساحرة تحرمني من عقلي وتفكيري

من سوف يهتم بنقل هذا الخبر إلى حبيبي؟

مقذوف وحائر، مثل شمعة خافقة

تصول وتجول في نار الحب.

عيون لا تنام، وجسم لا يهدأ،

وهو لا يأتي، ولا تأتيني رسائله».

جرح الصوت قلب شير محمد ومزق وسادته، فَلامَ الشيطان الذي عشَّش في رأسه. خرج علينا شاهراً بندقيته وبدأ بإطلاق النار في الهواء. انقضّ عليه سيف أكبر وسيطر عليه وحين هدأ أعاده إلى قمرته. نحيت جُلَّنار مرة أخرى على أخيها وعلى ابن أخيها، ففهمنا حجم العذاب الذي يَلُفُّ قلب هذا الشيخ الذي تغيرت أشباهه من الشدة إلى اللين ومن القسوة إلى الخنوع.

طارد نورس مسار السفينة. الهواء العليل الذي استنشقته في هذه اللحظات القصيرة يمنحني قدرة إضافية لرعاية فاطمة: أختي! أقف أمام عنبر النساء حتى تأذن لي جُلَّنار بالدخول. بدأت فاطمة تهذي بسبب الحُمَّى والحزن بفقدان أخيها شاهباز الذي أثقل على جسدها السقيم. خشيت أن تتفوه لهم بأنني لست أخاها، ولكن عِلَّتها ووهَنها ساعداني في الإشراف عليها والاهتمام بها دون وعي منها. وبسبب المادة الصفراء التي تخرج من قاع بطنها، وتبولها في مكانها تقرر نقلها إلى سطح السفينة، وتخصيص مكان لها قرب غائط الرجال، حددوه بساتر من أكياس الرز والشعير والعدس، وتركوني معها. أنا يوسف بن عبد الله الأعمى بت مسؤولاً عن فتاة غريبة عليّ.

ازدادت حالتها سوءاً، وأنا فقير الحيلة لا أملك إلا ماء البحر وقماشاً لخفض حرارة جسدها من الحُمَّى. ظلت ملقاة مثل بهيمة وسط قذارتها حتى غزت رائحتها بعض الرجال الذين يذهبون لقضاء حوائجهم. فبثوا الشكوى إلى الرُّبَّان الذي نقلها إلى سيف أكبر، والذي فتح الستار وصرخ قائلاً: لماذا لا تنظف أختك؟ سؤاله أمر، وأنا في حيرة من أمري. ماذا أفعل؟ نادت عليّ جُلَّنار وهي تحمل مرق العدس مضافاً إليه فص من الثوم وفلفل هندي أحمر، وملعقة لم أرَ مثلها من قبل. شرحت لي كيفية استخدامها في تلقيم فاطمة من هذا الحساء، ثم دفعت لي خرق نظيفة، وهمست: ليس عيباً أن تنظر إلى أختك. استغفرت ربي وطلبت منه أن يغض بصري عن فاطمة ويطمر شهوتي عنها، وأنا أتعلم العناية بها وتنظيفها وتبديل قماشها وغسل دمها، قبل أن تصبح زوجتي على شرع اللّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 2 -

رست السفينة بعد يومين قرب مطرح. انتظر الرُّبّان رمضان خان أوامر شير محمد بإنزال بضائعه من الأطفال. ولكن الزعيم المسن ظل معتكفاً في مخدعه ينحب أحياناً ويصمت أحياناً. يبكي حبيبه قمر الدين وابنه أصغر نجيب، ويلعن الشر الذي يسكن بين أفخاذ النساء والرجال، مفسراً ذلك باقتصاص رب العالمين منه. غادر البَحَّارة السفينة مستخدمين القوارب العابرة للمياه الضحلة وسط هذا القوس الصغير واختفوا في سوق مطرح. وجاء الأمر بإنزالنا من السفينة مع حلول الليل، ونقلنا في قوارب صغيرة إلى الشاطئ، ثم إلى منزل مخصص للتخزين البشري. جاءت نساء من مطرح يرتدين البراقع وأخذن الفتيات، وفاطمة غير قادرة على السير. طلبوا مني حملها ففعلت وسرت بها إلى غرفة صغيرة في منزل يطل على سوق مطرح.

جلست امرأة عجوز بمرافقة فتاة عمانية تحمل في يدها قنديلاً. قرَّبته من فاطمة وقامت بفحصها. أشحتُ ببصري عنهن فزجرتني المرأة وطلبت مني مساعدتها في نزع ثياب فاطمة. امتثلتُ لذلك. وكلفت الفتاة العمانية بإحضار ماء دافئ، وبدأت بِشطفها وتنظيفها بشكلٍ كامل. أشرق وجه فاطمة رغم إحساسها بالذبول. طلبت لها المرأة شراباً ممزوجاً بزعفران وقندة سكر. جمجمت بكلمات غير مفهومة ونفخت في الكأس قبل أن تقربه من فمها وتسقيها قليلاً منه.

مر عليَّ ثلاثة أيام، يدهنون جسدي كل صباح ويصقلونه لأكون جذاباً للعرض والبيع ولافتاً لانتباه المتسوقين. نقف في ساحة سوق مطرح المسقوف، ونظل عرضة للعيون الباحثة عن شراء أجساد شابة تحتمل الأشغال الشاقة بذلة. وشهدت بيع من كان معي من الأولاد والشباب من البلوش والأفارقة. كنا نودع بعضنا البعض بنظرة خاطفة بالعين. ولم يسمحوا لنا بالمصافحة أو التحدث. بيع سردار لصالح رجل من الحجاز يرافقه إفرنجي أرعن يجيد التحدث باللغة العربية والفارسية ويسعى لتكوين مجموعة مغامرين يتزعمهم لاكتشاف الذهب في صحراء الربع الخالي، ووجد الأهبل في صلابة سردار وتاريخه مع أثر الملح الحجري الظاهر على جسده قدرة على العمل في البادية وقسوة رياحها المتقلبة. وأنه سيكون مناسباً لمغامرة مفتوحة على الثراء الفاحش أو الموت في وجه عاصفة رملية.

يقوم الوصي على كل مجموعة بعد حلول صلاة المغرب باقتياد من تبقى منا إلى البيوت المخصصة لذلك، وسمح لي بزيارة فاطمة بعد تحسن حالتها حتى أجازت المرأة المشرفة عليها طرحها للبيع. وهنا شعرت بوجوب منع ذلك بأي وسيلة ممكنة، فهي لي وحدي ولا يمكن لأحد آخر أن يختطفها مني. في تلك

الليلة تسللت بهدوء بعد أن حملت معي الصرة وسرت نحو وادٍ تمتد قربه قبور لا أعرف أصحابها. وكنت مدركاً وجود مكان بمقدوره الاحتفاظ بما لدي من سرّ عظيم. جلست في الظلام، وهناك لمحت طائراً يحلق في هذه العتمة، صوته غريب يشبه الصفير. أخفيت الصرة بين صخور القبر الذي جلست قربه. وأمعنت النظر في الطائر وهو يحوم بشكل دائري فوق المقبرة، حتى أيقنت أنه بشر وليس من مخلوقات السماء الطيارة! عندها جاءني الصوت رهيفاً وخفيفاً: لا تخف يا يوسف ولا تجزع سنثبت فؤادك. قد أنبأناك من قبل: تُرمى في جبّ وتخرج من جب. ونذكرك: تنطق بلغة القرآن. وتعبر البلاد مذلولاً ومهاناً، يأخذك نفي، وتنفي نفسك. يقف على رأسك طائر، ويسألك عن تراب سقر، فقل هي من أمر اللّه.

ولم أسمع شيئاً بعد ذلك. دخت واصطدم رأسي بشاهد القبر وسال دمي عليه. فقدت الوعي. وظللت على تلك الحال حتى شعرت بطير صغير ينقر في أذني برفق، فتحت عيني وحركت رأسي فطار مبتعداً. اعتبرت دمي علامة واضحة على الشاهد. وعدت مسرعاً إلى الدار قبل اكتشاف أمر غيابي.

دهن جسدي وسارت قربي فاطمة ولم تكن ترفع رأسها. نادوني بصفة ابن الجبل. قال عني الدَّلاَّل كلاماً كثيراً لم أفهم منه شيئاً. ضرب كفه على صدري وضَجَّ بالقول: «اسمه يوسف، ختمت على قلبه ظبية جريحة وأنجبته قبل الذبح، لم يكن في جبّ، ولد في مغارة. صَلَّت عليه نسمات الليل. غافلت أحلامه وهو يرضع من نجمة تنزل حبلى بأطفال توزعهم على جبال مكران. له شعلة من يعرض عن هذا وذاك. وله خير عند من يستخلصه لنفسه». ولم يتقدم لشرائي أحد. يتأملني المشترون والمتفرجون والعاطلون ورواد السوق والمخابيل ثم يبتعدون. انتبهت إلى الدَّلاَّل وهو يهمس في أذن شير محمد الذي خرج ذلك النهار من حزنه لينظر لماذا لم يتم تصريف بضائعه المتبقية!

وبعد حديث خاص وغامض سمعت الدَّلاَّل ينادي لبيع فاطمة: «فَصٌّ في شكل صبية. كاعب ذات خلخال. على أبواب صدرها تكمن جوهرتها الحقيقية. في ذاتها حجرٌ كريم. ربما الياقوت وربما المرجان. نحيلة وفي نحولها يتجلى معنى الأنوثة في شكلها الخفي. صلابة عظم ورهافة ملاك متخف في شكل صبية. غزالة صبورة، وخدومة، ومطيعة، ومقبلة. رحيمة الكلام والملمس». ثم أدار بوجهه ناحيتي، وكان الإعياء واضحاً عليّ، تأملني وهلة، تنفس بعمق ثم أردف: «من يأخذها يأخذ معها أخاها يوسف، فيكون سعرها ربحاً أكيداً بشاب خدوم على وجهه حكايات السفر الطويل، أمين، ومطيع، وصادق». وقبل أن ينتهي تقافزت الألسن بأسعارها، بل إن عابراً ترجل من فوق ناقته وسحب معزة صغيرة وصرخ: بقيمة هذه المعزة. فضحك كل من في السوق، ثم عادوا إلى أمور تسوقهم. تبادل بعض التّجار عروضهم الزهيدة، والدَّلاَّل ينتظر موافقة

شير محمد ليأخذ قيمة دِلالَتِه وينتهي مما هو فيه. بدأ البعض يتفحصها. خشيتُ بيعها من دوني. استجمعت قوّتي وقلت لشير محمد بصوت سمعه كل من كان في الحلقة ينتظر ما ينتهي عليه أمر بيع فاطمة وبيعي، قبل أن يبدأوا في عرض وبيع فتيان وفتيات من الحبشة. لا تعذبني يا سيدي سأخدمك ما حييت، لا تفرق بيني وبين من أحب! أحلفك بحق عشقك لقمر الدين.

لم أكن أدرك مدى حماقتي بقولي الصريح الذي جعل شير محمد ينهض من على مقعده، ممسكاً بعصاه، وضارباً بها بقوة على العمود الخشبي الداعم للمستظل الذي يحمي رواد السوق من أشعة الشمس الحارة. كان غضبه مؤلماً أعاد له حجم معصيته في عشق قمر الدين. وعرفت أن الذي زادها هو اعتقاده الأكيد أن ما يجمعني بهذه الفتاة هو ارتباط عشقي بين أخ وأخته، وهو أمر محرم. خزرنا طويلاً، ثم وجَّه كلامه للدَّلاَّل: بعها من دون هذا الشيطان. ولم يمر على قوله لحظات حتى ظهر أمامنا رجل عماني عجوز زاد عمره على الستين، وقال لشير محمد: وأنا أشتري. فالتفت إليه شير محمد وقال:

إن لعنة تلاحقني على ذنب كبير اقترفته وأنا في طريقي إلى هنا. تشتري الفتاة من دون أخيها. ما يقوله هذا الشاب أمر لم يفعله إلا أصحاب الرس!

ردَّ عليه الرجل العماني بِدَمَاثَة وسكينة:

وأنا لا أريد إلا الصبية.

هنا تقدم الدَّلاَّل نحو شير محمد مستفسراً:

وماذا نفعل بهذا الشاب يا سيدي؟ منذ أربعة أيام وهو معروض للبيع ولا مشتر، خسته ظاهرة وتمنع كل من ينوي شراءه. إن ما يقوله لَهُوَ من الكبائر يا سيدي. وأنت منزَّه عن ذلك. ليس لك ذنب أن تحمله معك كل هذه المسافة والسفر الطويل.

بع الفتاة، واترك هذا الشاب يموت من الجوع في هذه الأرض، لا أريد أن أرى وجهه.

وهنا، وشوشت فاطمة بصوت خافت في وجه شير محمد، وهي تعيد كلمات عمَّتها زينب:

تُحرق في ماء وتموت في ماء!

وهكذا تُركتُ، لا أنا حَرٌّ ولا أنا عبد مملوك. وعليّ أن أتعلم كيف أكون بينهما، أُعَيَّرُ وأُهَانُ وأُغْتَابُ وأُنْتَقَدُ. أتقبل كل ذلك وأمضي في حياتي، هادئ ومسالم ومطيع! فَكَّ الدَّلاَّل قيد فاطمة ودفع بها نحو الرجل العماني الذي سدد قيمتها

وسار معها مبتعداً. ثم جاء نحوي وفَكّ قيدي ورمى عليّ قميصاً، لبسته مسرعاً وسرت بحذر خلفهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

قضيت أسبوعاً كاملاً لا أغادر عتبة باب بيت العماني الذي اشترى فاطمة وأخذها معه. أجلس النهار كله لا أحيد ببصري عن الباب الخشبي المثبت وسط سور طيني. أما هو فقد اعتاد على وجودي. يتلذذ حين يفتح مِصْرَاع الباب في أوقات مختلفة من النهار والليل ليراني حاضراً بانتظار خروج فاطمة. ونسيت سرّي الذي دفنته تحت شاهد القبر، وصار سرّي أن أرى فاطمة وأطمئن عليها. ومع انتهاء الأسبوع الأول، طاف قربي كعادته اليومية، وقال لي بلغتي البلوشية: لا تنظر إلى الباب، دع قلبك يحدّق في السماء. ولأنني لم أفهم أو أستوعب مقصده، فقد ظللت شاخصاً ببصري باتجاه الباب الذي أمامي. وكنت أشعر بالجوع والتعب، فملت مستنداً إلى جذع نخلة ميتة. تقدمت مني امرأة عمانية ووضعت أمامي لقمة من الخبز والمرق. تناولتها بلهفة وشعرت بالنعاس.

حلَّق طائر أسود كبير، وكنت على طرف النوم، ممدداً على ظهري وعيني ترنو نحو السماء. وتذكرت الليلة التي قضيتها في المقبرة الواقعة على أطراف مطرح وفيها دفنت الصرة، فنهضت من وقتي أسير نحو المقبرة. القمر في غُرَّته، وأنا أقطع المقبرة جيئة وذهاباً بحثاً عن الشاهد المُعَلَّم بدمي فلم أجده. وظللت على ذلك الحال حتى تنفس الفجر وانتشر النور وأنا مستمر في البحث إلى أن لمحته. جلست قربه، وتساءلت؛ ما الذي أفعله هنا؟ لماذا لا أترك السرَّ مدفوناً وأغادر إلى غوادر؟ ومن ثمَّ إلى قريتنا سقر؟ ما الذي يربطني بفاطمة وأنا لست أخاها؟ تُقتُ للالتقاء بها بلهفة، شعور لم أفهم كنهه، ولكنني تأكدت أن حالي ستكون أفضل لو استطعت أخذها والعودة معاً إلى سقر. قررت الذهاب إلى الرجل العماني، ومبادلته بما لدي.

عدت إلى بيت الرجل العماني. طرقت الباب وانتظرت، ثم سمعت صوت امرأة تجيب: إن مَنْ تطلبه ليس موجوداً، انتظره حتى يعود. توسدت النخلة المقابلة للباب وجلست في انتظاره حتى حَلّ المساء ولم يعد. وطرقت الباب مجدداً فإذا به يفتح. تأملني قليلاً ثم دعاني إلى الدخول. للوهلة الأولى لم أعرف ماذا أقول له وبأي لغة أتحدث معه. دبَّ الصمت بيننا حتى استجمعت قوتي وقلت له بلطف: إنك تعْلَم يا سيدي ما أخفي وما أعلن. ولم أمهله كثيراً ليفكر. وضعت أمامه ما أحمل. لم يصدق الرجل فسألني:

ما هذه الصرة؟

هي ما أحضرني إلى هنا.

وهل تعلم ما بداخلها؟

أومأتُ له بعدم معرفتي، ثم حكيتُ عن احْتِجَاب أبي في المغارة، واختطافي، وما حلَّ بسقرٍ قبل ذلك. ونسيت في حديثي كله أن أسأله عن فاطمة، حتى نبهني هو قائلاً:

ولكنك لم تسألني عن طلبك؟

أجبته برعشة:

أطلب أختي مقابل هذا السِرّ؟

ولكنها ليست أختك.

فاجأني بمعرفته ذلك. دفع ببرود سلّة التمر أمامي، فيما تناول هو واحدة، ثم أمسك الدلة وصب لي في فنجان صغير جداً. دلقتُ القهوة في جوفي دفعة واحدة. كانت دافئة وتمتاز بطعم البنّ والهيل والقرفة. صَبّ فنجاناً آخر، شربته على عجل. ثم صَبّ الفنجان الثالث وهو يبتسم، ودفعه نحوي فشربته بأناة وأعدت إليه الفنجان، رمقني بارتياب فخيَّرته:

لك السرُّ، ولي فاطمة.

وما السرُّ يا يوسف؟

تفاجأت مرة أخرى كونه يعرف اسمي رغم أني لم أبح به، ربما سمعهم وهم يذيعونه في سوق العبيد لحظة عرضي للبيع. أيقنت أن هذا رجل يعرف أكثر مما يعلن، تملكني الظن وازداد شكي فيه. أخرجت الصرة ووضعتها أمامه وقلت له: في هذه الأوراق سرُّ الأسرار. وفي هذه العقدة حجرٌ كريم. لم يعر كلامي أي اهتمام، ترك الصرة مكانها وتناول المغلف وتأمل جلده وورقه وأخرج منظاراً، وبدأ يحدق بتمعن في كلماته مثلما كان مولانا يفعل عندما يقع كتاب جديد بين يديه. انشغل عني وبدأ يقرأ ما جاء فيه. وكنت أنتظر أن يرفع عينه عن المخطوطات والأوراق. نمتُ على الحصير ولم أستيقظ إلا صباح اليوم التالي. وجدت فاطمة جالسة قرب رأسي تهمس باسمي. وخلت أن أمي حائرة هي من تقف على راسي وتناديني، وسعدت بذلك وأنا أتقلب على البساط. شعرت براحة بعد نوم عميق، لم أشأ أن أنهض منه. عندئذ فتحت عيني ورأيت فاطمة وهي تنظر نحوي، وعيناها تتفحصان تفاصيل وجهي. ولأول مرة تلتقي عيوننا بمثل هذا القرب: وجهها صغير ومستدير، عينان واسعتان، وأنف منخفض الطرف، وشفتان منحنيتان صغيرتان وتميلان للأعلى، وتبدو كهر بشوش. ابتسمت لها ابتسامة متّقِدة، وبادلتني بأخرى سريعة خجولة ونهضت. بقيت ممدداً أحدّق في سقف الغرفة المصنوع من جندل وحصير من سعف النخيل معقود بحبال من الليف، وبسرعة خرجت حيّة البيت من بين الجندل وهي تزحف نحو ثقب في موقع آخر قريب.

عادت فاطمة تحمل صحناَ فيه بيض مقلي وأرغفة خبز خرجت للتو من التنور ووضعتها أمامي. لمحتُ خلف الباب امرأة تختلس النظر نحوي. نهضت مسرعاً وجلست بشكل سريع أمام الصحن الذي وضعته فاطمة. جاءني صوت المرأة: ما الذي جاء بك إلينا يا يوسف؟ لم أعرف بماذا أجيبها. التفت نحو فاطمة فلم تشر عليّ بأي شيء. جاءني الصوت مرة أخرى:

ما الذي جاء بك إلينا؟

لا أعرف.

قلتها بشكل قاطع وحاسم ودون إضافة. وتقدمت نحوي امرأة أصغر من الرجل الذي استضافني عنده. امرأة سمراء في الخمسينات من عمرها نحيلة ترتدي رداءً طويلاً متعدد الألوان ومطرزاً بخيوط الذهب. وقفت احتراماً لها فأشارت لي بالجلوس، وجلست فاطمة بيننا. تأملتها ثم شكرتها بودٍّ: شكراً على استضافتكم لي. أقدر موقف زوجك النبيل. ارتخى وجهها وشاهدت فاطمة مرة أخرى وابتسمتا لبعضهما البعض. عرفت أنهما يعرفان شيئاً لا أعرفه. عنَّت عليّ فكرة أن أستأذن المرأة بالرحيل بعد أخذ فاطمة معي قبل وصول زوجها، ولكنها باشرتني: هو أخي يا يوسف. وأدعى مزنه؛ أنصحك بحسن الاستماع إلى مشورته لكسب قلب من تحب.

نظرتُ إلى فاطمة فتلاقت نظراتنا، شعرت بالخجل وتركتني وحيداً مع مزنه. دخلَ قطٌّ حبشي رصاصي اللون وجلس في حضنها. وبدأت تمسح عليه بيدها وتهمس، ولم أكن أعرف إن كانت تخاطبني أو تتحدث للقط السمين: العشاق الذين يضربون مواعيدهم وهم يعبرون درب القطط في بحر العرب، يضيع عقلهم أو يغرق قلبهم في وسط الرحلة. أنا المرأة التي أضاعت زوجها بغواية قرينه. وماتت شهوته في الكلام وانحل لسانه فيكدُّ في البحث عن كلمات فلا يعثر على واحدة أو يتوه في ثرثرة بلا معنى. اختليت بوسادة باردة. احرص على قلبك يا يوسف وإلا ستجنح منك هذه الفتاة إلى مواعيد خفية للحب. لا تدع عطرها الذي يتضوع من مسامات روحها يفرُّ منك، فلن تشمَّ مثله في أي امرأة أخرى. وكانت فاطمة تقف خلف الباب وتنصت لما تقوله لي مزنه، قبل أن تحمل قطها وتغلق الباب.

وهكذا خُتم على مصيري مع فاطمة وهيأت نفسي لإعلان رغبتي في الزواج بها. وانتبهت وأنا أفكر في حسم الأمر لوجود الفطور الذي جلبته فاطمة قبل أن تحدثني مزنه. بدأت بالأكل الذي لم أتذوق مثله منذ أن فارقت أمي. وما إن انتهيت حتى دخل عليَّ الرجل العماني وفي يده الصرة والمخطوطة فنهضت لأسلم عليه بمبالغة في الاحترام. أمرني بالجلوس وقال: هل تعرف ماذا فعلت بك؟ ودون أن ينتظر مني أي رد استرسل، وفي نبرته تَأنِيب كثير

لم أفهم معناه أو أسبابه: لقد خلصتك من العبودية، ولولاي لانتهى بك الأمر عاملاً أو خادماً لدى الشيوخ أو رجال البحر، أو التّجار الهنود. أو ربما ابتلعتك صحراء ترعى فيها الإبل وتحلب النوق.

شكراً لك يا سيدي هذا فضل لن أنساه بداً.

لمحت شيئاً غريباً في وجهه، جبهته كأنها بحر عميق تحتدم فيه الأمواج ثم تهبط بسلام فوق حاجبيه الكثيفين، وقال لي بتشدد:

ستأخذ فاطمة وتغادر إلى البحرين، وستبدأ في تَدْبِيج قصص الحجر حتى تسلِّم الأمانة إلى صاحبها هناك.

ولكنني سأعود إلى سقر.

اسمعني يا يوسف، أبواب سقر غُلّقت في وجهك، لقد انتهت منك، وعليك أن تذهب إلى البحرين لتكمل ما يريده إستيفان.

إستيفان؟ من هو إستيفان؟

عابدين الأسود.

وهنا جحظت عيناي. ها أنا أطرح في الضياع سدى مرة أخرى. أسقط من علو جبل لم أعبره بعد، ووديان لم أكتشفها. غموض يزيد من وجع الرأس ويسبب لي الوجع الذي سببته لي السفينة عندما رمت بنا على شواطئ مطرح، بعضنا مكسور وبعضنا معتوه مثل شير محمد ونسائه. استجمعت قواي وسألته:

وكيف تعرف عابدين؟

دعني أقول لك شيئاً مُهماً يا يوسف: عابدين ومولانا رشيد حمدان وأبوك عبد الله كانوا سدنة الحجر الذي عرضته عليّ. الآن أنت حامي الحجر وحافظه. تغادر من هنا إلى البحرين وتسلِّمه لصاحبه.

ولكنني سأعود إلى سقر؟

قلت له ذلك مصراً ونظرت مباشرة إلى جبهته المائية، شعرت بالسكينة وأنا مصمم على موقفي. ردَّ عليَّ بثقة مبالغ فيها:

ستعود إلى التهلكة.

سأعود إلى سقر.

تذهب إلى البحرين.

سأعود إلى سقر.

لن تأخذ فاطمة وسأتزوجها الليلة!

وبانكسار قلت له:

لماذا تفعل بي كل ذلك يا سيدي؟ لقد وضعت بين يديك سِرّاً عظيماً.

أنا من أحضرك إليّ. فكر في الأمر. يمكنك الذهاب إلى البحرين، وتسليم الأمانة إلى صاحبها ثم العودة إلى سقر، ماذا قلت؟

اكتنفني الغضب، شاهدت أعاصير وعواصف بحرية على جبهته، مياهاً ترتفع ثم تضرب الشواطئ مخلفة وراءها حيتاناً كبيرة تنازع الحياة، وبشراً عراة يمضون قُدماً نحو الجحيم مع انسدال نور البحر.

قلت له وأنا أرمي بكل شجاعتي أمام بساطه المكشوف:

أتزوج فاطمة الليلة؟

تتزوجها على ظهر السفينة.

وقعت في حيرة كبيرة. الفكرة تقلب الفكرة، وسقر تبدو بعيدة وتزداد بُعداً. أريد الزواج بفاطمة وعليّ الموافقة، فسألته:

ومن صاحب الأمانة هناك؟

فقال لي:

أفريقي من تنجانيقا يدعى مايك، ويعمل في مستشفى الإرسالية الأمريكية بالمنامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

تجمَّعنا عند شاطئ مطرح. تقدمت مزنه، أخت الرجل العماني لتوديع فاطمة، قبَّلتها ووشوشت بكلمات لم أسمعها، ولم تبح لي بها حتى حين سألتها عن ذلك. قدمت لها هدية عبارة عن زجاجة صغيرة فيها القليل من دهن العود، اكتشفت سحره الخرافي مع أول قطرتين منه بعد وصولنا البحرين، واحدة وضعتها تحت شحمة أذنها خلف القرط الذي أهديته إليها ذلك المساء الجميل، والثانية فوق سرتها. ودعتنا ووقفت تنتظر أخاها عند الشاطئ. مَرَّ أمامنا جِنّي صغير يطارده بعض أهالي مطرح حاملين الألواح والسكاكين والمناجل وشُعَل النار.

ركبنا قارباً صغيراً يستعد رجل أفريقي لقيادته. كنا أنا وفاطمة والرجل العماني والمأذون. وبمجرد ابتعادنا عن الشاطئ ودخولنا البحر تلقفت الأمواج القارب وبدأ بالتمايل، والرجل الأفريقي يضرب بعصا التجديف يميناً ويساراً للمحافظة على توازنه، بينما يردد المأذون الأدعية لحفظهم من الغرق. ورغم محاولات الرجل العماني طمأنته أنها مياه ضحلة ولن نغرق فيها في حال انقلب القارب أو سقطنا منه.

صعدنا سفينة عمانية الأصل والمنشأ، من نوع البغلة وتدعى «العوجة»، استخدمت في السابق في اجتياز بحر العرب والمحيط الهندي وصولاً إلى سواحل مالابار وبومباي وكلكتا وزنجبار وسومطرة. ولكنها اليوم سفينة مسنة تقطعها ندوب بحرية قديمة، وتلتصق في جوانبها حراشف من الطحالب المتراكمة، وتبدو مثل امرأة متهدمة، ركبتها مصابة برضوض، وتئن من الألم وتقدم العمر. واستبشر الرُّبّان الكويتي مبارك، مالك السفينة، عندما علم بموضوع عقد الزواج على سطح سفينته التي اشتراها من صاحبها العماني بعد عجز الثاني عن الإيفاء بديون والده.

نشأ وتربى مبارك على سطح السفن البحرية، وتحولت هذه السفينة إلى منزله. بيت متنقل بين الخليج الفارسي والهند وحضرموت وعمان. تعيش معه ثلاث زوجات مع عيالهن حيث خصص قمرة لكل زوجة. وما إن تلقفت الآذان خبر وجود المأذون على ظهر السفينة حتى خرجت نساء الرُّبّان من غرفهن ليشاهدن ضرتهن الرابعة. وكم كان استهجانهن على مبارك الذي يريد الاقتران بفتاة لم تتعد الثانية عشرة من عمرها ولا تصلح لرُبّان يستخدمها كسواك لتطهير فمه وطرد بقايا الأكل المتجمع بين أسنانه. تركهم الرُّبّان يرددن استهجانهن، ثم صرخ فيهن: واللّه مازلتُ قادراً على نكاحكن دفعة واحدة، انصرفن من أمام وجهي لعنكم اللّه وملائكته. لا يجلس رجل مع

مأذون إلا وخفتم من الزواج! هذا سلسبيل اللّه، ما بالكن تمتعضونه وتوبخونه، هيا يا شيخ قم بعملك.

وانطلق المأْذون بالتسمية والتفريج علانية بحقي في نكاح فاطمة كزوجة لي بعد وضع بصمتي وبصمة الشاهِدَين اللذين كانا الرُّبّان الكويتي مبارك، والرجل العماني الذي التفت إليه المأذون كي يكتب اسمه كشاهد في صَكّ عقد النكاح وسأله: ما اسمك؟ فنظر نحوي وعلى وجهه ابتسامة وقال للمأذون: ثابت بن جارم.

وبعد أن عرفت نساء الرُّبّان بزواجنا فرحن بذلك، وأطلقن الزغاريد مصحوبة بتصفيق وترديد لبعض الأهازيج. دفع لي ثابت بن جارم الصرة والمخطوطة، وقال: لا تخف ولا تجزع يا يوسف، سأكون قريباً منك.

جلسنا في صمت قرب بعضنا البعض. يتابع الرُّبّان مبارك مع العمال شحن المركب ببضائع مثل التُّنباك، والقرنفل، والرز، والسكر، وحمولته من النفوس؛ سبعة وسبعون مسافراً، وخمس نساء، دون زوجات الرُّبّان، وثلاث بقرات، وثور واحد، وعشرة بغال، وخمس قطط، واثنا عشر بحاراً. بعد أن انتهى من كل ذلك، أعلن إبحار السفينة، ثم انتبه إلينا وسأل مازحاً: ما أخبار المعرس؟ فلم أردّ عليه بشيء، خَزَر ناحية إحدى زوجاته الأصغر سناً، عمانية من أهل نزوى بكثير من الغزل، وقال لها آمراً: ليكن مخدعي فرشة للزوجين. أخذتنا السيدة العمانية إلى مخدع الرُّبّان وكان به سريرٌ مصنوعٌ من خشب الماهوجني الأفريقي ثبتت في جوانبه مرايا طويلة تطرزها رسومات لطواويس مع بعض من أسماء اللّه. جلسنا هناك، ننصت لصوت الموج ليلة بنهارها. طلبني الرُّبّان فخرجت إليه. تأملني قليلاً ثم قال دون حياء: النكاح يتطلب طعاماً يا يوسف، وأنتما لم تخرجا لطلب خبز أو حتى طاسة من الماء. أحياناً تكون الأمور صعبة، وأنت وسط البحر وبين أمواج تترفق بك أو تقسو عليك. هي أمور طبيعية، ولست ملزماً بالبقاء في المخدع. المركب كله لك، وإن أردت أعشاباً تساعدك على ذلك فلك ما تريد. ابتسم وابتعد، لم أفهم مقصده من الأعشاب، ولماذا علينا أخذها؟

في الليلة الثانية بعد مغادرتنا مطرح، كان القمر بدراً حين لمحت طائراً يتتبع المركب، وفاطمة تقف قربي ونحن نستند إلى مؤخرة السفينة، سألتها:

هل ترين؟

طائر ليلي؟

وما الطائر الليلي؟

طائر من الجن!

أصابني فضول كبير لمعرفة سمات طائر الجِنّ وصفاته قياساً ببقية الطيور، ولكن ما إن اقترب من المركب حتى صِحتُ: إنه رجل مطرح، ثابت بن جارم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

استيقظت فاطمة على صوتي وخرجتْ. وقفت لصق المسافرين الذين نهضوا من أماكنهم واتجهوا نحو الميمنة حيث تظهر شواطئ المنامة البيضاء. اختفت الجبال البركانية السوداء، وظهرت أرض منبسطة تكشف عن أبراج تمتد من وسط بيوت طينية تتسم بالفخامة والوجاهة، فيما تمتد البساتين الخضراء على طول سواحلها. حامت قوارب حول «العوجة»، وكنا على مسافة أربعة أميال من مرفأ المنامة الحُرّ. عرض أصحابها النقل والتوصيل إلى الرصيف المبني حديثاً الذي تمتد قربه مخازن للتجّار وساحات كبيرة للتحميل. يعج محيط المرفأ بعدد كبير من السفن التجارية القادمة من بقاع الأرض، وسفن صيد اللؤلؤ الرابضة بانتظار صيحة البَحَّارة. ينطوي المرفأ على حركة متسارعة للقوارب في شحن وإنزال البضائع والمسافرين والحيوانات بما فيها الخيول والإبل والخراف.

نزلنا على رصيف المرفأ، وسرنا باتجاه ميدان الجمارك. طلبت من فاطمة الانتظار قليلاً ريثما أتمكن من السؤال عن السفن التي ستغادر البحرين خلال ساعات، للعودة إلى مكران أو مطرح، عَلّنا نستطيع الوصول تالياً إلى سقر. لم أعثر على سفينة تغادر نحو مرفأ غوادر. وبعد وقت قصير وجدت سفينتين ذاهبتين إلى مطرح ولكن رُبّانَيْهما رفضا ركوبنا معهما طالما أنني عاجز عن دفع الأجرة. عرضت عليهما العمل على ظهر سفينتهما فرفضا وقالا: إن لديهما من البَحَّارة ما يكفي ويزيد. جلست حائراً متردداً أفكر فيما ينبغي عليَّ فعله، هل أذهب إلى مستشفى الإرسالية الأمريكية وأسأل عن مايك التنجانيقي وأسلمه الصرة، ثم أقيم عند التاجر الذي نحمل له كتاب ثابت بن جارم إلى حين العودة في أقرب رحلة.

هالني في تلك الأثناء قيام مجموعة ترتدي زيّاً عسكرياً بقيادة ضابط إنجليزي شاب يهرولون مسرعين باتجاه المرفأ، ويعدو وسطهم عَتّال يدفع عربته وفوقها شاب أفريقي مربوع الجسد مقيد اليدين والرجلين. الناس في هرج ومرج تردد خبر اندلاع نزاع جديد بين العجم والنجديين. أحد النواطير كان يصرخ في الجماهير بالابتعاد وهو يهدد بعصاه. أطفال شبه عراة، حفاة الأقدام، يرشقون الرجل الأفريقي بالحجر وهم يرددون: تُبْ إلى اللّه يا نصراني. تحاشيت الوقوف خوفاً من الفوضى والاعتداء وابتعدت، لكنني تابعت بفضول ما يحدث. جمد قربي شابٌّ أسود يشبه الرجل الأفريقي المُقيد وقال لي: لا تصدق هذا الكلام. ثم التقط أنفاسه وظل يتابع المشهد حتى وصلوا إلى جسر المرفأ الحجري. أنزلوه بسرعة نحو قارب صغير. دفعوه بقوة فسقط على وجهه وسط القارب، ورمى أحد النواطير صرة ملابسه. جدف صاحب القارب باتجاه سفينة إنجليزية تقف بعيداً عن الشاطئ. وقال

الشاب: نحن أصحاب ونعمل معاَ عند شيخ في المحرق. أنا مسلم وهو نصراني. وصلت أخباره إلى دار الاعتماد البريطانية أنه يذهب إلى المسجد فاستدعوه وخيَّروه بين الإسلام والمسيحية؟

وماذا اختار؟

هل تريد الحق؟

نعم.

سألني وهو يتلعثم ويتنفس بصعوبة:

أنت لست من أهل البحرين؟

لا.

تلفت حوله ليطمئن من خلو المكان من متنصَّتين. أخذ نفساً عميقاً ليشحذ قلبه بالشجاعة وهمس لي: اختلقوا هذا الأمر لأنه عشق ممرضة إفرنجية شقراء مثلهم ولم يقبلوا بذلك. شعرت بالشفقة. تابعت القارب الذي وصل إلى السفينة الإنجليزية ورأيته يصعد وينظر باتجاهي، أحسست بأنه ينظر إليّ، وخمنت أنه يرمق صاحبه، فأردت أن أنبهه، ولكن صاحبه اختفى. وعدت إلى فاطمة مكسوراً لعدم قبول أي من رَبابِنَة السفن أخذنا معهم. وودَّت سرد حكاية الأفريقي العاشق، ولكنني وقفت أمامها صامتاً. سألتني وهي في تعب:

ماذا نفعل الآن؟

نذهب لنسلم الأمانة، ثم نعود ربما يحنو ربابنة السفن علينا.

نهضتْ بتثاقل، وحملت صرتها معها. أوقفتُ عابراً وسألته: أي الطرق تؤدي إلى مستشفى الإرسالية الأمريكية؟ خزرني لوهلة ثم واصل طريقه مستهجناً سؤالي. ثم سألت صبياً مرَّ بالقرب مني فردَّ عليّ إنها مسيرة نصف ساعة من هنا، وعندما لمح معي امرأة هز رأسه وقال: ربما ساعة! وإن كانت ستلد فعليك بعربات الحمير. شكرته وأوضحت له أنها ليست حاملاً. سرنا على حد الشريط البحري كما أشار لنا. عن يسارنا يمتد ساحل رمله أبيض وتصطف على طوله سفن شراعية صغيرة تستخدم للتنقل إلى سفن الغوص الكبيرة الرابضة في عمق البحر، أو إِقْلالاً لعابرين إلى جزيرة المحرق أو سترة. وشاهدنا بحارة يحملون سلال صيدهم ويعرضون ما فيها للبيع ويبقون على عدد قليل من الأسماك لأفواه فرحة باستقبالهم. وعن يميننا تمتد عمارات تجارية من ثلاثة طوابق مبنية من الطوب وحجر البحر والطين، تستخدم كمكاتب تجارية. وفي طريقنا لاحظنا مبنى يتجمع حوله رجال عُتاة يتجادلون حول حقوقهم المنقوصة من موسم الغوص، وعرفت فيما بعد أنه يسمّى

مكتب محكمة «سالفة الغوص» وبسبب ظلمها انتفض الغاصة وأعلنوا عصيانهم على رَبابِنتهم. وبعد أن عبرنا دار الاعتماد البريطانية، هالني منزل كبير، كان قصراً يعلو واجهته أسدان، قيل لي إنه بيت لتاجر لؤلؤ فاحش الثراء.

اقتربنا من باب المستشفى، وترددت فاطمة في الدخول بسبب صراخ المرضى الذين ينتسبون إلى مختلف الأعمار والأجناس والألوان. تقدم مني ممرض عربي يرتدي فوق ثوبه ثوباً أبيض مفتوحاً بشكل كامل. سألني عن علتي فسألته عن مايك التنجانيقي، وأخبرته حملي لأمانة تخصه. أمسك بيدي وسحبني بعيداً عن المدخل وقال بصوت هامس: من تريد طُرِدَ من البحرين؟ انتظرت إيضاحاً أكثر. ولكنه أعرض عني. جذبته من ثوبه فرمقني غاضباً. توسلت إليه أن يمدّني بعنوانه وشرحت له أنني غريب عن البحرين. نهرني وقال: لم يعد يعمل هنا. ترك المستشفى وانضم للعمل مع حاشية الشيخ في المحرق. وصدرت الأوامر من دار الاعتماد بترحيله اليوم من البحرين. إن كنت قادماً من المرفأ فأنت بالتأكيد رأيته أو سمعت به، المنامة كلها تتحدث عنه.

تركني وغاب داخل المستشفى. استندت إلى الجدار. شعرت بالأرض تميد بي، وفاطمة تختفي في مكان بعيد، وأن ضالتي ومرادي ذلك الشاب الأسود الذي قيد بالسلاسل وسيق إلى المرفأ. وعليّ الآن تتبع الموج لأعرف طريقه وأرضه! أمسكتُ يد فاطمة واستندت إلى جذع نخلة وحيدة تقابل مبنى المستشفى. وهمست لها لا أعرف ما الذي يتوجب عليَّ فعله. سألتني:

ما اسم التاجر الذي تحمل كتاب ثابت بن جارم إليه؟

يدعى عبد العزيز بن يحيى الرمي.

نذهب إليه.

أين؟

نعود إلى المرفأ ونسأل.

عدنا مترجلين إلى المرفأ. ظل هذا اليوم معي حتى مماتي؛ أسدان يعلوان قصراً لم أرَ مثله. أمسكت بيدها وسرنا حول ميدان الجمارك الضاج بالحركة وبصخب بَحَّارة جاءوا من موانئ الخليج ومن سورات وبومباي ومالابار ومكران وبوشهر ولنجة والقطيف ودارين. رجال سمر قصار القامة ممتلئو البنية من الأحساء يلفّون رؤوسهم بغترة بيضاء، ورجال من مسقط ومطرح وظفار يمتازون بشعورهم الطويلة وملامحهم الهادئة، يرتدون ثياباً تميل إلى اللون الأصفر وآخرون إلى الحمرة، أما أهل الساحل الفارسي فيرتدون ثياباً واسعة ذات أكمام طويلة. ويكتفي الهنود والمالاباريون ذوو البشرة السوداء

بإزار وقميص أبيض، وبينهم سود أفريقيون رأيت أشباههم في مطرح كالرجل الذي سيق بالقوة مكبل اليدين والرجلين.

يمتد شارع التجّار من مبنى الجمارك الذي يقابل مرفأ المنامة، حيث السفن التجارية ترمي بالناس والبضائع على الرصيف الجديد إلى البيوت والمخازن المبنية خلفه وعلى أطرافه. ينطلق العمال في جر العربات وتوزيع البضائع على الدكاكين والمخازن. غُطِّيَ السوق بسقف من الخيش وسعف النخيل، فأصبح ممراً تجارياً مظللاً يسمح بالتسوق طوال ساعات النهار الحارة واشتهر باسم شارع التّجار؛ لأن فيه يُشترى ويباع اللؤلؤ البحريني، الأغلى ثمناً والأجود نوعاً. ويتنوع السوق بدكاكين لتّجار بحرانيين، وتجار من خنج وبستك وبوشهر، ثم أخرى لتجار من نجد، وتتوزع بينها هنا وهناك دكاكين صغيرة لتجار من مطرح وحضرموت وبومباي ومالابار ويهود العراق وفارس.

أرشدونا إلى دكان عبد العزيز بن يحيى الرمي في منتصف سوق التجّار. وقفنا أمام تاجر من نجد ظعن إلى المنامة قبل أكثر من ست سنوات واستثمر فيها ما يملك في استيراد المواد الغذائية كالرز والسكر والقهوة والشاي من بومباي وكراتشي وكلكتا، ثم يقوم ببيعها على صغار التجّار في البحرين والقطيف والكويت. استضافنا هذا التاجر النجدي في يوم شهد سوق المنامة المَسْقوف بالحُصُر نزاعاً بين التجّار الفرس والنجديين. وكان النجديون ينتشرون في سوق التجّار مسلحين بالسيوف والخناجر والبنادق والعصيّ وأغلقت الكثير من المحلات أبوابها. مددت إلى التاجر عبد العزيز بن يحيى برسالة رجل مطرح ثابت بن جارم، قرأها بسرعة ثم دفع بها إلى جمر النارجيلة، وتوقعت أن يقوم بطردنا، ولكنه رفع رأسه ناحيتي يتفحصني ثم سأل:

هل أنتم فرس؟

لا

هنود؟

لا يا سيدي، نحن بلوش.

صاح بالصبي الجالس على يمين الدكان، وبسرعة البدوي الكريم قال له: خذهم إلى البيت، إنهم ضيوفي حتى ييسِّر اللّه أمرهم. وأوصى عليهما جوهرة. أخذنا الصبي إلى منزل التاجر عبد العزيز الذي يقع على الطرف الغربي من حارة الفاضل. بيت كبير الحجم مبني من الطين الأبيض، ذو برج هوائي طويل، وهناك تركنا تحت إمرة جوهرة، وهي عبد ة سوداء تتحدث العربية بطلاقة.

أخذتنا نحو كوخ مبني من سعف النخيل داخل إسطبل خاص وملاصق لمنزل التاجر عبد العزيز. وهو مسوَّر بجريد النخيل ومخصص لثلاث بقرات حلوب.

يستقبل التاجر في هذا الكوخ كل من يطلب استجارته أو من خلال توصيات تبعث له بالاعتناء بمسافرين يأتون إليه من نجد والبصرة والكويت وعمان والقطيف بصفتهم ضيوفاً مؤقتين لحين عثورهم على عمل ومسكن. ويجعلهم في هذه الأثناء يعملون لحسابه مقابل إقامتهم، خصوصاً لمن يأتون مصطحبين معهم نساءهم أو بناتهم واللواتي دائماً ما يوزعهن للعمل في بيته الكبير أو في بيوت كبار أعيان حارة الفاضل والحارات القريبة، في غسل الملابس في العيون المائية، أو جلب وتوزيع المياه بشكل يومي على هذه البيوت، كما أنه يختار الفتيات المناسبات للزواج والإنجاب خاصة النساء العربيات البيض المكتنزات.

واشتهر عبد العزيز بلقب الحنبلي الصالح بسبب صلاح أعماله التي يقوم بها لكل من يعرفه ويطرق بابه. والحنبلي بسبب إصراره على الزواج من نساء على مذهبه الحنبلي، ومقته للنساء من المذاهب الأخرى ليقينه بعنادهن في الفراش! لذلك فقد فزعتُ حين سألني وهو يتفرس في وجه فاطمة:

هل هي أختك؟

بل زوجتي يا سيدي.

إنها نحيلة وتكاد تنكسر مع أول لمسة!

أصيبت فاطمة بمرض الحُمَّى بعد وصولنا البحرين بسبب مشاهدتها لعملية جماع ثور أفطح أسود اللون لثلاث بقرات حمراوات. ارتعدت فاطمة من قوة صوت خواره في العملية الثالثة حتى سكن وخار، وكاد يلفظ أنفاسه، قبل أن تغيب هي عن الوعي وتسقط على روث البقر. وبعد أن فتحت عينيها، طمأنتها أننا سنعود إلى سقر وأنني أحتاج إلى عدة أشهر من العمل لادخار مال يسمح لنا بركوب سفينة تغادر نحو مكران أو مسقط أو مطرح. أومأت بعينها موافقة على اقتراحي، فاكتشفنا انقطاع الطمث وظهور بوادر الحمل عليها. أخبرتها بأننا سننتظر حتى ولادتها وسوف نغادر بعد أشهر من ذلك.

تقع حارة الفاضل شمال شرق مرفأ المنامة، وتبدو بهيَّة برائحة اليود حين تحملها الرياح من البحر إلى سكان الحارة الناعسين. وعلى شواطئها تقف النساء في لحظة وداع متكررة للرجال الذاهبين في رحلات صيد اللؤلؤ، وهي المهنة المتاحة للشباب مفتولي السَّاعد ذوي النَّفَس القوي الذين اعتادوا الغوص والمكوث تحت الماء مدة طويلة، والذين يصر الكثير من ربابنة سفن الغوص على وجودهم في مراكبهم، وسرد القصص الخرافية حول قوَّتهم

وصلابتهم في الغوص. وتبدو السفن الكبيرة بعيدة عن الشاطئ الذي يطل عليه مسجد الفاضل الصغير، والمسيج بسعف النخيل. تمتد بعده أزقة وساحات وبيوت مبنية من السعف والطين والحجر البحري، وصولاً إلى مستشفى الإرسالية الأمريكية وكنيسة بروتستانتية صغيرة، تقع خلفها مقبرة للشيعة، وأخرى صغيرة للنصارى. وشرق الفاضل تبدو حارة العوضيّة، عروس تُبدِّل ملابسها الزاهية كل ليلة، تتابع الجديد الذي يصل من طهران وأصفهان وبومباي وبستك وبوشهر. وغرب الفاضل تبدو حارة العريض مشعشعة بصوت خطباء المنابر الحسينية والرايات الخضراء، وتسكن في ارتياح بعدها حارة الحطب، وخلفهما تقع مقبرة السُّنَّة.

إن انبساط أرض البحرين وافتقارها للجبال والصحاري كان أمراً لافتاً لي ولفاطمة، بل دهشنا لكثرة البساتين والحقول الزراعية بجانب عيون المياه، إضافة إلى استخراج المياه الزلال من البحر نفسه! كنا نرى نساءً ورجالاً يملأون القِرَب بالماء ويوزعونها على البيوت. عملت فاطمة وهي تتابع انتفاخ بطنها وانتفاخ بطن إحدى البقرات الثلاث حتى انقضت تسعة أشهر على وجودنا في البحرين. وبدأت بوادر المخاض على فاطمة وبقرة سيدي عبد العزيز مع فجر يوم الجمعة. صرخت فاطمة متألمة، تبعتها بشكل أقوى البقرة التي أكلمت شهور حملها. تفتح فاطمة فمها ولا نسمع سوى الخوار. تمّ استدعاء رجل للإشراف على ولادة البقرة. بينما جلست القابلة مع بعض الخدم حول فاطمة حتى أذان صلاة الجمعة فذهب الجميع إلى المسجد. وما إن انتهى خطيب الجمعة من صلاته حتى وصلتنا البشارة، بشارة ولادة البقرة. تهافت المصلون على سيدي عبد العزيز يباركون ولادة بقرته، ولم يتذكر أحد صراخ زوجتي فاطمة وهي تلد ابني البكر عبد الله الذي طارت العيون حوله حتى قيل عنه بعد ولادته: عبد الله نور لشدة نوره وبياضه. وقيل: عبد الله عافية لشدة عافيته ومتنه. وقيل: عبد الله مَليح لشدة جماله ووسامة طلته. وحينما كبر نسي الجميع كل هذه الصفات الحسنة وأبقوا على لقب عبد الله العجلة، حتى خروجه من البحرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

بلغ عبد الله شهره الثاني عندما أصيبت فاطمة بحُمَّى إثر مشاهدتها للمرة الثانية عملية تزاوج للثور الأفطح مع البقرتين اللتين لم تلقحا في المرة السابقة. ارتعدت من صوت خواره قبل أن تغيب عن الوعي وتسقط على الروث. تحولت إلى محط استهزاء نساء المنزل الكبير والمنازل القريبة. وأن في فعلتها مبالغة غير مبررة لامرأة رأت عورة زوجها! وتفاجأت النسوة من ظهور عوارض الحمل من تعبٍ وإجهادٍ وغثيانٍ صباحي على فاطمة. دفع ذلك بجوهرة لأن تقف في حوش منزل عبد العزيز المفروش برمل البحر حافية القدمين، بعد أن نادت الخدم والصبيان الذين يعملون في خدمة هذا المنزل الكبير وأَذَاعَت بصوت مسموع: تصاب فاطمة بالراشّ من الثور الأسود الأفطح، ويوسف غير قادر على نفخ بطنها وأنتم تعرفون. تضحك ويضحك الجميع، بينما أشعر بالخزي والصفاقة مما تتفوه به.

حبلت فاطمة بابنتي حائرة، وأجَّلنا خروجنا من البحرين حتى تضع حملها وتسترد عافيتها. وفي شهرها الخامس استدعاني عبد العزيز في مجلسه، وقال لي:

كيف حالك معنا يا يوسف؟

بألف خير يا سيدي ما دمنا نحن في رعايتك.

ألا تريد أن تستقل بعمل خاص بك؟

مثل ماذا يا سيدي؟

لا أعرف، ربما تريد العمل كبقية البلوش ناطوراً عند الحكومة.

لا يا سيدي، سأنتظر حتى تلد فاطمة ونعود إلى قريتنا سقر.

ولكنني أريدك للعمل معي.

أنا معك يا سيدي.

سكت للحظة، وأشار لصَبَّابَ القهوة بالخروج وإغلاق الباب خلفه، ثم قال بنبرة لطيفة ولينة: اسمع يا يوسف، ستتزوج جوهرة وتكون على ذمتك حتى يأتيك أمر طلاقها مني. ولك ما يرضيك ويساعدك على العودة إلى غوادر أنت وعيالك. لم أفكر طويلاً ولم أستغرب. صدور أوامر الزواج من العبيد والخدم والإماء في حارة الفاضل والحارات الغنية القريبة منا كان أمراً شائعاً. سرحت بفكري سريعاً، ورفعت عيني لأول مرة ناحيته، ووجدته حاسر الرأس، خفيف الشعر، ينتشر فيه الكثير من الشيب رغم أنه على أعتاب الأربعين من عمره.

سألته: وكيف أقنع فاطمة؟ انفرجت أساريره بابتسامة كاشفة عن رضا تام، وهو يردُّ على سؤالي: أنت رجل يا يوسف، والبلوش لا تشبعهم واحدة. ابتسمت وأنا أتخيل ما سيقال عني بين الخدم والصبيان في منزل عبد العزيز وفي حارة الفاضل. سيتناقلون الأقاويل، وينسجون القصص، ويروجون الشائعات والأكاذيب بالهمس وبالجهر. صاح منادياً: يا صبي، أسرع في طلب الملا جليل من منزله حالاً.

قضي الأمر بسرعة، وعرفت فيما بعد أن بطنها منتفخ، وأنها حبلى كفاطمة بل وفي الشهر نفسه. فكرت مبتسماً مستهزئاً وأنا أنظر تجاهها وقلت: ربما أخصبك الثور الأسود الأفطح. وبعد أن انتهيت منها كما طلب مني سيدي، استأذنتها بالذهاب إلى فاطمة فقالت ضاحكة: إن كنت تنوي ركوبها فأنا لم أشبع بعد، وأنت تعرف! فقلت لها ضاحكاً: تراني ثوراً أفطح! فأطلقت ضحكة سمعها كل من في الدور والغرف القريبة، وفهموا رغبتها وضحكوا.

قضيت الليل كله آملاً في إقناع فاطمة بزواجي الزائف. ولكنها لم ترضَ بما فعلت، وحاججت بتفضيلها البقاء في البحرين للأبد ولكن بلا زوجة ثانية على رأسها. حزنت وغرقت في الحسرة حتى أنجبت ابنتي وأسميتها حائرة. وفي لحظة المخاض، كلما فتحت فاطمة فمها تصرخ من وجع الولادة كنا نسمع صوت جوهرة من غرفة الخدم وهي تتأوه من ألم الوضع أيضاً. أنجبت ذكراً جاء اسمه سريعاً من سيدي عبد العزيز: سعود. وكان نجدي المواصفات والبشرة.

بحلول العام 1925 الميلادي تمكنتُ من الكتابة بعربية سليمة، ومن التحدث ببعض المفردات الإنجليزية. وقد دعم ذلك في الحصول على وظيفة مخلص جمركي لصالح تجارة عبد العزيز النشطة بين البحرين والكويت قبل أن تتمدد وتتوسع إلى قريتي الخبر والقطيف. كنت مسؤولاً عن مطابقة بيانات الأوراق بالصناديق الخشبية والنحاسية بعد إنزالها من على متن السفن القادمة من بومباي ومالابار وزنجبار وعمان وحضرموت وعدن. وأمدُّ يد العون لبعض موظفي دار الاعتماد البريطانية من الإنجليز والهنود لتخليص معاملاتهم ومعاملات الإرسالية الأمريكية التبشيرية في المنامة. ومكنني عملي من التعرف على العاملين في الإرسالية كالطبيب والأب صموئيل زويمر وزوجته إيمي، والدكتور لانسينغ وزوجته. وسمعت حكاية الممرضة روث ومايك التنجانيقي الذي جئت البحرين في طلبه.

احتفظتُ وقتها بما يكفي من المال للسفر من البحرين والعودة إلى سقر، إلا أن فاطمة حبلت بابني الثالث، وجوهرة انتفخ بطنها للمرة الثانية هي الأخرى. في تلك الليلة تركت فاطمة الكوخ الذي نعيش فيه في إسطبل البقر واختفت من حارة الفاضل. أنفقت الليل كله في البحث عنها في الطرقات والحارات

القريبة. وفكرت ربما استقلت عبَّارة وذهبت إلى جزيرة المحرق البعيدة. وطلبت لقاء سيدي عبد العزيز وأخبرته عن تواري زوجتي فطمأنني أنه مجرد زَعَل نساء، وستعود عندما تصاب بالمرض أو تشعر بالجوع. ورجوته تطليق جوهرة فوعدني بإرسال بعضٍ من رجاله في البحث والسؤال عن فاطمة، ثم اقترح عليّ أن أقضي ليلتي مع جوهرة حتى العثور على فاطمة. ووافقت على مضض. وانحشرنا أنا وجوهرة وعيالنا في غرفتها المبنية من جذوع وسعف النخل بعد أن أمر عبد العزيز بتشييدها لنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبَّت علينا ريح محنة البحرين العسيرة، معلنة دخول الشتاء بعد ليلتين من غياب فاطمة. بكى الأطفال من رعدة البرد، وقوة الريح وهي تخترق سعف النخيل. ضمّت جوهرة الأطفال جميعهم حائرة وسعود وعبد الله في حضنها، أودعتهم بين حنان ثدييها الكبيرين دون تفرقة. وذهبت أنا للبحث عن حطب لإشعاله وتدفئة الغرفة التي تجمعني بها. ناموا فشكرتها على ذلك، رمقتني مبتسمة وقالت بهمس ورغبة ظاهرة: ألم تشتق للفص الأحمر، وأنت تعرف! تركتها في فراشها مع الأطفال ونهضت من وقتي قاصداً كوخنا في إسطبل البقر. أخرجت الصندوق النحاسي المدفون تحت مرقدي، حيث خبأت فيه الصرة بعد أن حملتها معي من جبال سقر حيث أمرني ثابت بن جارم بحملها إلى البحرين وتسليمها إلى مايك التنجانيقي الذي طرد من البحرين يوم وصولنا لسوء البخت. وها أنا أحافظ عليها ولا أعرف ماذا أفعل بها. كتبت لثابت بن جارم سبع رسائل دفعت قيمة توصيلها مع مسافرين إلى مطرح أخبره بما حلَّ بصاحبه وأطلب منه النصيحة والأمر في تصريف الأمانة. واقترحت عليه في إحدى الرسائل أن أعود إلى سقر وأودع الأمانة في مكانها الأصلي تحت مدفن ضريح مولانا رشيد حمدان. ولم أستلم منه أي جواب. نشرت عند العمال والعَتَّالين وأصحاب العبَّارات: إن من يجلب لي رسالة معنونة باسمي له البشارة. ضعت في انتظاراتي، وتاهت الفكرة مني!

اشتدت الريح في تلك الليلة الباردة، وبدأت نكبة البحرين مع تناوح الرعد المدوي، لحقه مطر شتائي انهمر بقوة وغزارة. سمعت طرقاً على باب الكوخ الذي أحكمت إغلاقه. حاولت إخفاء الصرة، برق اللون الأحمر وأضاء الكوخ بسرعة خاطفة، وميض أغشى بصري. فتحت الباب ووجدت فاطمة وهي ترتعد وتنتفض من البرد والحُمَّى وعوارض الحمل. سألتني بريبة إن كنت قد أخفيت جوهرة أو هرَّبتها. فحلفت لها بروح والدي أنني كنت وحيداً. دخلت الكوخ، مبللة الجسد والثياب، ترتجف من البرد وعلى كاهلها يرزح ألمٍ ظاهر. تَلفَّتت في الكوخ لتتأكد من صدق قولي. ثم سقطت في حضني مغشياً عليها.

هدأت الريح والأمطار في الصباح، لكن الحارات والطرق فاضت بالماء والسيول، واستيقظت البحرين على إشاعة أن بحر الخليج ابتلع البَحَّارة والغواصة الذين دخلوا قبل أيام لاصطياد اللؤلؤ. إشاعة لم تتأخر الأخبار في إثبات صحتها ودقتها مع وصول سفن بخارية لشركة الهند الشرقية أفلتت من العاصفة، واستطاع البَحَّارة العاملون على ظهرها التقاط جثث بَحَّارة وغواصين خرجوا بسفن ومراكب من البحرين والأحساء والقطيف والكويت. انطلق النواطير وصبيان تجّار اللؤلؤ يطوفون ذائعين الخبر المفجع في الحارات والأسواق: لقد غَرِقت المراكب، مات الغواصون! بكت المحرق والمنامة أياماً طوالاً، وعجز الأهالي عن معرفة مَنْ مات ومن فقد، من عُثِر عليه طافحاً فوق الماء ومن تمَّ انتشال جثته، ومن رمت الأمواج بجثته بعيداً نحو القرى الشمالية للبحرين وعلى شواطئ الأحساء ودارين والزبارة. وطار في الآفاق خبر العثور على أصابع آدمية في بطون بعض الأسماك الكبيرة فامتنع الناس عن أكلها، وحرموا دخولها إلى بيوتهم. وبكينا، وبكت فاطمة، وبكت جوهرة، بكى تجار فارس والبحارنة والنجديون والعرب والعجم والهولة والهنود والبهرة ([13]). بكى الحدادة والصاغة والحائكون والقلافون والعطارون والفلاحون والنجارون والبناءون والنساجون. سميت هذه الفجيعة بسنة الطبعة. وصار سكان أرض البحرين يؤرخون لميلاد أبنائهم بهذه السنة. وكنتُ من بين هؤلاء، وقلت: ولد سنتها ابني رشيد من فاطمة، وابنتي وضحى من جوهرة، وحائرة وسعود اللذين ولدا قبل سنة الطبعة.

عند المساء وبينما البحرين تلملم حزنها على فقدها، أيقظتني فاطمة وهي خائفة:

انهض يا يوسف انهض.

ماذا هناك؟

انظر إلى نفسك؟

وكنت أسبح في عرقي، عارٍ بشكل كامل، ارتديت إزاري وقلت لها وأنا ألهث: رأيت حلماً بغيضاً؟ كنت عائداً من السوق، وبمجرد سيري على الطريق المؤدي إلى المنزل خرج عليّ من أحد الأزقة ثور من الجن، أسود وله قرنان عريضان، وبحذر مررت قربه، واستبعدت أن ينطحني ويمزق ثوبي وينشر الحروق في جسدي. حاولت الهروب منه لما استشعرت الشرَّ. دخلت في طريق آخر، وكان ينتظرني هناك. وكلما دخلت في طريق أراه مسدوداً بجسده الأسود الضخم. يقف باغتياظ وخُواره عالٍ. يضرب بقدميه، وعيناه الجمريتان تراقبانني وأرى فيهما بكاء رشيد. وبعد مطاردات طويلة تجردت

من ملابسي بشكل كامل. وأدركت أنها لحظتي الأخيرة في الحياة وينبغي أن أستسلم له فيكُفّ شَرِّه عن عيالي.

ناولتني إناء الماء الفخاري شربت وعسر التنفس يضايقني، وقالت: هو سحر معمول ومن ورائه مقصد كبير. حدجتها متفكراً وشربت من الماء مرة أخرى. رأيت في وجوه عبد الله وحائرة ورشيد طفولة متناثرة في عتمة الكوخ، وخوف ملائكة في قلب فاطمة، وبيان يشغل الذهن ويعذب الخاطر. تآزرت وأمسكت بالقنديل وأشعلت فتيله، فانبسط النور، سحبت ورقة من دفاتر العمل في المرفأ، وسطرت فيها أول كلماتي: «يا وارث حملي ومحتمل عذابي، قد أعلنت عجزي وقلة فهمي لهذا الأمر الصعب والغامض، واللّه إني رأيت في منامي ثوراً لم أشاهد مثله في حياتي، بين قرنيه فصٌّ له لمعة قرأت في صفائها طريقاً طويلاً من جبال سقر وصولاً إلى البحرين. إن كان هذا مقامي ومدفني فامنحني الإشارة وزوِّد قلبي بالعرفان فقد أضحيت وليد الجفاف في بلد تزيد فيه الرطوبة والمفاخذات والاغتيابات. أرشدني وألطف بي وبعيالي وبطعنة قلبي في المرأة التي أحب».

غفت فاطمة، وانطفأ فتيل القنديل، وبعناية طويت الصحيفة، وضممتها للمخطوطة داخل الصرة. أنفقت بقية الليل أحسب ما جمعت من مال، وأفكر كيف أخبر سيدي عبد العزيز برغبتي في السفر إلى سقر وتطليق جوهرة. مرت سبع سنوات، باتت فيها قريتي بعيدة جداً، وصرت عاجزاً عن وصفها لابني عبد الله أو رشيد أو ابنتي حائرة، وابنين آخرَيْن حملا اسمي، وليسا من صلبي هما سعود ووضحى!

ماجت البحرين في صباح يوم قائظ من شهر أغسطس في العام 1926م. اكتشفت أن مايك التنجانيقي عاد إلى البحرين منذ ثلاث سنوات، وأنه يعمل كحارس شخصي للشيخ في المحرق! كان ذلك يومَ فاحت إشاعة هيجان رجال البوليس وقيامهم بقتل البحرينيين بعد خبر مصرع المعتمد البريطاني في القلعة، مما دفع الكثير من أهالي المنامة لركوب العبّارات هرباً من الموت إلى جزيرة المحرق خوفاً من رجال البوليس الهنود والبلوش!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• فقير الحيلة:

ترعرعت فاطمة على تحمُّل النطحات من سكنة المضيف الذي يقوم على خدمة هذا الطريق المؤدي إلى غوادر. نطحة إثر نطحة، من والدها مصطفى ووالدتها بيبي وزوجتا عمَّيها الغائبين درهاتون وغلبيبي. وأرجعت أمها سبب ذلك إلى سُحُب الجراد التي سترت شمس مكران في ظهيرة يوم ميلادها.

قضى جدُّها سليم تلك الأيام ممسكاً بسعفة نخل يكنس بها الجراد في خيشة ثم يلقي به في قِدْر ممتلئة بالماء والملح أو يوقد النيران مساء فتقوم شواظ النار بالتقاطه. وقالت درهاتون: هذه مولودة نكد بسبب أمواج الجراد التي أحالت النهار ليلاً حتى أضاع المؤذن توقيت الفجر بسبب اختباء علاماته.

استمر الجراد بالانهمار سبعة أيام بالتمام، وخافت بيبي على ابنتها؛ لأنها لم تكن قادرة على إدرار الحليب. وتفاقم الأمر بانقطاعه بشكل كامل بعد اليوم الثالث من ولادتها. وحاول والدها مصطفى إرضاعها حليب البقر المخفف بالماء بعد تقطيره في قطعة قماش بيضاء. ولم تنجح هذه الحيلة. بكت أمها وقالت: هذه ليست لنا بل للجراد الذي نثره حوتٌ شرير في عرض البحر!

ونجح جدها سليم في استخراج عصارة من بطون الجراد المنقوع في الماء المملح المغلي. وقام بخلطها بماء عذب واستخدم القماش نفسه للتنقيط في فم فاطمة. تعلمت الرضيعة امتصاصه واستطابت مذاقه! وتشكل جسدها من عظام هشة وحوض شكّوا في قدرته على تربية الأطفال حال بلوغها وزواجها.

ويوم قفلت زينب عائدة إلى بيت والدها بعد انقضاء العدّة، استقبلتها فتاة ضامرة ويابسة العود فقيرة الحيلة تتعرض لنطحات تيس ظاناً أنها عنزة. انتشلتها من الحظيرة وبدأت في إعادة حساب يوم مولدها لتتعرف على طالعها. ورأت أن الحياة ستوقعها في دروب مضنية. وقامت من فورها بتأهيلها لتخطي الصعاب، وكانت افتتاحية الدروس تعليمها الصمت، ونجحت في ذلك بسبب تغلغل حليب الجراد في عظامها. والتقى فقير الحيلة بعديمة الحيلة في طريق رسمه سحر الجراد!

• تُحرق في ماء وتموت في ماء:

لم تَطُبْ لشير محمد الإقامة في مطرح كعادته السابقة. ولم يقم باختيار إحدى نسائها ليتزوجها مدة بقائه على هذه الأرض العمانية. لذا ما إن باع فاطمة آخر بضائعه الآدمية، حتى ركب القارب الصغير وذهب إلى المركب الذي يستعد للإبحار عائداً إلى مرفأ غوادر. قضى شير محمد بضع ساعات من النهار مع رُبّانها رمضان خان. تعدَّ لهما جُلَّنار أرجيلة من التُّنباك المخلوط مع

حشيشة الأفيون يدخنها على مهل حتى تضرب عقله ويشعر بالنعاس. بعدها يدخل قمرته وينام. وتظل ماهتون تطرق عليه الباب بعد أن عالجتها امرأة عمانية بأعشاب ومراهم أذهبت عنها الالتهابات وحرقان البول. وكان يعتذر لها بلطف لحزنه على فقدان ابنه أصغر نجيب.

طلب شير محمد من جُلَّنار زيادة كمية الأفيون، وأخبرها أنه يكاد يمزق جلده قبل ثيابه لو ظل على هذه الحال. ففعلت ما أمر به، بل زادت الكمية بأكثر مما يحتاج. أنهى تدخين الأرجيلة في أقل من ساعة. ولعب في دماغه نمل أبيض ينخر عادة خشب السفن. أمسك بندقيته وخرج إلى سطح السفينة وسأل أخته عن الرُّبّان وأخبرته: سيبيت ليلته في خانات مطرح. لمح براميل الكيروسين المحملة للبيع في مكران، ورأى أصغر نجيب يعتليها ويتبول تجاهه. وكانت خيوط بوله من قوّتها تصل إليه رغم بعده عنه. طلب منه التوقف عن ذلك. ولكن أصغر نجيب واصل فعلته وبإصرار لتفريغ مثانته على والده. ورغم محاولات جُلَّنار ثنيه وتهدئته وتأكيد عدم وجود من يتبول، لكنه كان مصراً ويزداد غضباً. أشهر بندقيته وأطلق رصاصة ثقبت برميل كيروسين انسكب على ظهر السفينة. هدَّدَ مرة أخرى، خافت جُلَّنار عواقب أفعال أخيها الحمقاء. وعضت في تلك الأثناء أصابع الندم على فَوَات حياتها كلها في رحلات ازدادت فيها المعاصي التي ستحملها معها في كتاب عند ملاقاة اللّه. وقررت أن تشتكيه إلى ربها؛ لأنه لم يزوجها، بل تركها تجهز له الصبايا والنساء، وتقضي حياتها كلها في تزيينهن وتنظيفهن وتلقينهن وتلبيسهن، ودس أنواع كثيرة من الأعشاب لإسقاط أجنتهن أو تضييق فروجهن. تشهدت وهي تراه يطلق النار فتهاوى القنديل على الكيروسين. اندفعت نحو مقدمة السفينة تنوي القفز بعيداً عن كل هذا الجنون. رأت شير محمد يتفحم واقفاً بعناده القديم. انتشر أجيج النار بسرعة فائقة مع وجود أكثر من عشرين برميلاً مملوءاً بالكيروسين. ارتفعت النيران إلى مستويات عالية رآها كل أهل مطرح. تراجعت جُلَّنار عن القفز وإنقاذ حياتها وقررت الذهاب إلى خالقها طاهرة مطهرة عبر هذا الجحيم الذي عليها الآن اجتيازه. جاء الانفجار قريباً منها، حلَّقت في الهواء مع البراميل والصناديق وسقطوا معاً في البحر. وظلت سفينة الرُّبّان رمضان خان تحترق حتى الفجر.

• المرأة التي أضاعت زوجها:

بلغت مزنه العاشرة حين زوَّجها عمُّها بحارب ذي الستة عشر عاماً، ووجب عليها الانتظار ستة أشهر كي تدخل سن النضج. وهو ما اكتشفه الزوجان فجأة بعد نزيف كاد يغرق متعتهما البالغة، وبعد أن أخبرتها الحكيمة أن هذا هو الحيض! وأنها ستكون الآن جاهزة لاستقبال جيوشه الوهمية لتأسيس عائلة رهيبة العدد. يواجه بها حياة سرقت عائلته في حريق تركه يتيماً في رعاية

المبشر توماس، الذي بدأ ينثر بذور التنصير في رأس حارب الفارغة. ورعا إنباتها وسقايتها فيما بعد الأب بيتر.

تستيقظ في الليل، تبحث عنه في الدار، ولا تجده. وتعثر عليه بعد مثابرة نائماً على جرف صخري حاد قرب الشاطئ دون ملابس أو بإزار يستر عورته. أشعلت البخور واللبان ورأت الملائكة تترنح من قوة الرائحة الصادرة من المجمرة. شكّت أن زوجها مغرم بامرأة أخرى. بحثت في صندوقه الخشبي ورأت صورة للسيدة المقدسة. بكت عند المبشر فضحك عليها كثيراً وطمأنها. إلا أنها كلما اقتربت منه تراه يختفي في جسده.

زارهم رحالة إنجليزي يشعل قنديله كل مساء ويفرش خرائط وكتباً وأوراقاً. تجلس مزنه إلى جواره حينما تفشل في العثور على زوجها، وتتأمل هندسته المغرية لها. وهي فتاة متفجرة بقناديل بحر تضيء جسدها، سمراء ناعمة الملمس، ذات زخم شمسي، وشعر مثل عرف مهرة، وعينين نجلاوين تلمعان تحت ضوء شعلته. أخذها وسارت معه إلى غرفته. أكمل رسم خرائطه على جسدها الهائج. قضت أيامها اللاحقة في الذهاب يومياً إلى الأفلاج تتطهر من معصية عذبتها وجعلتها تنسى غيابات زوجها المتكررة! حتى اكتشفت أن حارب موزَّع بين اثنين: واحد مسلم والآخر نصراني. وكلما استعطفته بصب مائه فيها شاغلته السيدة المقدسة.

ولحظة اكتشافهم موت الأب بيتر تفاجأت مزنه من رباطة جأش حارب وهو ماض في أمر استحوذ على عقله. أحضر السلَّم الخشبي وأسنده إلى الجدار قرب العمود الذي كان الأب معلقاً عليه بالمقلوب، وقطرات دمه تنزل مُشكّلة بقعة كبيرة. في البداية لم تصدق مزنه ما يفعله زوجها. وتوقعت بأنه سيمد يد العون لإنقاذ الأب بيتر. ولم تكن تدرك أنه فارق الحياة. وحاول ماثيو تشجيع البقية لإنزاله، ولكنه تفاجأ مثل الآخرين. مدَّ حارب يده، وببطء سحب السلسلة المنتهية بساعة جيب صغيرة من سترة الأب، ونزل من على السلَّم، وظل يتأمل حركة عقاربها بفرح غامر، فاغراً فاه ورذاذ لعاب يسيل. تجمَّد الجمع من هذا التصرف الغريب. وشهدوا بذلك عند استجوابهم من قبل الضباط الإنجليز التي دفعت بهم تصرفاته لاستدعاء طبيب لتشخيص حالته العقلية. وارتبك الطبيب نفسه من هذه الحالة الغريبة. فهو عاقل يستوعب ما يفعل، وهو مسيحي الديانة سلوكاً وشهادةً. واتفق كل من أقام في مدرسة العبيد المحررين بصحته العقلية حتى ماثيو نفسه جزم بذلك، ولكنه لم يغفل موضوع الغراب الذي يفقد عقله أحياناً فلا يعرف ماذا يفعل. أما مزنه فهي الوحيدة التي أفادت بأنه نسي عقله إلى جوار موقد نحاسي اعتادت أن تحرق فيه عسلوج نبات الصبر؛ فهذا الدخان جعلها قادرة على المضي معه في حياة

لم تتعرف فيها على الجنس إلا في لحظات الجنون الأولى التي سبقت بلوغها بستة أشهر.

جاء ثابت بن جارم بعد خروجهم من المعتقل، واصطحب أخته إلى مطرح. وطرح قضيتها أمام قاضٍ، وأحضر معه شهوداً لم يروا شيئاً سوى ما أخبرهم به. حكم القاضي بتطليقها من حارب لأنه نسي عقله قبل الدخول عليها. ثم طلب تزويجها له إلا أن ثابت اعتذر بسبب حالة أخته المستعصية، وقد أصبحت تنسى حتى مواعيد الصلاة. حزنت مزنه وظلت تشعل العسلوج وتنتظر طرق حارب أبوابها. وتيقنت من المسافرين الذين تدفع لهم ليأتوا لها بأخباره تبخر عقله، وتلويثه لشواطئ مسقط بصلاة نصرانية وأخرى مسلمة، وملاحقة الأطفال وضرب الكبار ونهر النساء له بعد قضاء ثلاث سنوات في السجن والإفراج عنه بسبب الخبل. وخرج لها ذات مساء بين الدخان، وهي تشعل الجمر وتضع الصبر أطفال عراة يشبهون حارب. وأيقنت أنهم أطفالها الفاسدون من مجامعات ما قبل بلوغها ونضوجها، قبل أن يعمل جسدها على تجميع بيضها في سلة مهملة فوق الرحم.

• طائر ليلي:

احْمَرَّ وَجْهُهُ وهو يرى أمه تلد أخته مزنه. خجل لأنه رآها مفتوحة بشكل كامل ورأس أخته يوشك على الخروج. انتبهت لوجوده سيدة من القرية. ذهبت نحوه وكان في العاشرة من عمره وقالت له: استعجل والدك. واحتفظ في رأسه بهذه الصورة وذهب ليخبر أباه. رأى رجلين يمسكان والده من طرفي يده ويشدانه بقوة وهو يقاوم. ويمسك رجل ثالث خنجره وهو يتلو عليه حكم القتل انتقاماً من قتل أخيهم. نحره بهدوء ومشى مبتعداً وهو يمسح الخنجر من دم القتيل بإزاره. انتفض أمامه للحظات، انتثر الدم على خشب مركب كبير قيد التنجير. أفلت الرجلان يديه فترنح وهو يسير نحو ابنه ثابت، ثم وقع على رمل الشاطئ الناعم. لفظ أنفاسه ومات.

جلس ثابت يتأمل والده طوال النهار. رأى سراطين صغيرة وهي تدخل فمه ثم تخرج ومعها سراطين أكبر حجماً وأبشع منظراً. تخرج صفاً صفاً ثم تفرد جناحيها وتطير. ذهل ثابت، ولم يكن يعرف أن السراطين يمكنها الطيران. عثر عليه أهله وأخبروه أن أمه ماتت وهي تلد أخته. حكى لأخويه الاثنين اللذين يكبرانه عن سراطين تطير وكانا يكذبانه. ويخبرهما أنه رأى رأس مزنه يطل من مهبل أمهم فيهُمان بضربه. بعد ذلك اختفيا من القرية بلا رجعة!

أصبح ثابت مسؤولاً عن مزنه، وهي مسؤولية لم يقم بها كما ينبغي. يقضي وقته معها في سرد حكاية قتل والدهما، وعن الثقب الهائل الذي أحدثه الخنجر في عنقه. وكيف تسللت السراطين الصغيرة إلى داخله. فأصيبت

الفتاة الصغيرة بالاضطراب، حتى جاءه عمه ومزنه دخلت عامها العاشرة، وأخبره أنه سيزوجها شاباً يتيماً ذا خلق كريم، مات أهله في حريق سَرَطَ أكواخ القرية الساكنة في أمان.

وأيقن أن مزنه نادرة الحسن لم تتزوج بل اختطفها الموج الغادر الذي يتسلل بين شهر وآخر إلى داخل أحواش بيوت القرية، ويغازل بناتهم، ويختطف الأكثر فتنة من بينهن. وحين تسللت إلى أنفه رائحة البحر، شكَّ في مكان تواجدها. ذهب للبحث عنها حتى تمكن منه التعب وضاعت من صدره الأفلاج، وزغلل الضوء عقله فحيّره. وفيما بعد، وجدوه على الشاطئ مغمى عليه. وبعد ثلاثة أيام أدرك أنه عرف طريق المنازل البحرية التي تسكن فيها ملائكة الأرض بعيداً عن الإنس. وكي لا يبوح بسرّهم أغروه بجناحين ليكون طائراً ليلياً.

• جوهرة:

سوداء لها غمازة لا يمكن تجاهل جمالها، متوسطة الطول ولكنها أطول من نصف رجال حارة الفاضل، تسير دون عباءة؛ لأنها عبد ة، ولا يسمح للعبد ة بالستر، وعليها أن تكون مفضوحة وواضحة للناظر. تنظر إليها وهي تسير فترى: امتلاء ثدييها وبروز حلمتيها، وضخامة أردافها، كل هذا يجب أن يظل جلياً وظاهراً للعيان. فوق ذلك فهي تمتاز بلازمة واضحة تتكرر على لسانها كلما تحدثت أو علقت أو أخبرت أو نقلت خبراً أو كذبت أو قالت الصدق. لازمة يعرفها الجميع، أحياناً تكون محببة ومقبولة؛ لأنها تأتي في سياق من المزاح وتأجيج المخيلة، وأحياناً تجلب الاستهجان والتصغير أو المعايرة. لازمتها المعروفة من الجميع هي أن تنهي جملتها أو تعليقها بكلمتين إضافيتين؛ «وأنت تعرف»!

تَعْلم كل شيء، أسرار العائلات في حارة الفاضل والحارات المحيطة: مَنْ حملت من سيدها، من أسقطت جنينها سرّاً، من رمى طلقة واحدة، ومن رمى ثلاثاً، ومن فضّت بكارتها، ومن فضحت دسائسه. تدبر شؤون المنزل الكبير، وتدير شؤون العبيد والإماء. تراقب غرف سيّدها وتصونها، تحرق بخور اللّبان لطرد الشياطين الحاسدة، وتشعل العود الكمبودي عند استضافة التجار والضيوف. ترتب له خلوته عندما يرغب في تغيير وسادته. امرأة مُسارَّة، عذبة الكلام لمن تريد، سليطة على من تجفو، رقيقة ولينة وعطوف ولبقة. ذكاؤها الحاد صقل رأيها وحكمتها وخفة دمها.

في هذه المعرفة لغز جوهرة الأصلي. فتاة حبشية تسابق على شرائها تجار من جدة. تعرف قيمتها كلما وقفت وتأملت جسدها في مرآة كبيرة وضعت في الدار المخصصة لخدمة سيدها الأول الذي اشتراها من قرية بعيدة لا يصلها القمر، ونجح في فَكّ عذريتها بعد أن سهر عليها تسع عشرة ليلة. وقال

عنها في يوم المزاد: فتاة عصية على الفتح، لها عالم لم أره من قبل، تزدهر فيه ورود عباد الشمس وتَمِيل معك كلما ملت، تكون لها الشمس وتكون لك جوهرة من الجنة.

• ينظر باتجاهي:

لم يفكر ذلك الشاب التنجانيقي المقيد في عربة يدفعها عَتّال باتجاه مرفأ المنامة محاطاً بالحراسة في الهرب، موقناً أن الرب الذي تعارف معه في مدرسة العبيد المحررين، وصلوات الأب بيتر سيتكفل بنجاته. شاب تَشرَّب عذابات الرب يسوع وهو يتأمله طوال سنوات حياته في صفحات الإنجيل والترانيم. نظر مايك نحو يوسف، وعرف أن هذا الشاب جاء البحرين يقصده، وعليه في هذه اللحظة أن يسرد له حكايته قبل أن تغدر به الحياة وتنقلب عليه. التقت نظراتهما في لحظة سريعة حاملة الكثير من الأسئلة. وكما كتب في أوراقه:

من أوراق السنة الأولى العام 1911:

قبل اكتمال الشهرين المقررين لبقائي في البحرين طلبت لقاء الأب صموئيل الذي أجلسني على مصطبة في الحوش المزين بأقواس مبنية من الجص في المستشفى، نستقبل هبوب رياح الشمال اللطيفة. وعلى يمين المستشفى يُشَطّب العمال مبنى جديداً له برج هوائي. سألني:

أنت تود البقاء والعمل معنا، أليس كذلك؟

نعم يا سيدي.

ثم أشار إلى المبنى وأخبرني بأنه سيكون الكنيسة التابعة للمستشفى. فرحت وشكرت الرب على النعمة. كنيسة كبيرة لم أبصر مثلها في حياتي. وسألني أي الأعمال تناسبني، فتركت له أمرها. نهض مسرعاً لمساعدة رجل عجوز ينوي النزول على العتبات، ثم عاد وقال لي: سوف ننشئ مكتبة لترويج وبيع الأناجيل وأريدك أن تعمل فيها. ما رأيك؟ وافقت بسرعة، واستأذنته بالبقاء في الغرفة الحالية حيث أسكن حالياً فوق المبنى المخصص لإيواء الأيتام والأطفال مجهولي الأبوين لحين عثوري على سكن فوافق.

تركته ودخلت المستشفى أبحث عن روث دون أن أكون واعياً بما أريده منها. وجدتها متوترة وهي تحاول إنقاذ طفلة قروية صغيرة تعاني من نزيف وتسمم بسبب ختانها. سألتني عن مبتغاي، فاعتذرت منها وغادرت. نادت الطبيب جيمس لمساعدتها فوقف في وجهه والد الفتاة رافضاً الكشف عليها. حذرته روث أن ابنته فقدت الكثير من الدم، وأنها تعاني من التهابات متعفنة، ولكنه لم يوافق. عدت إلى الحوش وجلست أتأمل الكنيسة الجديدة وأتخيل نفسي

ببنطال وقميص أبيضين أرتب الأناجيل وأبيعها. صحوت على نحيب الممرضة روث، استفسرت منها، فردَّت عليّ وهي تواصل بكاءها أن الفتاة القروية ماتت. في الليل وأنا على سريري الخشبي تخيلت أنني أحضنها وهي تبكي على صدري.

من أوراق السنة الثالثة العام 1913م:

مرت عليّ سنتان ونصف السنة لم أستطع أن أصارح روث بمشاعري نحوها، وأعتقد أنها تواجه الصراع نفسه! كيف يمكن لبيضاء مثل ملاك أن تبوح بحبها لشاب أسود! دون خجل أو خوف؛ أفشينا حبنا لبعضنا البعض.

قررت البعثة الأمريكية الاحتفال برأس السنة الميلادية فوق سطح المبنى المخصص لإيواء الأيتام ولمجهولي الأبوين. شربنا في تلك الليلة الكثير من النبيذ المعصور في شيراز. ووجدت نفسي مع روث في الغرفة الصغيرة التي سبق أن سكنت فيها أكثر من ستة أشهر قبل أن أستأجر غرفة في خان صغير غير بعيد عن منطقة العبَّارات بين المنامة والمحرق. حوتنا الغرفة، وكنا على مرمى قُبْلة ترددنا وعجزنا في اختطافها لثقل لوني عليّ وعليها. وخوفي من الخطيئة.

من أوراق السنة السادسة العام 1916م:

عزمنا على العيش بنقاء عذري في علاقة أكملت هذه الليلة ثلاث سنوات. لم نغفر لعاطفتنا الثقيلة ونحن نحملها على ظهرنا، حاولنا أن نتخفف من غلاظتها، وأن نمضي بحياتنا. قَلْبانا يعرقلان كل خططنا العاقلة.

كنت أنتظرها كل ضحى عند مرفأ العبّارات، نركب قارباً شراعياً ونذهب إلى جزيرة المحرق. نسير في سوقها الصغير، نشتري الحلوى الهندية ثم نركب الحمير أو البغال ونسير إلى قرية عراد الساحلية. نستأجر كوخاً من السعف ونقضي النهار كله حول الشاطئ أو داخل الكوخ أو في التنقيب في آثار قلعة قديمة تقع في الجهة الشمالية الغربية من عراد وتمتد خلفها غابة من البساتين. وتكون أجمل لحظاتنا عندما نختلي فيها بأنفسنا، أنقياء، عذريين، نفكر في كيفية خلاصنا من عذاب هذا الحب الذي يزيدنا قرباً من بعضنا البعض. باحت بألمها إلى إيمي زوجة الأب صموئيل، وأخبرتها عن رغبتنا بالزواج. هاجت إيمي ورددت أنها معصية لا تقع إلا في البلاد الحارة، وأنها سببت لروث عاهة مستدامة في عقلها، وسوف تطلب من البعثة إرسالها إلى ولاية بيروت.

بكت روث لياليها حين عرفت بقيام الأب صموئيل بطردي من العمل في المكتبة. وأصبحت بلا عمل، ومنعت من دخول الكنيسة. صرت أركب العبّارة

كل أسبوع وأذهب إلى جزيرة المحرق وأطوف على أكواخ السعف وأجلس على طرف القلعة الأثرية أتأمل حالنا وأصلي إلى الرب. أما بقية الأيام فكنت أعمل عَتّالاً في مرفأ المنامة أو عند مرفأ العبّارات، أكسب قوت يومي أو أقل.

اقترح صديقي الحبشي فرحان العمل معه، وهو يعزف العود ويغني للشيخ في ليالي السمر، ويقوم بضبط المصروفات الخاصة بالخدم والماشية. استدعاني فرحان حيث كنت أقف إلى جوار صبّاب القهوة في الخارج بسبب تغيُّب الكاتب والمترجم. قرأت وترجمت للشيخ رسالة التاجر المالاباري الحاضر في المجلس. ثم أصبحت وسيطاً في حديثهما ومترجماً مباشراً، وبعد مغادرة الضيف سألني أين أعمل، فأخبرته وتكتمت عن قصتي مع روث. هز رأسه ولعن الإنجليز همساً.

حدث تراشق ناري عند مبنى الجمارك، بعد يومين، بينما كنت أساعد فرحان في حمل حوائج تحوي علف الخيل والغنم وثلاثة أكياس من الرز وخمسة من الشعير وطيَّة حبال واثني عشر إمداد حصر على كتفي، وبرفقتنا نساء من حاشيته. اندفعتُ لإنقاذ النساء من موت محتمل، وساعدتهن على الصعود بسرعة في قارب خاص والإبحار بعيداً بسبب هذا النزاع المفاجئ بين مجموعة من فداوية ([14]) تجار من الفرس والنجديين. وحين عرف الشيخ بذلك أجلسني إلى جواره وطلب مني العمل كحارس شخصي لحاشيته، فوافقت.

تركت الخان في المنامة وانتقلت إلى الأكواخ وبيوت السعف المبنية للخدم والعاملين عند الشيخ في جزيرة المحرق. كذبت روث على إيمي بأنني غادرت البحرين عائداً إلى مسقط. وأصبحنا نلتقي في فترات متباعدة وسط تدابير سرية كثيرة!

من أوراق السنة التاسعة العام 1920م:

عرفت في اليوم الذي استدعاني فيه الشيخ وصول الخبر إلى دار الاعتماد البريطانية، وأن روث غدت بعيدة المنال. الضغوطات كثيرة عليه وهو لا يحتاج إلى حكاية شاب أسود يعشق إحدى رعايا الإنجليز، وقال لي بانكسار: لن أستطيع المحافظة عليك، سوف تُرحَّل قريباً. حاولت معرفة الحكاية وحيثيات التهمة. وكانت الأبواب موصدة. أرسلت عسساً من طرف فرحان، وجاءوا بقصة خلع روث ثياب التمريض البيضاء، وإعلانها العصيان على الكنيسة، وأنهم حملوها كرهاً على بارجة حربية غادرت إلى بيروت.

أحاط جنود دار الاعتماد البريطانية بالكوخ، وسمح لهم الفداوية بالدخول. وضعوا السلاسل في يدي وكاحلي وجرجرت إلى العبّارة ثم شدوا وثاقي على

ظهر بغل ومنه إلى سجن القلعة في المنامة. سنتان في السجن عشّش في قلبي بسببهما شعور بخيبة الأمل. قضيتهما لا أرى سوى روث جالسة على تلة في صحراء مجدبة. أقترب منها وأسألها: إلى أين مضيت يا حبيبتي؟ وتجيب: إلى الخطيئة. سنتان أردد فيهما صلوات الأب بيتر؛ ولكنها لم تجدِ نفعاً. وأخيراً جاء الأمر بالترحيل فلم أعارض أو أرفض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
بيت البَسّاسة

- 1 -

لم يكن جيكوب يقدر قيمة صَكّ الحرية الذي يحمله في حقيبة جلدية صغيرة قدمها له ماثيو هدية قبل سفره إلى زنجبار. زَجَّ جيكوب في الحقيبة بعض ما يحتاج إليه من أوراق رسمية أخرى مختومة من مكتب القنصلية البريطانية. ولم ينس أن يحمل معه كتاب المسلمين الذي أهداه إليه رجل مطرح ثابت بن جارم. انضم للعمل بصفة مؤقتة في باخرة تجارية تعمل ضمن أسطول شركة الهند الشرقية. تحركت الباخرة من مسقط في طريقها إلى بريطانيا عن طريق البحر الأحمر وقناة السويس، قبل أن تتوقف في مرفأ حضرموت ومن ثم عدن وصولاً إلى جدة لإنزال حمولتها التجارية من البضائع والمسافرين. حاول الاعتياد على تلاطم أمواج سببت له الغثيان ودوار البحر حتى ظهرت جبال وبيوت عدن بطرزها البهية بعد أربعة أيام من الإبحار. توقفت السفينة لمدة يومين ولم يسمح له بالنزول إلى اليابسة، فأمضى نهاره جالساً على الطرف المقابل للمدينة وهو يتأملها بدقة.

ركب بعض المسافرين الجدد؛ بريطانيون وهولنديون وفرنسي واحد. وحاشية كبيرة ترافق أميرة إنجليزية ما إن صعدت حتى وقفت تبكي وهي تودّع عدن! وقبل تحرك السفينة طلب القبطان البريطاني تقديم التحية للأميرة الشابة الواقفة تحت مستظل وسجاد أحمر. بدت بالنسبة لجيكوب وكأنها ملاك قرأ عنه في المزامير، ولم يكن يتخيل مصادفة آدمية مثلها. اصطف جميع العاملين على الباخرة، وأطلقت المدفعية سبع طلقات. تقدم بعدها الإنجليز والفرنسي والهولنديون وغيرهم للسلام عليها ومصافحتها، وتُرك جيكوب وبقية العاملين الهنود في مؤخرة الطابور. وصل دوره وكان الخدم قد ثبتّوا لها الكاميرا. انحنى ونطق بلكنة أمريكية ميزتها الأميرة بسرعة، متمنياً لها تصويراً موفقاً، فسألته:

هل تفهم في التصوير؟

أحبُّ تأمل الصور يا سيدتي.

ومن أين تأتي بالصور لتتأملها؟

كنت طالباً في مدرسة العبيد المحررين في مسقط يا سيدتي.

وأخرج لها صورة يظهر فيها واقفاً قرب مجموعة من الشباب العبيد الذين يشبهونه في الملامح، سود البشرة، ولهم شفاه غليظة. ويرتدي بنطالاً وقميصاً كما يلبس المسيحيون ويعتمر طربوشاً تركياً. ظلت تتأملها طويلاً، ثم أعادتها إليه، فانحنى احتراماً وابتعد.

عند الفجر، عبرت الباخرة مضيق باب المندب. بدأ جيكوب نهاره بشطف مؤخرة الباخرة بماء البحر وتنظيفها بمكنسة بمساعدة عامل هندي آخر. تقدم منه مساعد القبطان وعرض عليه طلب الأميرة بتصويره شبه عار إلا أنه أبى. أوضح له مساعد القبطان أنه يقصد عاري الصدر، ومقابل جنيه إنجليزي، رفض الفكرة مرة أخرى مبرراً أن الرب لا يحب كشف الجسد إلا أن العامل الهندي أقنعه أن هذا الجنيه من الممكن أن يوفر له سكناً في جدة لمدة أسبوع. ظلت الفكرة تحوم في عقله حتى انتصف النهار فذهب بنفسه وهي محاطة بحاشيتها. وقف أمام الكاميرا وخلع قميصه أمام دهشتها. وعمل في المدة المتبقية للوصول إلى مرفأ جدة كعارض للأميرة الشغوفة في التقاط العديد من الصور له وهو عاري الصدر، إضافة إلى عمله على سطح السفينة في الكنس أو طي الحبال أو إعادة صناديق تحركت من مكانها بسبب حركة الأمواج القوية. ووجدت الأميرة في سيرته الخصبة فرصة لتدوين ما يقوله عن الطفل الذي عاش في أدغال تنجانيقا قبل أن يقع في أسر صائدي الأطفال ويُشحن مع آخرين في عَبّارة إلى ستون تاون مكبلين بالحبال حتى أخذتهم سفينة لبيعهم وتفاصيل نكبتها، ومن ثمَّ إنقاذهم من قبل البارجة الإنجليزية فيكتوريا، وحياته في مسقط تحت رعاية الأب بيتر الذي استبدل اسمه. ظلت تسجل الأميرة ملاحظاتها في دفتر خاص باهتمام بالغ حتى سألته:

لماذا ستنزل في جدة؟

سأتحول إلى الإسلام.

سألته:

وتترك المسيحية؟

فكرت ثم اقترحت عليه أن يرافقها إلى إنجلترا، والعمل ضمن حاشيتها، ومساعدتها بسرده اللافت على كتابة سيرته. ولكنه تأسف بلطف؛ فهدفه الآن نطق الشهادة وتوثيق إسلامه في مكة بعد نزوله في المحطة القادمة تأملته ورأت في وجهه كما كتبت لاحقاً: طفل تائه ابتسمت وقالت: حينما نفرغ من تأليف الكتاب تعود إلى هذه المنطقة وتعلن إسلامك! وسأنقدك مكافأة سخية. اعتذر بلباقة ثم انسحب باحترام. تناول المكنسة وذهب لعمله. في تلك الليلة هرب النوم من جفونه.

ظهرت جدة ببيوتها ذات الطوابق الأربعة المبنية من الحجر والطين والجص. تبدو مثل منارة تطل على مياه البحر الأحمر. جاءت القوارب المهيأة لتفريغ البضائع من الباخرة إلى المرفأ. أنزلت صناديق الشاي والرز والبهارات والسكر. ترجّل مسافرون هنود وعجم وعرب من بر فارس وعمانيون ونجديون يتاجرون بين الهند والحجاز. انحنى جيكوب مودعاً الأميرة، وعندما

مدت يدها نحوه صافحها بلطف وقَبَّل ظاهرها، ونزل من السفينة. لَوَّح لها، وودعها بحرارة، وتردد وهو في القارب الذي سيرميه على سواحل جدة في العودة والموافقة على عرضها الذي سيغير حياته، ولكنه سيبقيه على دِين لم يختره بنفسه.

كان مرفأ جدة آهلاً بالمعتمرين الذين يأتون عن طريق البحر لأداء المناسك. أما جيكوب ففي قلبه شوق للإسراع بركوب الإبل ومواصلة الطريق نحو مكة. إلا أن عمالاً نصحوه بالراحة في جدة بسبب تعارض سفر البحر مع سفر البر. وأن الأول محكوم بالموج ويذهب بالعقل مع ارتداد ماء المخ، ويتعارض مع الثاني وما يفعله من حركة ارتجاعية بسبب حركة الإبل في طريقة سيرها المعوجة وهو في طريقه نحو مكة مما ينتج عنه جنونٌ طفيفٌ يُصَيِّعُ فيه الآدمي صوابه وصحة كلامه. نصحوه، إن نوى مقابلة رب المسلمين وهو في كامل عقله أن يرتاح مدة يومين في أحد الخانات المنتشرة في حارات جدة، فاختار واحداً قريباً من ساحةٍ تتجمع فيها قوافل الحجيج والشقادف وهي تستقبل المسافرين بعد أن سَلَّم على حواء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

انطلقت قافلة من الشقادف بعد صلاة الفجر على ظهور الإبل، تحمل الحجاج من التجّار ونسائهم، وتجر عربة يجلس فيها نحو عشرة أشخاص. أما جيكوب ومجموعة أخرى من عرب عدن وحضرموت فيسيرون في مؤخرة القافلة على أقدامهم، ويصدف سقوط بعضهم من التعب والإعياء. ويصبح التوقف في محطات الإستراحة فرصة للراحة واسترجاع بعض العافية لإكمال الطريق نحو بيت اللّه. وصلت القافلة إلى مشارف مكة، سلسلة من الجبال تخفي كنزاً عظيماً، كما كان يقول مسافر تركي يرتدي عمامة بيضاء ويحمل تحت خصره دفتراً كبيراً. يتحدث ويبكي، وبلسان أعجمي يشير إلى جموع القافلة صارخاً: انظروا إلى جبل أبي قبيس، وذاك مسجد بلال. انظروا هناك، نعم هناك، حيث أمر اللّه رسوله بأن يقرأ.. إنه جبل النور، وهناك، هناك حيث قال لصاحبه إن اللّه معنا.. إنه جبل ثور.. وكان كلامه كافياً لجعل النساء والرجال يبكون ويكبّرون.

تراكض العتَّالون والصنّاع وأصحاب الخانات في جذب المسافرين الباحثين عن مكان لإقامتهم. تصفح جيكوب هذا الخليط البشري الرهيب، حيث السود والبيض والصفر في كل مكان. كلٌّ يعرض خدماته في توفير السكن أو مرافقة المعتمرين وشرح سبل وطرائق العمرة حسب المذاهب الإسلامية المختلفة. وسعد جيكوب سعادة بالغة وهو يرى من يتحدث لغته السواحلية وينادي عارضاً خدماته. اقترب منه رجل من عرب زنجبار ويدعى عيسى النجار. استغرب وهو يرى أمامه رجلاً أفريقياً أسود اللون ذا أنف مفلطح يتحدث السواحلية فسأله:

من أين أنت؟

أنا من مسقط.

هل أنت عبد أم حُرّ؟

أنا حُرّ!

اطمئن إليه وعرض خدماته فقبل بها جيكوب. وسارا معاً. شرح عيسى النجار أسباب إقامته في مكة حيث تعرضت قافلته قبل ستة أشهر للسطو، وهو يسعى حالياً لجمع مصاريف عودته من خلال عمله عند تاجر من بخارى يدعى محمود بخاري، يملك خاناً يسكن فيه الكثير من المسافرين القادمين من طشقند وبخارى وبعض الأتراك والشاميين والفرس.

أهل مكة خليط مبرقش من قوميات وأعراق تدين بالإسلام، مالاويون وأحباش وفرس ومصريون وهنود ودمشقيون وبغداديون وبدو وأفارقة وأتراك

وأوزبك وتتر وسواهم. ويمكن ملاحظة الصنَّاع والتجّار وأصحاب العلم. كانت عينا جيكوب تبتهجان وهما تريان الصناع والبناءين الذين يلبسون الثوب الأبيض أو الأزرق ويحتزم الواحد منهم بحزام، والعلماء وخطباء المسجد الحرام أو أئمته يرتدون الثياب البيض ويلبسون العمامة المطوية بطريقة عجيبة وهي تجلس فوق الرأس. مرَّ قربه رجل تتميز عمامته باللون الأخضر فسأل عنه جيكوب:

لماذا يرتدي هذا الرجل عمامة خضراء؟

فقال له عيسى دون أن يلتفت:

إنه من الأشراف.

ومن هم الأشراف؟

امتنع عيسى النجار عن إجابته، حتى توقفا أمام باب خان أبيض اللون يتكون من ثلاثة طوابق مبني من الحجر والطين وتمتاز واجهته بشرفات مصنوعة من الخشب. ذهب عيسى ليأخذ موافقة صاحب الخان محمود بخاري؛ وكان رجلاً أبيض تزداد وجنته احمراراً كلما تحدث. وقف أمامه جيكوب فطلب منه صاحب الخان الذي شكَّ في أمره ولم يأنس له الدفع مقدماً لتغطية تكاليف مدة بقائه. ولما تناهى إلى علمه أن جيكوب مسيحي ينوي الدخول في دين اللّه سعد بذلك وأخبره أنه سيتكفل بتسهيل ذلك طالما أنه حُرٌّ وليس عبد آ. وضع جيكوب صَكّ حريته أمام محمود بخاري وطلب منه الاحتفاظ به فهو لن يحتاج إليه ما دام في بلاد المسلمين. عندها ضحك محمود بخاري ضحكة مجلجلة وقال: أنت لا تفقه أين رمى بك الدهر يا ابن الأرض.

عاش جيكوب لحظة لا توصف من الحبور، لا يدركها من لم تطأ قدمه هذه الأرض المقدسة. طاف به حلم مشرق بالصور الزاهرة وهو في صحن الحرم المكي يخدم الحجيج والمعتمرين. وتمثلت إحداها في لحظة اختياره اسماً إسلامياً يطلق عليه. وجاء في خاطره أن يُدعى محمداً، ولم يستطع أن يبعد عنه هذا الاسم، بل وجد فيه الكثير من المعاني الملائمة، وهو الأسود الذي يشبه بلال مؤذن الرسول.

انطلق أذان الفجر ولم يستطع كبح نفسه عن البكاء، وتمنى القيام بدور مؤذن المسلمين. وشعر بالجذل حين تحول نداء الصلاة إلى صوته هو بنبرته وخشونته وعجمته السواحلية. سحبه الاشتياق ولم ينتظر حتى يستيقظ محمود بخاري وعيسى النجار للذهاب معاً لأداء صلاة الفجر والاستعداد بعد ذلك للذهاب إلى دار المسلمين حيث يقف ويعلن إسلامه ويكون محمود وعيسى شاهدين على صدق نواياه بالدخول في هذا الدين.

الطرق المؤدية إلى الحرم هادئة مع هذا الفجر الكسول إلا من خَفْق نعل خشبية تطرق صخر مكة، وخفة رجال حفاة يسيرون مع أحلامهم في اطمئنان نحو الحرم، حتى سمع جيكوب صوتاً جهيراً يأمره بالتوقف، وأدرك أن الأمر لم يكن موجهاً له؛ فَواصلَ السيرَ حتى تجاوزه صبي أفريقي شبه عارٍ هرباً من أمر ما، تبعته طلقة بندقية مُدوِّية أخطأت الصبي وأصابت جيكوب وأسقطته على وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

فتح جيكوب عينيه مدركاً أنه ليس في الحرم المكّي. رأى عيوناً هلعة ومصابة بالخوف ومهددة بالموت تحدق فيه. شعر بألم حاد في كاحله حيث تسكن رصاصة يتذكر أنها انطلقت في لحظة ما وهو في طريقه لصلاة الفجر. قيدت قدمه الأخرى بحبل من مسد. أحداق كثيرة ووجوه عديدة تعاينه وهو في الأسر بينما صوت ينادي على صبية معروضة للبيع: انظروا إلى هذه الصبية الحسناء، بكر، عذراء نجيبة، جارية مطيعة، خادمة نصوحة، سهلة وممتعة. من يسمعني قروشه فالحكيم واقف هنا رهن إشارتكم. يقف على يسار جيكوب ما يقرب من ثلاثين شاباً أفريقياً من مناطق مختلفة. تجلس الفتيات والنساء على مقعد خشبي طويل ملاصق لجدار الحرم، والبالغات يرتدين حجاباً خفيفاً لا يستر الكثير. ويقوم رجل قيل إنه حكيم بفحص الأولاد والغلمان والفتيات للمشترين قبل الدفع وإتمام الشراء. حكيم ينتظر موافقة المشتري وإشارة الدَّلاَّل بعصاه على الفتاة أو الصبي أو الرجل المراد بيعه حتى يقوم بعمله بفحص شعره إن كان مترعاً بالقمل والصيبان، ويكشف عن الأسنان وصلابتها، ويطلب من المفحوص فتح فمه وإخراج لسانه. يفحص البطن المكشوف للأولاد والرجال شبه العراة، ويكشف على الفخذ والقدمين والأصابع ويعلن بصوت مرتفع عن صحة هذا الولد أو الفتاة. وهو يردد: قروش حلال. فيسمع الجميع رمي القروش والدراهم في كف الدَّلاَّل الذي يعدُّها علانية ويعلن البيع.

من هذا الباب المبارك، باب الدريبة حيث الكعبة المشرفة، هذا ما حلَّله اللّه لخدمتكم يا عبيد الله.. رقيق وجوارٍ مباحة وكريمة. دَّلاَّل ينادي بأعلى صوت على العبيد المصطفين قرب جيكوب الذي تكوم على نفسه وبدأ يهذي بالسواحلية. عندها أمره بالوقوف، فوقف جيكوب بصعوبة مما أثار إعجاب بعض المتسوقين والمتفرجين، وهو الرجل القوي. وقبل أن يُدلَّل عليه صرخ جيكوب موضحاً سبب وجوده في مكة. صمت الدَّلاَّل والتفت نحو سيده مستفسراً. شَكَّ تاجر العبيد بأمر هذا العبد، ولا يتذكر إن كان قد رآه سابقاً ثم طمأن نفسه بأن العبيد يتشابهون. كلما نادى الدَّلاَّل ردَّ عليه جيكوب بأنه حرٌّ وليس عبد اً، وأنه هنا لإعلان إسلامه برغبة حرة منحها له رب المسلمين، فينفر منه المشترون أو يبحثون عن غيره من المعروضين للبيع. ترك جانباً واستأنف تسويق بقية الصبايا والنساء والأولاد والرجال حتى قارب المساء ودخل وقت صلاة العشاء. قام الحراس بتقييد جميع العبيد في سلسلة واحدة. هنا اقترح جيكوب على الدَّلاَّل تصديق كلامه وله مقابل ذلك جنيه إنجليزي، فضحك الدَّلاَّل وسأله:

ومن أين لك بالجنيه؟

موجود في خان محمود بخاري مع حاجاتي.

ولكنك عبد حتى يقول أحد غير ذلك.

لك الجنيه إن سألت عني عند محمود بخاري.

وهل تريدني أن أصدق كلامك؟

بيني وبينك بيت اللّه، وليس لدي شيء إلا القرآن إن أردت أن أقسم عليه.

ستذهب الآن مع بقية الرقيق، وبعد صلاة العشاء سأبحث عن الخان. ما اسمه؟

خان محمود بخاري.

اقتيد جيكوب مع بقية الرقيق والجواري وسَكَن إلى الحكيم الذي أخرج الرصاصة من قدمه وعالجه بشكل سريع كي لا تفوته الصلاة.

يتحدث الأولاد والرجال بلغات أخرى غير السواحلية. اكتشف جيكوب أن أرض أفريقيا شاسعة، وهذا المزيج من الألسنة جاء من عمق القارة، ومن النوبة، ومن الساحل الشرقي لها. وتفاجأ بوجود موانئ كثيرة تُصدّر هؤلاء الفتيان والفتيات، من زنجبار والحبشة وتاجورة وزيلع وبربرة ومصوّع إلى موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي ومسقط ومطرح، بل هناك عناصر بيضاء وسمراء يؤتى بها من القوقاز وفارس وبلوشستان وكشمير وجاوه وبومباي. وتزداد شراسة هذه التّجارة في مواسم الحج! كل جنس قابل للبيع، لاسيما الفتيات اللاتي يتكالب عليهن التجّار الباحثون عن ألوان أخرى لمخادعهم.

ومع انتصاف الليل وعدم عودة الدَّلاَّل بأي خبر، فقد جيكوب الأمل بالنجاة وفكر في الهرب، وقرر القيام بذلك في منتصف النهار وأمام أعين الناس ووسط السوق علَّهم يُحاسبون على فِعلتهم به وبالآخرين باصطيادهم بهذا الشكل المهين، خصوصاً لمن يأتون قاصدين بيت اللّه. ومع حلول الفجر جاء الحراس لاقتياد العبيد مرة أخرى إلى السوق قرب باب الدريبة، وما إن سار بهم في الطريق حتى سمع صوت الدَّلاَّل يطلب من الحراس التوقف.

التفت جيكوب ورأى عيسى النجار، ففرح ونادى بصوت مرتفع: أنقذني يا عيسى. عرض محمود بخاري على التاجر صَكّ الحرية الخاص بجيكوب. وهنا أمر التاجر بإطلاق سراحه، ولكن الدَّلاَّل رفض ذلك وقال بصوت مسموع: لقد وعدني بجنيه إنجليزي لو أنقذته، وها أنا أفعل ولي المكافأة. دفع التاجر محمود بخاري المبلغ، وساعد عيسى النجار جيكوب على العودة إلى الخان، وهناك خضع لمعالجة حقيقية من الرصاصة. وقضى أسبوعاً ينصت لنداء صلاة

الفجر يتردد صداه في الأرجاء وكأن الصوت صوته هو، وتخيل نفسه واقفاً على جبل أبي قبيس، وهذا ما عذّبه كثيراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

مرت الأيام ثقيلة على جيكوب وهو يقيم في غرفة خصصها له محمود بخاري فوق سطح الخان. قلبه يهفو نحو الكعبة القريبة من موقع سكنه بخطوات قليلة. تذكر والده الأب بيتر الذي لم يمنعه من تغيير دينه، وإن أبدى له عدم ارتياحه. يجلس معه عيسى النجار للحديث عن مطرح ومسقط وعن رائحة البحر والبيوت والأسواق. وبين يوم وآخر كان يسأل عيسى: متى يحين الوقت؟ انتظر لا تستعجل؛ هو الردُّ المتواتر.

استيقظ فجراً على خطوات تصعد السلَّم الخشبي المؤدي إلى سطح الخان، ظن أن عيسى النجار قد عاد من صلاة الفجر إلا أنه سمع صوت محمود بخاري ينادي: جيكوب، انهض. تقدم محمود بخاري بصمت، بينما كان عيسى يسير محاذياً لجيكوب الذي يرشح عرقاً وتزداد دقات قلبه وهو في شوق لرؤية بيت اللّه، في فجر مشرق بنداوة تهبط مع بعض الرياح الناعمة والجافة.

اقتربوا من باب الدريبة وبعض التّجار يصفون عبيدهم وجواريهم للعرض على دكة السوق. شعر جيكوب بانقباض في معدته. شَدّ على يد عيسى الذي عرف ما يعانيه هذا الشاب الأسود. رأى حبشيات صغيرات بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهن يقفن، وعيونهن على جيكوب الذي مرَّ قربهن وشعر بندائهن الداخلي. سحبه عيسى بقوة، فوجد نفسه داخل الحرم المكي. هالته لحظة سقوط أشعة الشمس في هذا الصباح وهي تمتد من طرف إحدى مآذن المسجد، وتمتد بنورها على الكعبة المكتسية بسواد مطرز بخيوط من الذهب. وقف للحظة وهو يتأمل هذا المشهد الخلاب الذي تَفوَّقَ على صور ماثيو التي لم تكن بمثل هذه الروعة. اقترب منه محمود بخاري وربت على ظهره.

يعج الحرم بالحركة والبهجة. معتمرون يطوفون حول الكعبة، بعضهم يصلي قرب مقام إبراهيم، وآخرون يقبّلون الحجر الأسود ويتمسحون بستار الكعبة. سمع محمود يطلب من عيسى التقدم نحو بئر زمزم. وهو مبنى مصقول بالرخام وتعلوه قبة كبيرة. دخلوا في القسم المخصص للرجال، وهو المكون من مستودعات ومستبرد لدوارق ماء زمزم. وقف عيسى وقال لجيكوب: اخلع ثيابك. وقف جيكوب بهدوء وطواعية، خلع قميصه وجلس على المصطبة. أخذ عيسى دورقاً وبدأ يسكب الماء على رأس جيكوب. استقام محمود بخاري أمام الحشد وجهر قائلاً: يا اللّه نقدم لك طائعاً يشتهي إعلان إسلامه في دارك ووسط بيتك فتقبَّله مسلماً مطيعاً على المذهب الشافعي. ولتكن صفاته يا اللّه شاملة من ورع وصدق وإخلاص وسماحة وكرم وتواضع. يقيم الصلاة في

ليله ونهاره، ويساعد قومه السود ويحميهم ويصون كرامتهم. ويحرص على عتقهم، فتقبَّله منا يا اللّه عبد اً مخلصاً لك، اللهم فاشهد. ثم تركهما وخرج من المستودع.

دفع عيسى إلى جيكوب إزاراً وثوباً أبيض، ارتداهما وتخفف من جميع ثيابه السابقة. خرجا من بئر زمزم، ومحمود بخاري ينتظرهما عند مقام إبراهيم وهو يردد بفخر: يا اللّه تقبَّل منا هذا الطائع في خدمة دينك، وشاهداً بصدق نبيّك، عبد ك إلى يوم القيامة.. وهذه صلاة من ركعتين إعلاناً عن رغبته الصادقة في الانطواء تحت شهادة: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه. اللّه أكبر.. اللّه أكبر. سمع جيكوب ترديد بعض المصلين المتواجدين في الحرم خلف محمود بخاري: اللّه أكبر.. اللّه أكبر. انتهوا من صلاتهم. جلسوا في الصحن. تركهما محمود بخاري وغاب. ظل جيكوب صامتاً ومتحيراً لفترة ليست طويلة. لم يطق صبراً، فالتفت نحو عيسى وسأله:

هل انتهينا؟ هل أصبحت مسلماً؟

يومئ عيسى إليه بلا.. فيسأله مستفسراً:

ما الذي تبقّى لأكون مسلماً؟

وظلا هكذا حتى أقبل محمود بخاري وأشار لهما بالنهوض والسير خلفه، فسارا نحو حجر إسماعيل. وكان هناك شيخ معمم يجلس قربه كاتب يفرد أوراقه. توجَّه محمود بخاري وقبّل يد الشيخ وبالمثل فعل عيسى وجيكوب. أسرَّ محمود بكلام خاص في أذن الشيخ، ثم جلسوا. تأمل الشيخ جيكوب يتوسط محمود وعيسى، ثم سأله:

لماذا أنت هنا؟

وترجم عيسى لجيكوب بالسواحلية سؤال الشيخ، فردَّ جيكوب:

أريد أن أكون مسلماً.

وهل تعرف أركان الإسلام؟

نعم يا سيدي

وعددها له، وشعر عيسى بالفخر وهو يسمع جيكوب يردد ما حفظه.

بَشَّ الشيخ، ثم تحدث موجزاً عن أهمية أركان الإسلام، وضرورة الالتزام بها، والواجبات المترتبة عليها من أداء الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج والامتناع عن فعل المحرمات كالربا والزنى والسرقة والقتل. ثم سأله إن اختار له اسماً مسلماً فردَّ عليه بسرعة:

محمد.

وما اسمك الآن؟

جيكوب.

تبسَّم الشيخ مرة أخرى، ثم التفت نحو الكاتب وقال له:

اكتب يعقوب.

ثم نظر نحو جيكوب وقال: إن اللّه يحبك كما أحب يعقوب، من اليوم أنت يعقوب بن إسحاق، تعال ابصم هنا، فأنت مسلم من اللحظة. وقام يعقوب من مكانه وختم بإبهامه في الورقة والدفتر الكبير. هنّأه محمود وعيسى؛ وقبّل يعقوب يد الشيخ وشكره. وقبل أن يبتعدا سمعا الشيخ يقول لهم: لا تنسوا أن تـطهّروه قبل أن يعتمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التحق يعقوب في الشهور الستة الأولى بعد إسلامه بالعمل مع عيسى النجار عَتّالاً يحمل البضائع من مخازن تجار مكة إلى أسواقها الممتدة حول الحرم. وكان تلميذاً نجيباً يجيد الإصغاء لنصح عيسى وتوجيهاته. وبفراسته وذكائه طرح أول مشروع على سيده محمود بخاري، تمثل في شراء عربة يجرها بنفسه. نجح في ذلك، وطار ذكره في السوق بسرعته في جر العربة على الكثير من العتّالين، بل ودخل في رهانات كثيرة ربحها كلها في سرعة توصيل بضائع كثيرة تزيد العربة ثقلاً. ووسع الفكرة باكتراء عمال إضافيين بعقود مؤقتة من حلول شهر رمضان حتى ذي الحجة والعيد الكبير، إذ ينتعش السوق وتكتظ مكة بالمسافرين والحجيج، ويكون الطلب على الحمَّالين كبيراً ومربحاً. فيما بعد، أقنع سيده محمود بخاري بإنشاء مكتب لتوفير عَتّالة حسب الطلب، لجر العربات وحمل البضائع أو الحجيج والمعتمرين العاجزين عن السير أو للأمراء الذين يتعففون عن السعي والطواف أيام المطر والخوض في مستنقعات ينتشر فيها البعوض حول الكعبة. وأشرف عيسى النجار على إدارة هذا المكتب، في حين فضَّل يعقوب العمل الميداني. يقضي نهاره متنقلاً بين أسواق مكة والحرم المكي، ويستغل فترات راحته في أداء صلواته الخمس والجلوس في زوايا الحرم متأملاً الكعبة وما يحيطها من أسرار، لعل أهمها استقباحه وجود سوق للعبيد ملاصقٍ للحرم المكي. تكبر أسئلته فيبحث عن أجوبة لها عند رجال العلم المقيمين والعابرين.

أصبحت الدراهم تتبع صاحبها محمود الذي يقول لعامليه، ويزيد أحياناً: إنها بركة يعقوب الذي جاء وسارت خلفه الدراهم إليَّ. توسعت تجارة هذا البخاري الشَّحيم المُحب للنساء. وأصبح يمتلك ثلاث عمارات تحيط الحرم المكي من ثلاث جهات: خان قرب باب النبي، وخان مقابل باب الصفا، وخان في زقاق يؤدي إلى باب إبراهيم([15]). كما استمع لاقتراح يعقوب بفتح دكان للصرافة، وآخر للأقمشة في سوق القشاشية لبيع الحرير المستورد من بخارى وسمرقند وطشقند وأذربيجان.

لم ينس محمود بحسِّه التّجاري وفهمه للمجتمعات المسلمة تقسيم عماراته الثلاث بحسب الأعراف العامة في مكة. فخان السادة يؤجر غرفه للتجّار وكبار الأعيان الذين يفدون للعمرة والحج ويطلبون خدماً للعمل تحت إمرتهم، وغالباً ما يكونون أمراء من الهند وفارس، وكبار رجالات الدولة العثمانية، وبعض الأشراف. وأما الخان الذي يؤجره لمسافرين من أصحاب البشرة البيضاء من الأوزبك والأتراك وأولئك الذين يأتون من بخارى وسمرقند وشيراز فسمّاه خان البيض. أما أرخصهم، وكان قديم البناء، تعلوه الأوساخ، فخصصه لذوي البشرة السوداء والسمراء وعادة ما يكونون أفارقة أو عرباً من شمال

أفريقيا وعرب سواحل فارس والأحساء والقطيف والبحرين والبصرة وسمّاه خان السود. وترك محمود خان السود في عهدة يعقوب لوثوقه به وخبرته، إضافة إلى إجادته التحدث بلغات عديدة. يساعده في العمل صديقه المخلص عيسى النجار.

وغدت قضيةُ يعقوب الكبرى محاولةَ فهم هذه التفرقة في تقسيم الخانات. واستغرب رفض سيده طلب سلطان سنغالي السكن في أكبر جناح في خان السادة. هذا السلطان جاء إلى مكة على رأس قافلة مؤلفة من ستة عشر جملاً تحمل نساءه ومنامه وأكله وخدمه، بعد أن ترك سفينته البخارية في مرفأ جدة. ورغم أن السلطان وضع أمامه قطعاً من الذهب والألماس مع جنيهات إنجليزية إلاّ أن محمود رفض طلبه بسبب لونه الأسود، مبرراً بأنه لو قبل بذلك فإن أهل مكة وأسيادها وتجارها لن يقبلوا. مضيفاً أنه مجرد سلطان عابر ينوي أداء العمرة والمضي في ثرائه الفاحش. فقام الشريف الحسين بن علي باستضافته في قصره الهاشمي. وهكذا عاش يعقوب في مناوشات كلامية لا تنتهي مع سيده محمود حول الدين والعبودية والتفرقة العنصرية. فيغتاظ يعقوب وينسحب من المجلس، لكنه لا يلبث أن يعود إليه عندما يبعث في طلبه.

تجارة ناجحة، ونقاشات لا تنتهي عن التفرقة بين البشر مع سخط وامتعاض واتفاق صريح من الطرفين أنهم كلهم «لآدم وآدم من تراب». ووصل الجدال إلى نساء محمود الأربع، اللواتي عرف يعقوب أن جميعهن من ذوات البشرة البيضاء: اثنتين من بخارى، والثالثة من سمرقند والرابعة من الأستانة، إضافة إلى جاريتين بيضاوين من شيراز. سأله لماذا لا تتخذ امرأة أو جارية سمراء؟ فقال محمود بثقة وعنجهية: البيضاء نظافتها ظاهرة، أما الملونة فبشرتها تخفي وسخها!

ظل يعقوب يسير كل يوم صاعداً نحو مسجد بلال على جبل أبي قبيس، مسترجعاً سيرة العبد الحبشي جميل الصوت، الذي ظل ينادي المسلمين للصلاة ثلاث سنوات قبل أن يهاجر نحو الشام بعد وفاة النبي. إلا أن محمود بخاري قال له في هذا الصدد: إن بلالاً لم يكن يجلس في صحبة أصحاب الرسول، ولم يكن يجرؤ على فعل ذلك. ولم تكن هذه المشاحنات تنتهي ولم ينزعج محمود بل كان حبه ليعقوب يزداد؛ لأن عقله لا يكف عن التفكير واقتراح الأفكار التجارية المجدية. دخل عليه بعد عام ونيف من عمله في إدارة خان السود. وأخرج ورقة من جيبه وقدمها لمحمود، بينما هو جالس مع عيسى يشرب الشاي، وقال لسيده بنبرة فيها ليونة ولكنها حازمة وثابتة: هذه أسماء الخانات الجديدة، إن لم تعجبك فسوف أضطر لترك العمل معك

والبحث عن عمل مع تاجر آخر. تأمل محمود سريعاَ قائمة الأسماء ورفع رأسه: لك ما تريد يا أبا يوسف.

استدعى يعقوب أشهر خطاطي مكة وكانوا وقتها يقضون أيامهم في خط الآيات القرآنية بأحجام مختلفة لبيعها في الأسواق. وطلب منهم أن يخطوا أسماء الخانات الجديدة وجاءت كالتالي: خان مكة بدلاً من خان السادة، وخان البَسّاسة عوض خان السود، واستبدال خان البيض ببكه. وذيل الأسماء بعبارة لصاحبها محمود بن إسماعيل البخاري. ومن ساعتها انتشرت في مكة ظاهرة العناوين للخانات والمحلات التجارية، ونشطت وظيفة جديدة للخطاطين، الذين صاروا يبجلون يعقوب وينعتونه بأجمل الأوصاف بسبب اشتهار مهنتهم الجديدة. حتى قيل: إن يعقوب يوزع الأجر كما أوصاه اللّه.

بعد أن انتهى يعقوب من تعليق اليافطات بالعناوين الجديدة، توسّد مخدته وشعر برغبة في لمس امرأة. سيطرت عليه فكرة الزواج وإنجاب الأبناء. فكّر في النساء، حضرت في خياله الأميرة الإنجليزية، تخيل أنها تتأمل صوره عاري الصدر. اشتهى امرأة بيضاء مثلها، ذات بشرة ناعمة، ولها نفس العطر الذي كانت تضعه. نسي نفسه وشعر بالانتصاب. تعوذ من الغوي الرجيم وهو الذي ينتقد سيده في عنصريته، ولكنه استحضر الجمال في صفته البيضاء. استسلم لهذا الخيال والاستدعاء. ظل الليل كله يفكر في حقه الشرعي في اختيار زوجة من أي لون. وهو يشعر الآن برغبة جامحة في أن تكون زوجته بيضاء لا تخفي وسخها، وأنه يملك القروش والدراهم للزواج من امرأة بيضاء. وعليه طلب ذلك من سيده محمود لتقوم نساؤه بالبحث له عن عروس تناسبه. قهقه محمود حتى كاد يموت من الضحك بعد معرفته برغبة يعقوب في الزواج من امرأة بيضاء. قال له: هذه لا تحتاج إلى مَن يبحث لك عنها. اذهب إلى دكة باب الدريبة واختر ما تشاء وما تشتهي نفسك. رفض يعقوب فكرة شراء جارية أو عبد ة، ولكنه اقتنع سريعاً بمنطق سيده: اشترها واعتقها وتزوجها. لن تجد بيضاء حرّة تقبل بك يا أبا يوسف.

ذهب سريعاً وأخذ يراقب مجموعات من الإماء البيض اللواتي يؤتى بهن ويتم المناداة عليهن. وقال: لا يعيب الرجال دميمي المنظر وقبيحي الهيئة وهم يتوقفون أمام ما يشتهيه خاطرهم ويرفعون الدراهم ويعلنون جهراً عن نواياهم بالزواج بمن يختارون، فإذا هزت الفتاة رأسها موافقة، يتم فحصها وشراؤها أمام شهود، ثم يحررها بقول صريح ويطلب زواجها على شرع اللّه فتعلن موافقتها على ذلك. ثم يأخذها مع شهوده إلى مأذون قريب من الحرم وهم كثر. وهكذا فعل حيث تزوج من فتاة قوقازية مسلمة استملكت قلبه وتُدعى خديجة. بيضاء بصدر يربي الأطفال وبندبة واضحة على طرف خدها الأيمن، سببتها حروب دموية تعرض لها شعبها. أرادت أن تقص عليه حكايتها،

وطلبت منه أن يسمعها، ولكن إرهاق العمل اليومي كان يمنعه حتى دخل عليها بعد ثلاثة أشهر من زواجهما فقالت له: لم ينزل عليَّ الطمث.

حلم بيوسف، تخيله لا أسود ولا أبيض، صريحاً بين اللونين، لم ترفض الاسم وهي القادمة من سلالة قوقازية مسلمة ذاق شعبها الموت. سألها عن الندبة في لحظة سكينة، فظلت تحكي له لمدة ثلاثة أشهر متصلة عن جدها إمام القوقاز في داغستان وحروبه المستمرة ضد جيش القيصر الروسي. وكيف وقع في الأسر، ثم هجرتهم المستمرة حتى مقتل والدها انتهاءً بسقوطها هي وأختها من مخبئهما من أعلى شجرة في غابات بحر قزوين. سقوط تسبب بإصابتها بهذا الجرح العميق، ووقوعهما على إثره في الأسْر. ثم ترحيلهما مع نساء وفتيات صغيرات في رحلة طويلة، عرضن في أكثر من تسعة عشر سوقاً على امتداد الطريق الجغرافي الممتد من مدينة كييف إلى الأستانة مروراً بدمشق ثم القدس ووصولاً إلى الحجاز. وبسبب الندبة الواضحة على خدها الأيمن لم تشترَ ولم يوافق أصحابها على بيعها بسعر زهيد، مدركين أن الوقت كفيل باستواء جسدها وامتلائه، واضمحلال أثر الندبة. استمع إلى حكايتها، وتذكر اقتراح الأميرة الإنجليزية بكتابة سيرته. وبالفعل، بدأ بتَسْطِير تاريخ طفولته في تنجانيقا، ولحظة سقوطه في البحيرة، وتنبؤ كاهن أفريقي بحياته. ثم انتقل إلى كتابة تاريخ زوجته خديجة منذ وقوع جدها في الأسر حتى عَرْضها للبيع في أسواق مخصصة لإهانة حواء. جامعاً ومازجاً بين السيرتين.

وبعيداً عن السيرة المكتوبة، والتصاقاً بسيرته العلمية ابتكر يعقوب نظاماً محاسبياً لتنظيم مدخولات ومصروفات وأرباح كل خان على حدة، فيه تفاصيل تتعلق بأسماء المسافرين ومدة إقامتهم ومدفوعاتهم وغيرها. وعرضه على محمود فلم يفهم جُلَّ تفاصيل هذا النظام. وأصر يعقوب على تجربته. وبعد تطبيقه بات محمود بخاري عارفاً بكل قرش يدخل خزانته أو يصرف منها. سأله ذات مساء: من أين تعلمت كل ذلك يا أبا يوسف؟ من والدي بيتر رحمه اللّه.

ومع مطلع العام 1915م بدأت تفد عليهم الكوارث، وكانت أولها مجاعة اجتاحت مكة وضواحي ديار الحجاز. وبدأ طيف الأب بيتر يزوره في منامه ويقضّ مضجعه. في تلك الليالي رأى يعقوب في منامه الأب متدلياً، وهو مذبوح ينزف في ميتة غامضة لم يفهمها. وكان الأب يرمقه بعينين مفتوحتين، وقد نقشت على جبهته بدمه كلمة «الفلق». استيقظ فزعاً ينتابه الكمد، ولا تنفع معه ما تقرأه زوجته خديجة بلغتها الشيشانية التي لا يتقنها. وجلٌ تمثل في سرّ حمله معه ولا يعرف ماذا يفعل به، وهو يوشك على دخول سن الأربعين. وأنجبت خديجة ابنه يوسف.

قرر البحث عن شخص يفهم المعنى ويفك شفرة الحلم الذي لم يتوقف عن التكرار منذ تلك الليلة. أخبره عيسى النجار عن شيخ قدم إلى مكة في أواخر شهر رمضان من أرض بلوشستان ويدعى رشيد حمدان. ذهب إليه يعقوب بعد أن صلى العصر في ركن الشافعية، وتوقّع أن يراه في موقع الأركان السنية الأربعة، إلا أنه كلما وصل ركناً وسأل عنه جاءه الجواب: إنه لا يتبع أي مِلّة من المِلَل السنية الأربع وليس على المذهب الجعفري، وعادة ما يجلس مقابل حجر إسماعيل.

وقف بعيداً عنه يتأمله: بدا ذا مظهر غريب، له شعر كثيف وطويل ينقسم إلى ضفيرتين تنزلان على كَتِفَيْهِ. دائماً ما يغفو قرب حجر إسماعيل، أقرب الأماكن إلى قلبه. قضى العصر كله يراقبه حتى دخول وقت صلاة المغرب، تقدم رشيد حمدان من يعقوب وقال له:

قل لي أيها المتعب، هل تتبعت حلماً أرهقك وأضناك؟

نعم يا سيدي.

أنا لست سيدك. سيدك سيدي. فقل لي أي حلم هذا الذي تتبعت؟

مقتول وعلى جبهته كتب بدمه «الفلق». ولكن كيف عرفت ذلك؟

تأمله، لم يردّ عليه، بل سأله سؤالاً طيَّر عقله:

هل هو غير مسلم؟

نعم، هو مسيحي.

إنها التوبة وبيان الحق في شخصك. هل تتذكر في أي يوم يأتيك الحلم أكثر؟

فكر يعقوب قليلاً، ثم تذكر:

ليلة الجمعة يا سيدي.

إنه الفجر، ينشقُّ من ظلمة ليل الخميس.

لم أفهمك يا سيدي؟

أنا لست سيدك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أدرك يعقوب أن هذا الشيخ يختلف عن شيوخ المذاهب الإسلامية الذين يتقاسمون صحن الحرم المكّي. رجل عفيف ترك شهوة المخلوقات، وخرج عن مشائم الأحوال، وخرق حجب القلوب، وغادر الحطام الدنيوي. فهو لا يسعى خلف الولائم، ويكتفي بالكفاف ليعيش يومه بين مكتبة الحرم القريبة من بئر زمزم أو مع جماعات ترتدي أسمالاً مرقعة وتقرأ موالد في حب النبي في حلقات ورقصات مقدسة في مطلع النهار وبعد صلاة العشاء. يهزون رؤوسهم وأجسادهم وهم يحلقون منتشين في صحن الحرم يطلبون الانسجام الروحي. ويغادرون في رحلات جماعية للسلام على النبي محمد في منزله ومدفنه في المدينة المنورة، ويعودن دون تأخير. يحملون عطر الكعبة وينثرونه مثل رذاذ متطاير في وجوه تناجي حبيبها وتعصر قلبها ولعاً به. ويطوفون في النهار أزقة مكة وحاراتها الصغيرة، ويقفون أمام بيوت يعرفون أن أصحابها عَليلون. يدخلون ويجلسون في حلقة فيضع الشيخ رشيد حمدان يده على رأس المُعْتَلّ ويبدأ بالقراءة، يوشوش تارة ويهتف بصوت واضح ومسموع تارة أخرى. ينهض في الأغلب الشخص المريض معافى ويبتسم شاكراً جهودهم مع شعوره بقليل من التحسن. وشعر يعقوب باتصال عظيم بينه وبين رشيد حمدان. يكاشفان قلبيهما. يتواصلان وهما بعيدان عن بعضهما البعض. يجلسان معاً وتسافر روحاهما إلى مناطق بعيدة. زار المنزل الذي ولدت فيه زوجته خديجة في داغستان، ورآها مع صبي من قريتها يتبادلان القبل وهما في مخبأ فوق شجرة معمرة في غابات بحر قزوين، زلت قدمها وسقطت على الأرض مفضوحة بندبة على خدها وليس مثلما جاء في روايتها!

وحَلّ عليهم في مكة مصور هولندي يُدعى أدريان قادماً من الهند. سكن في خان البَسّاسة لتصوير مكة وضواحيها، خاصة الأماكن والإشارات المقدسة. واقترح عليه يعقوب فتح محل للتصوير الضوئي، واعتذر المصور؛ لأنه في طريقه إلى دياره.

بدا البحر الأحمر المنفذ الوحيد نتيجة ضوضاء حرب وصلت البحر الأبيض المتوسط، المشتعل بالنار والبارود مع احتدام وطيس المعارك بين بريطانيا وفرنسا من جهة وألمانيا وروسيا من جهة أخرى. نجح الإنجليز في سَدّ مضيق هرمز ومضيق باب المندب ومحيط رأس الرجاء الصالح ببوارج وفرقاطات متأهبة لإطلاق مدافعها تجاه أي سفينة لا تستجيب لأوامرها ولا ترفع رايتها. والأخبار المتداولة التي تصل مرفأ جدة لا تشجع على السفر بتاتاً. نقصت الدراهم من أدريان فقرر ترك الخان رغم محاولات يعقوب الإبقاء عليه خاصة بعد الصور التي التقطها له مع زوجته خديجة وابنه يوسف الذي غدا على عتبة عامه الأول. أصبح أدريان ينام حيث يفاجئه الليل، ويأكل حيث يصادفه الجوع.

وفي مكة أنت لا تموت من الجوع بل تموت من كثرة الصلاة. صادفه يعقوب بعد أسبوع من مغادرته الخان ولم يتعرف عليه لولا حقيبته وعدة الكاميرا. اقترب منه؛ فابتسم له أدريان. لم يصدق يعقوب أن الذي أمامه هو الهولندي الوردي. وجهه مطلي بسخام كأنه عَتّال ينقل الفحم. أخذه وأجلسه تحت الماء، وبدأ يدعكه بالليف والصابون ثم ألبسه ثوباً أزرق وحزمه بقطعة من إزار قديم، وصار يخرج معه في متابعة شؤون الخان ومكتب العَتّالة. واقترح عليه مرة أخرى فتح استوديو للتصوير، ولكن أدريان فاجأ يعقوب بطلب إشهار إسلامه. ذهب معه سريعاً إلى محمود بخاري وأخبره برغبة هذا الهولندي. ابتهج محمود وقال ليعقوب: إن هذا يكفيك يا أبا يوسف للفوز بجنات عدن دون أعمالك الأخرى.

عُرِفَ أدريان باسمه الذي اختاره له يعقوب وهو جعفر. وفتح استوديو للتصوير. استدعى يعقوب عبد اً شاباً يجيد الرسم فنسخ له صورة الكعبة وجعلها خلفية في الاستوديو لمن يرغب في أخذ صورة أرخص من صور طبيعية يطلبها الأمراء والتجّار الذين يوثقون تواجدهم في بيت اللّه. وازدادت طلبات التصوير، وأصبح يعقوب الوسيط الذي يلجأ إليه أي أمير أو تاجر ليأخذ له موعداً مسبقاً وسريعاً. واستطاع جعفر الذي تزوج عبد ة نوبية تدعى مَيّاسة بعد أن اشتراها وأعتقها فعاشت معه في غرفة شَيَّدها بمساعدة يعقوب وبنائين يمانيين ليصبح جاره وصديقه.

صحب يعقوبُ وجعفرُ الشيخَ رشيد حمدان الذي يناديانه مولانا في حلقات ذكر خاصة تجمعهم ثلاثتهم. ويصدقانه فيما يصدر عنه. يتركون مكة ويصعدون الجبال المحيطة بها، ويقضون الليل في تفريغ القلب من شغل الدنيا، وفي مناجاة النبي محمد وأهل بيته وصحابته. ويمارسون صلوات لها طقوسها المتميزة بعيداً عن الأنظار في صوامع ذكرهم. يرافقهم نباح كلاب جبلية ممتد حتى يدخلوا في باب التجلي. يطلق عليها جعفر: لحظات تأمل ونفحات ربانية. قال لهما الشيخ: سنعتكف مساء الخميس في غار حراء. وكعادتهم كان زادهم التقوى والطاعة وماء للوضوء والشرب. وفي خلوتهم وصومهم في الكهف الصغير وهم يمارسون رياضة الانقطاع جاءت جماعة لم تكن ترغب في مثل هذه الطقوس، وتجهر أحياناً بتكفير هذه الممارسات متمادية في مطالبتها بمنع الموسيقى والدخان والأناشيد. انقضّوا عليهم وبدأوا بضربهم. لم يقاوم الشيخ رشيد، في حين تلقّى جعفر ضرباً مبرحاً رغم تصدّيه لهم. أما يعقوب فقد ذاد عن نفسه بصلابة. ركض خلفهم مثل ذئب شره يقفز بشراسة بين جروف الجبل الحادة. وضرب آخر المهاجمين ضربة قاصمة أسقطته بقوة، وتدحرج من شدتها على الصخر. اقترب منه فوجده قد فارق الحياة. وبكى مثل طفل مبرراً فعلته بالدفاع عن النفس، وأنهم ثلاثتهم كانوا عرضة للموت

لولا مجابهته. شكره جعفر على ذلك وهدأ من روعه. ظل رشيد حمدان في سكونٍ مهيب. أمسك يد يعقوب وجعفر وعادوا سوياً إلى الغار.

جلسوا أمام المدخل الصغير للكهف، وجعل يعقوب عن يمينه وجعفر عن يساره، فرد كفه على وجهيهما ثم بدأ يتلو بهجس. شعرا بالنعاس يتسلل إلى عقلهما فغابا عن الوعي، ووقعا تحت سلطة النوم حتى إطلالة السَّحَر. استيقظا ووجداه ساكناً في مكانه يمارس طقوسه الوجدانية الصامتة في لحظة جذب الأرواح ومشاهدة الأسرار. صلَّيا صلاة الفجر دون أن يسمعا صوت الأذان. ولم يتذكرا شيئاً مما حدث في الليلة السابقة. شعر يعقوب بألم بسيط في مفصل كفه لا يعرف سببه، بينما عانى جعفر من رُضوض واضحة على وجهه الوردي لم يعرف مصدرها. سألا الشيخ رشيد ما إن انتهى من مسامرة قلبه عن الكدمات المنتشرة على وجه جعفر والألم البسيط في كف يعقوب، إلا أن الشيخ قال لهما: ليس بكما شيء.

وما إن نزلوا من الجبل ودخلوا محيط الحرم المكّي حتى هالهم مدى الحنق الرائج بين الناس، ومحاولة الجنود العثمانيين تهدئة الأنفس عن الغضب وكبح انتشار الفتنة بين الطوائف والمذاهب الدينية. فعند باب الزيادة([16]) وجدوا جثة رجل من المذهب الجعفري قيل إنه كان جالساً يتلو كتاب اللّه، فقبضت عليه مجموعة من العامة رجموه بالحجارة والكسارات وسحلوه حتى حضره الموت. سأل يعقوب صاحبه عيسى النجار عن السبب فأخبرهم عيسى؛ إن أهل مكة استيقظوا هذا الصباح على نفر قاموا بتلويث الحجر الأسود، وباب الكعبة، ومصلى الجمعة وأستار البيت الشريف بشيء يشبه العذرة في النتن والخبث. فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه وتتسخ يداه. ففزعت الناس من ذلك، وضج الأتراك، وأشار أحدهم إلى هذا الرجل الذي قتل. تقدم يعقوب وجعفر والشيخ رشيد مع بقية العمال لتنظيف بيت اللّه وغسل الحَجَر وباب الكعبة والأستار بالماء. وقضى أهل مكة والأتراك والحجاج ذلك اليوم في أمر عظيم.

والتفت الشيخ رشيد نحو الجثة المتروكة عند باب الزيادة وقال لصاحبيه: لقد قتل ظلماً ووجب دفنه بشكل لائق. انصرفوا بقية النهار في غسل وتكفين الرجل المقتول بعد أن انضم إليهم بعض الحكماء، ورجال من المذهب نفسه للصلاة عليه. وما إن كبَّر الشيخ رشيد حمدان حتى تطايرت الحجارة من صبية مكة وفتيانها بتحريض من رجال يتبعون طائفة أصحاب السلف. لم يوقف رشيد الصلاة إنما أشار بيده راسماً خطاً وهمياً يحميه ويحمي من يقف خلفه فتطايرت الحجارة خارج نطاقهم وأخطأت أهدافها. ومن رأى ذلك قال هذا ساحر. ومن شهد الحدث قال إنه من أهل الفردوس. وأصبح الجميع ينادي رشيد حمدان بمولانا لخيره وصلاحه.

دوَّى صوت إطلاق نار في محيط الحرم المكّي في صيف العام 1916م، معلناً قيام ثورة عربية بقيادة الحسين بن علي ضد الحكم العثماني في مكة. هرب الناس من أزيز الرصاص، وعبر الخيالة محيط الحرم وطلبوا من المعتمرين ترك الحرم والتزام مساكنهم أو خاناتهم لحين استتباب الأمن في مكة بواسطة منادين باللغات العربية والتركية والفارسية والهندية. رفض الشيخ رشيد حمدان البقاء في الخان، قائلاً: أنا لم أسافر كل هذا الطريق من أجل أن أختبئ وقربي آمَنُ بيت على الأرض. خرج يسير حاملاً كتبه وأوراقه، ويتبعه يعقوب متخفياً عن العسس. وفي ظل الصراع المستعر بين جنود الثورة العربية بقيادة الشريف الحسين بن علي وجنود الدولة العثمانية للسيطرة على الحجاز، صعق يعقوب وهو يرى جنود الثورة يمنعون الناس من دخول الحرم المكّي ويهددونهم بالبنادق. عَبَرَ الشيخ رشيد بخفة دون أن ينتبهوا له أو ربما لم يبصروه، حتى إنه وقف أمام أحدهم والتفت ناحية يعقوب المختبئ في نهاية الطريق المقابل لدكة سوق باب الدريبة يساعد بعض العبيد على الفرار والنجاة من الرصاص الطائش.

أشار له الشيخ رشيد بالتقدم، خاف يعقوب من الاعتقال أو القتل. سمع صوته منادياً: اعبر، إن الطريق آمن. ولكن يعقوب جمد في مكانه، غير قادر على التحرك، فسمع الشيخ رشيد وهو يردد: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (17) وانتبه يعقوب إلى أنهم بالفعل كانوا لا يبصرون الشيخ رشيد، وأن هذا الرجل ليس مجرد شيخ وعالم في شؤون الدين بل هو خبير بمعاني ومستويات أخرى للحياة اكتسبها من مكان ما غير هذه الأماكن التي نعيش فيها. وبحذر انْسَلَّ يعقوب أمام الجنود الواقفين على باب الحرم فمسكه الشيخ رشيد وجذبه معه إلى الداخل. كانا وحيدين أمام بيت اللّه لا يرافقهما إلا الحمام القُمريّ. قال له الشيخ رشيد:

أَخرجْ سحرك يا يعقوب؟

لا أفهمك يا مولانا؟

تحمل معك حجراً كريماً وملعوناً، جاء إلى هنا قبل وجودنا في هذه الحياة.

فحدجه يعقوب بنظرة طويلة، فأوضح له الشيخ:

الحجر الأحمر يا يعقوب.

ولكنها لعنة لا تخمد، ماذا سنفعل بها؟

رَبتَ رشيد على كتف يعقوب وقال في طُمأنينة:

ندفنها يا يعقوب.

أين؟

عليك بالشاذروان.

وأمام الحَمَام القُمريّ، اتجها صوب الحجر الأسود. مسح رشيد بيده داخله ثم أخذ يقرأ في سرّه على صوت الرصاص الذي مازال يفرقع خارج الحرم المكي، ثم انحنى قرب الشاذروان وانتزع قطعة من الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل جدار الكعبة، وقال له: ضع الحجر هنا. وبرصانة وضعه حيث أشار. مسح رشيد على المكان فعاد الشاذروان إلى وضعه السابق وسكن الحجر داخل حدود الكعبة. طالعه يعقوب، وردَّ عليه رشيد قائلاً:

عليك أن تكتب كل ما حصل لك مع هذا الحجر، وتأتي إليّ كل يوم بالصحيفة مطوية في صُرَّة خاصة، يرثها من بعدنا من يريده الحجر.

أحياناً لا أفهمك يا مولانا. هل الحجر يختار من يريد؟

اكتب يا يعقوب سيأتي الطوفان قريباً، ويغسل دماءً تُضيّع أرض العرب إلى يوم الدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة الكلمات

• جدة:

في الليلة الأولى من وصوله إلى جدة، قضى جيكوب ساعة العتمة في مقهى شعبي أسكن فيه جوعه بالقليل الرخيص من الأكل والشراب. جلس قربه يمانيون من حضرموت، أخرجوا صرراً من حزم القات وصيَّروه في فمهم. ظلوا صامتين حتى مسَّتهم لوثة. تحدثوا عن تاجر فرنسي مجنون حمل موتى مُكفنين في صناديق لإرسالهم إلى بلاده، ودفع لهم مبلغاً أجرة نقلهم للصناديق ولشراء هذا القات وقضاء السهرة في هذا المقهى الشعبي. والأمر الذي لم يفهموه هو سبب نقل هؤلاء الموتى في ثلاثة صناديق مثقلة بالتراب. صرخ أحدهم: إنه سرقهم من أرض النوبة؟

ضحك عليه الآخرون وقالوا معاً:

ويسرق الموتى!

ثم التفتوا نحو جيكوب وقالوا بصوت واحد: أيها الأسود عليك أن تخرجنا من هذا الحلم الشاق الخانق. وقد كابد جيكوب ساعات الليل في مساعدتهم على فهم ما مروا به من لمم وهوس واختلال. حتى داخ هو وعجز عن فهمهم ونام على الكرسي.

لكزه صبي المقهى قبل أذان الفجر. فتح عينيه ووجد أمامه مساعد رُبّان الباخرة الذي استدعاه للقاء الأميرة الإنجليزية. سار معه حتى الشاطئ، وسلمه لصاحب قارب صغير وطلب منه الركوب. دفع بعصاه القارب حتى راح داخل البحر. بدأ بالتجديف. كان البحر مظلماً وتظهر فيه قناديل تضيء البواخر الكثيرة الواقفة في عمق مياه البحر الأحمر. ركب السفينة ورأى ثلاثة توابيت يحرسها هنود سيخ عرفهم من إطالة الشعر واللحية، سألهم بتأدب: لمن هذه القبور؟ ردَّ عليه أحدهم إنها توابيت فرعونية تحتوي على جثامين مُحَنَّطة ستباع في فرنسا. دنت منه خادمة تعمل مع الأميرة، تذكّرها عندما كان يسرد حكايته، وقد ظهرت عليها علامات التأثر وهي تصغي لتفاصيل القصة. قادته إلى قمرتها الملكية، طرقت الباب وانسحبت. فتحت له الأميرة الإنجليزية واستقبلته مزهوة بفستان أبيض بكُمَّين طويلَين. أدخلته قمرتها واستعرضت له حُلِيّها ومجوهراتها الذهبية المسبوكة باحتراف ودقة. سألها عن سبب طلبها فسألته بلطف: لم أعثر على حذائي فظننت أنني تركته معك. استغرب جيكوب الموضوع، ولكنه وعدها بالبحث عنه في أرجاء الباخرة!

أحدهم قال له سيمر عليك وقت طويل قبل أن تتذكر ما فعلته جدة بعقلك، وعليك أن ترتاح يومين أو أكثر في الخانات وتتجنب أن تحلم. ولكنه لم يكف

عن ذلك.

في الليلة الثانية قابل اليمانيين مرة أخرى فغيَّر طريقه مسرعاً. وجاء له مساعد الرُّبّان أيضاً فاعتذر منه بلطف وابتعد عنه. ظل يطوف في الحارات ويتأكد أنه لم ينتبه لهذه الأبنية ذات الطوابق الأربعة والمشيدة من الحجر والطين والجص الأبيض تضيء الليل مثل منارة لمن ضاع في أحلامه، وجيكوب أولهم.

سألوه هل زرت قبر حواء؟ فأجابهم بعد أن وطِئَ أرض جدة مباشرة زاره، وتأمل قبرها البالغ طوله مئة وتسعين قدماً، والمغطى بالحرير الأطلس الأخضر. وأنه شكر اللّه وقام بغير قصد برسم إشارة الصليب احتراماً لها، وإحساساً بالخنوع وهو في حضرة سيدة العالمين. لكنهم أخبروه تعليقاً على سهوه عن موضوع إسلامه: لقد أصابتك حواء بلوثة الحياة.

ومع حلول منتصف الليل أخذ منه التعب مأخذاً فاستأجر سريراً خشبياً متهالكاً على سطح خان صغير يطل على البحر الأحمر، ينام حوله بشر يتحدثون في أحلامهم بلغات تركوها بعيداً قبل أن ترمي بهم أقدارهم على هذه الأرض. استسلم للنوم وعلى باب أول أحلامه رأى الأب بيتر يسقي ربه خمراً.

• الأشراف:

ظل جعفر واقفاً في حيرة أمام صاحب محل للأقمشة في سوق القشاشية بين شراء عمامة من الحرير الخالص غالية الثمن أو شراء عمامة مصنوعة من الحرير الصناعي، خاصة بعد أن حذره محمود بخاري من لبس الحرير الأصلي؛ لأنه يعتقد بتحريمه على الرجال؛ ولأن جعفر في أصله ذلك الهولندي الذي جاء يحمل اسم أدريان ذا الجذور الجرمانية، ولد وعاش في روتردام ثم غادرها نحو أمستردام للدراسة في جامعتها. إلا أنه وجد نفسه مغرماً بالتصوير فانطلق في تصوير القنوات المائية والجسور الخشبية في أمستردام، قبل أن يتخصص في تصوير العاهرات في حارة النور الأحمر اللواتي كن يدفعن له مبالغ جيدة لالتقاط صور تذكارية يُوقِّعن خلفها بكلمات مشوبة بالشوق واستمرار الروابط الاجتماعية ثم يبعثن بها لأهلهم وأحبابهم.

وفي ليلة قضاها في حانة في شارع دي فالين يحتفل بعيد ميلاد إحدى صديقاته غشي عليه وهو خَمِر. حملته الفتيات وتركنه نائماً فوق سرير اختلطت فيه روائح العرق بماء الرجال. وعند الفجر استيقظ واكتشف أنه تبول دون إرادة منه. تقلّب على الفراش ثم واصل غيبوبته كما يتذكر عندها سُلط عليه ضوء سماوي. وكان ملاكاً ذهبياً واقفاً بين السرير وسقف الغرفة. أمره بالبحث عن الرب. فأجاب أدريان: إنه يسكن في الكنيسة على بعد شارعين وضحك. وطلب منه الملاك السفر إلى الهند. وفي الصباح اكتشفت

النساء أنه لم يتبول فقط على السرير بل تقيأ كل ما في مصرانه فأبْعدَ مع مَذَمّة. ووجد أدريان نفسه على متن سفينة هولندية مع بحّارة جددوا فحولتهم بعد سهرة أذهبت عنهم تعب البِحار والأمواج وصوت المحركات البخارية. أخذته السفينة إلى مرفأ مدغشقر، قبل أن يواصل رحلته ويرمي بتعبه عند أقدام الرهبان الهنود. وفي مختلف المعابد التي زارها أمرته آلهة هندية بالعودة إلى أرضه المنخفضة في أمستردام. لكنه جاء إلى مكة وحمل اسم جعفر المصور.

قلّب جعفر في أنواع الأقمشة متردداً في اختيار عمامة مصنوعة من الحرير الأصلي أو الحرير الصناعي، في الأولى تحريم وفي الثانية خدعة! فاشترى عمامة من الحرير الصناعي خضراء اللون حولت يوسف بن يعقوب إلى أحد أشراف مكة بعدما عثروا عليه يبكي في حضن جعفر الذي أغرقه السَّيْل!

• طهروه:

لم يصدق يعقوب نفسه. دخل عليه محمود بخاري وعيسى يرافقهما الحكيم الخاتن. جلسوا ثلاثتهم حوله، مترددين في شأنهم حتى سألهم الحكيم: ألم تخبروه؟ توجس يعقوب من الأمر، رمق سيده وصديقه، فقال له محمود:

أما زلت تود أن تعمل في صحن الكعبة وتخدم الحجاج والمعتمرين؟

نعم يا سيدي، هذه هي مُنْيَتي ورغبتي.

هل تريد أن تكون من الأغوات؟

ومن هم الأغوات؟ وما علاقة هذا الحكيم بما أريد؟

تساءل يعقوب، فنهض الحكيم غاضباً: يُحْتَمَلُ أنكم لم تخبروه. طلب عيسى من الحكيم الجلوس والتروي قليلاً، مما زاد من قلق يعقوب. فشرح له محمود:

إن كنت ترغب في العمل في خدمة الحرم والحجيج، ينبغي عليك أن تكون من الأغوات الذين ينذرون أنفسهم لخدمة بيت اللّه وزواره.

نعم هذا ما أريد. قال يعقوب مبتهجاً، فأردف محمود:

الأغوات يرابطون سبع سنوات متواصلة بناءً على جدول مناوبة.

لا أمانع في ذلك.

وبتردد وحيرة أوضح له محمود:

هذا يتطلب منك أن تُخْصَى!

فزَّ يعقوب من مكانه وهَمَّ بمغادرة الغرفة. نهض الحكيم وحمل حقيبته خارجاً محتجاً على إضاعة وقته. دبَّ خلاف بين الأربعة. أعلن يعقوب وبإصرار تراجعه عن قراره. حاول عيسى أن يشرح له أنه يستطيع البقاء مسلماً دون العمل والخدمة في الحرم المكّي، وأن عليه القبول بالختان ليكمل إسلامه. على الجانب الآخر نجح محمود بخاري في استرضاء الحكيم وإقناعه بختان يعقوب فقط. ودفع له أجره مقدماً فوافق الحكيم. مسح عرق الغضب وانتظر عودة يعقوب الذي دخل وسألهم: وكيف يكون الختان؟

شرح له الحكيم عملية الخَتن والفرق بين المختون والمخصي ثم أمسك القُلْفَة وبيَّن له الحدود الواجب إزالتها، وكيف سيكون بعدها طاهراً مثل نَسْل النبي إبراهيم. ولكنه لن يكون من الأغوات.

وافق يعقوب على الختان وضاعت أمنيته في خدمة الحجاج والمعتمرين. مرت العملية بشكل سهل وبسيط. جز القُلفَة بحد شفرة قاطع، وعالج المنطقة. نصحه بملابس خفيفة لا تسبب له احتكاكاً مباشراً. كما منعه من الجماع حتى يشفى بشكل كامل.

مرَّ الأسبوع طويلاً عليه. شعر بالضجر من بقائه وحيداً معظم النهار. اشتكى وحدته لهما؛ ولكنَّ محموداً هوّن عليه بأنها مجرد أيام وسيعود للعمل، واقترح عليه الإكثار من الصلاة للتعود عليها. في حين أخذه عيسى إلى معلم يعلم الأطفال مبادئ القراءة. ولكن احتجاج بعض أهالي الأطفال لوجود عبد يتعلم مع أطفالهم جعل المعلم يعتذر إلى عيسى الذي أصبح يسهر معه كل ليلة ليعلمه تهجئة وحفظ الحروف العربية الثمانية والعشرين. وهي مهمة وجدها يعقوب بالغة الصعوبة، كونه يتذكر حرفاً وينسى حروفاً. وكلما رأى رجال الأغوات العاملين في الحرم المكي بعباءاتهم الإستانبولية وثيابهم الواسعة المشدود بحزام، يحملون عصياً طويلة، شعر بألم في بطنه، وخاف على نسله الذي تخيله يتكاثر في مكة.

• الحَمَام القُمريّ:

أطلق النبي نوح زوج حمام طاف بالأرض، وعاد يحمل غصن زيتون قدمه للنبي الذي أمر كل من على الفلك بالخروج. استأذن الحَمَام بعد قيامه بمهمته بالسفر. قطع أراضي وجبالاً وهو يبحث عن مستقر حتى شعر الذكر بالتعب. لمح جبلاً تتوزع عليه أشجار السرو فاقترح على أنثاه اتخاذه مستقراً لهما. ولكنها بإصرار أنثى صبورة أخبرته أنها رأت مقام هاجر بواد يزدهر بالخير والأمان، فتبعها على مضض. ثم بدأ يهدل بتأفف، تبعها بهَدْهَدَة غاضبة فأغرته وأنسته المسافة المتبقية. وما إن هبطت حتى جامعها ونام. في ليلتهم الأولى حلما معاً أن سَيْلاً انهمر على الوادي فقبض الجبل على الكعبة، ورُفِعَ الحجر

الأسود، وكذلك فعل معهما حين عرف أنهما حمامتا النبي نوح، ترفّق بهما واحتضنهما أيضاً. استيقظا وكان في قلبيهما ارتعاب ومهابة. سألها زوجها: مما جزعتِ؟ فردت عليه: مما رأيت، وقال: لم أرَ إلا ما حذرنا منه نوح. هذا الذي أجزعني قالت الحمامة. فاقترح على أنثاه: نعود إلى حيث كنا في مأمن على فلك نوح. أجابته: لننتظر ونرَ بعد انشقاق نور الصباح، ونسأل مَنْ يعبر الوادي ومن يطوف حول الكعبة.

ظلا يسألان ويتكاثران في صحن الكعبة. وتنوعت أصنافهم وأشكالهم وألوانهم وهديلهم، ولم تنقطع ذريتهم عن وراثة ما حذرهم منه النبي نوح. سألوا كل عابِر، وكل راجِل، وكل راحِل، وكل مُسَافِر، وكل مُهَاجِر، وكذلك سألوا ابن السَّبيل فلم يأنسوا إلا إلى كلام رشيد حمدان الذي لم يكفّ عن سرد الحكايات عن الحَمَام القُمريّ مع الأنبياء والرسل والصالحين. ولكن عندما رأوه يكشف حجر الشاذروان استنكروا الأمر في أوله. وقالوا: هذا ما حذرنا منه النبي نوح. وقرروا هجرة الكعبة، وعزموا على ذلك حتى قالت حمامة حمراء كهلة عاش أسلافها في حوش بيت النبي محمد: إن ما فعله هذا الرجل فيه حكمة، فلا تهجروا الكعبة وتضيعوا في أصقاع الأرض. تدارسوا الأمر وهم يسمعون الرصاص في الحرم وحول أبواب مكة. شهدوا على الدم المسلم يسفك، كما شهدوا مصائب سابقة وقعت في الكعبة وما حولها وتسببت في قتل الحجاج والمسلمين بالسيف والحجارة والمنجنيق؛ وصار الحمام القُمريّ ذاكرة تاريخ مكة.

• الشاذّروان:

قبل أن ينطلق الرصاص في محيط الحرم، أجلسه في الصحن وقال له:

أريد أن أرى الفلق الذي يعذبك؟

لم أفهم كلامك يا مولاي؟

الحجر يا يعقوب، الضوء الأحمر.

ولكنني أخاف على بيت اللّه.

لست مخوَّلاً بالخوف عليه، له صاحب يحميه. اترك الحجر معي أنظرُ في أمره.

جاء يعقوب نهار اليوم الثاني يحمل معه قِرْبة ماء قدمها إلى رشيد حمدان. اشتكى له عوارض الخوف والارتياع وإصابته بالحمَّى وعدم قدرته على النوم منذ أن رمى في وجهه بهذا الطلب. مسح عليه رشيد حتى هَدَّأ من روعه. سأله عن الحجر، فأشار إليه يعقوب أنه داخل القِرْبة محاصر بالماء.

ولماذا الماء؟

سأل رشيد حمدان، فحكى له يعقوب رحلته الطويلة منذ العثور عليه وسط قاع بحيرة في تنجانيقا. هزَّ الرجل رأسه، تناول القِرْبة، ابتسم له وقال يطمئنه:

هذا هو الفلق الذي قَضَّ مضجعك يا أبا يوسف.

انسحب وتركه في عزلته يرى كل شيء طبيعياً. الشمس مشرقة وتنشر دفئها في هذا اليوم الشتوي. الناس تقضي أمرها بالصلاة أو بأداء المناسك. ها هو كل شيء طبيعي. وعلى رشيد حمدان تحمُّل ما ستر في قلبه الآن.

مرت الأيام، وانشغل يعقوب بأمور حياته اليومية وإدارة شؤون أعمال سيده محمود بخاري خاصة بعد سفر صديقه عيسى النجار عائداً إلى مسقط. وقيام جعفر بشراء بيت صغير في ضواحي مكة، يقع قريباً من الاستوديو تساعده زوجته على إعداد النساء اللواتي يأتين مع أزواجهن لالتقاط صورة تذكارية. انكبَّ رشيد حمدان على مكتبة الحرم المكّي ومكتبة المدرسة الصولتية، التي بناها محمد رحمة اللّه الكيرانوي الهندي في حارة الباب على نفقة ثرية هندية اسمها «صولة النساء»، يقرأ في كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» لزكريا القزويني، و«تاريخ الأمم والملوك» لمحمد بن جرير الطبريّ، و«نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للدمشقي.

دعاه رشيد للصعود وحدهما إلى جبل السيدة وقضاء الليل هناك. شَكّت خديجة في خطب ما، ولكنها لم تستطع منع زوجها من ذلك. طلعا قبل أفول الشمس، ودخلا مقبرة السيدة خديجة بنت خويلد زوجة نبي الإسلام، وجلسا عند القبر، صلَّيا المغرب والعشاء، ثم انطلقا إلى الجبل. وفي منتصف الطريق توقف يعقوب وقال لصاحبه: قدماي لا تسعفانني على المضي أكثر. نُخَيِّم هنا وأسمع ما عندك يا مولانا. وبعد أن أشعلا النار وأكلا ما حمله معه يعقوب، ظل الصمت ساكناً على رأسيهما حتى أخرج رشيد من جيب سرواله قطعة قماش ووضعها أمامهما وقال ليعقوب أهذا حجرك؟ لقد قيدته بقيدٍ مؤقت.

تَوَجَّس يعقوب وهو يرى رشيد حمدان يفك الصرة ببطء وعناية. ظهر أمامه حجر الياقوت؛ أحمر ذهبي اللون، وله شكل الكبد، ولا يتعدى حجمه بيضة حمامة، شفاف في أطرافه، ويسكن في عمقه كائن في منتهى الصغر كأنه يتحرك في داخله، ينبض بروح سكنت باطن الحجر منذ قرون طويلة. إن ما رآه يعقوب حينئذ كان آخاذاً. طمأنه رشيد وطلب منه حمل الحجر في كفه. تردد أول الأمر ثم أخذه بحذر بالغ ووضعه في كفه، قرّبه من عينه ودنا من النار ليرى هذه الألوان الآسرة تتحرك داخل الحجر. رأى في داخله ما يشبه دائرة شمسية تخرج من الشرق وتدور بشكل كامل لتصل إلى نقطتها الأولى.

ظل على هذه الحال وهو غير مصدق أن هذا الحجر هو نفسه الذي ينثر ضوءه الأحمر ويسبب النكبات. قال له رشيد حمدان:

هو حجر اللعنة، وهو مخصي الآن. لقد قلّبت الصحائف والكتب، وراجعت المتون والأمهات والمظان، وقرأت ما ذكره القزويني، والدمشقي، والطبري.

لم أفهم ما تقول يا مولاي.

دنا منه رشيد وأشار بسبابته إلى الكائن الصغير داخل الحجر وقال له:

هل ترى هذا؟ إن هذا ليس بكائن حيّ كما نعتقد للوهلة الأولى. لا، إنه السّجيل الذي حملته الأبابيل.

هل تقصد الطيور التي هاجمت أبرهة الأشرم حين أراد هدم الكعبة؟

نعم، هو ذاك. وهو حجر طيني، وفي الطين تكمن الحياة يا يعقوب، ولكن هذا الحجر الطيني مأخوذ من وادٍ في جهنم وقد ذكر الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»: «أرسل اللّه عليهم طيراً من البحر تشبه الخطاطيف، ومع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه مثل الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت»

ولكنني عثرت على هذا الحجر في بحيرة تنجانيقا؟

إن هذا الأمر مربك. وقد قادني بحثي واستنتاجي إلى حكيم كان برفقة جيش أبرهة، شهد الواقعة، وبرر أسباب الدحر بهذا الحجر الطيني الصغير. فأخذ حجراً منها لم تصب أحداً من الجند والقادة، وربما حمل معه أكثر من حجر وقدمها إلى النجاشي ملك مملكة أكسوم في الحبشة الذي هاله ما سمع عن دحر أبرهة وجيشه.

قبض يعقوب على الحجر بكفه، واستلقى على ظهره. السماء صافية، والنجوم تنتشر قرب قمر يوشك على الاكتمال. تنفّس بعمق وشعر بارتياح كبير، التفت ناحية رشيد حمدان:

هل انتفى الشر يا مولاي؟

لا يا يعقوب.

اعتدل في جلسته متوتراً. ازدحم قلبه بالخوف والقلق وهو يسأل:

ماذا نفعل به إذن؟

علينا بالشاذروان.

بعد أيام معدودات من تلك الليلة انطلق الرصاص معلناَ قيام ثورة عربية ضد الحكم العثماني الذي كان يدير شؤون مكة والحجاز.

• الطوفان:

هكذا صحا سكان مكة من نومهم على أذان الفجر. هزيم الرعد يتخلل نداء مؤذني المساجد المتناثرة بين حاراتها. ارتفع صوت السماء بعد الانتهاء من النداء للصلاة فأرزمت ودوَّت برفقة لوامع برق ملأ السماء وأنار المدينة. هطل المطر رذاذاً متفرقاً، ثم ما لبث أن انهمر بشدة بعد أن تلبدت السماء بغيوم داكنة مطيرة. ولأن مكة تقع في واد غير ذي زرع، تحاصرها الجبال من كل جانب، بدأت المياه تنزل متدفقة بسرعة خارقة وتجد لها متسعاً في صحن الكعبة. وقبل هذا بيومين دعا رشيد حمدان يعقوب وجعفر للذهاب معه إلى المدينة المنورة، فاعتذرا. الأول بسبب توعك زوجته خديجة، والثاني بسبب عوارض حمل زوجته ميَّاسة.

بعد انطلاق الأذان خرج يعقوب وجعفر لأداء صلاة الفجر في الحرم كعادتهما، اصطحب يعقوب ابنه يوسف معه وكانوا سعداء بتساقط المطر. انتبذوا كعادتهم زاوية بعيدة وبدأوا بالصلاة تحت المطر. اكتشف يوسف أولى خطواته مزهواً بذلك، يفتح يديه وفمه ويسير ثم يتعثر ويقف من جديد. ومع اشتداد صوت الرعد المدوي خاف الطفل، واكتشف أن والده ليس قريباً منه. وجس يعقوب وهو ينهي صلاته مسرعاً مع ازدياد صوت الرعد ضجيجاً، وبدأ بالبحث عن ابنه. في هذه اللحظة العميقة والخاصة شعر أن اللّه يراه من خلف غيم وجبل. وأن ما فات من عمره ينبغي أن يحتفي به الآن. وها هو يشعر باقترابه مع ازدياد تساقط المطر واختفاء ابنه. قطرة تتبع قطرة وسط انتشار الصواعق حتى خمن أن جبلاً من جبال مكة تحرك من مكانه ليسمح باندفاع السيل مباشراً وقوياً نحو صحن الكعبة.

اختفى ابنه يوسف في غمضة عين. رفعته ملائكة لتحميه من عاقبة ما هو قادم إليهم. وهي بلية لن ينساها أهل مكة والعابرون في طريقهم نحو الصلاح في طقس لم يتوقف منذ عطش إسماعيل وجلجلة أمه هاجر. جاء السيل ليملأ الحرم عن عمد وقصد. انصبَّ متحرراً من أي شيء يمكن أن يقف في وجهه. حمل معه عبر مروره بأسواق مكة وحواريها كل القذارة والزّبد ليرمي بها داخل بيت اللّه فتطوف بدل المسلمين. وتلوث ماء زمزم وتغمَّر مقام إبراهيم، ووصل حتى منتصف الحجر الأسود.

أنهى جعفر صلاته واندفع يسبح في الماء بين جثث طافية جرفها السيل من حارات تقع أسفل الجبل الذي تزحزح لخاطر هذا النداء. ينزل المطر من ميزاب الكعبة مثل وابل حتى أغرق من وقف تحته يناجي ربه بالدعاء، على أن

الدعاء تحت الميزاب مستجاب، ولكنه يُضَيّع الروح في مثل هذه اللحظة الصعبة.

ترقَّب رشيد حمدان الجالس في حضرة مقام النبي محمد في المدينة أهوال مكة. دنا من الشباك الذي يطل على قبر الرسول وأوصاه بأصحابه الذين تركهم في مكة. جلس في الروضة الشريفة الواقعة بين القبر والمنبر، ورأى خديجة تبكي ابنها وزوجها. وأكدت هي فيما بعد أنها سمعت صوت رشيد حمدان يتردد وينشر السكينة في قلبها: لا تخافي على ابنك، سيعود يوسف ويكون من الأشراف.

لم يعثر يعقوب على ابنه الذي باغته السيل ورمى به صوب باب مرتفع كان الناس يتصاعدون على بعضهم البعض لبلوغه. وظن أن ابنه قد غرق بينهم، فاندفع بكل قوة يبحث عنه وينادي باسمه، ويزيح ما يعيق تقدمه حتى سقطت على رأسه حجارة رمى بها السيل من أحد الجبال. نزف الدم وأغمض عينيه في سكينة. واستيقن أن هذه اللحظة لم تكن إلا لحظة فراق الدنيا، بعد أن لطمت به الحياة منذ أن قذفت به أمه إلى أن قذف به السيل.

سبح المعتمرون والمصلون في صحن الكعبة على وجه ذلك المطر الذي ارتفع منسوبه للنجاة بأنفسهم من الغرق. ومنهم من اتجه شطر الكعبة للطواف حولها سابحاً سعيداً بهذه اللحظة رغم تعريض حياته للخطر. وهناك من لجأ إلى دكاك خشبية تعوم بقوة السيل. ركبوها وسيَّروها بأرجلهم مثل الزوارق، واستخدمها بعضهم للطواف بها حول الكعبة، بينما اتخذها آخرون طوق نجاة لإنقاذ من لا يعرف السباحة، خصوصاً النساء اللواتي تواجدن قبل الفجر.

رأى جعفر الطفل يوسف واقفاً على منبر خشبي من تسع درجات، مستظلاً به من رعب المطر الذي يرفع قاعدته ويدفع به يميناً ويساراً. حاول الوصول إليه فلم يتمكن من ذلك. فكَّ العمامة الخضراء المربوطة كحزام حول خصره بعد منعه حراس الحرم من ارتدائها؛ لأنها تخص الأشراف وتميزهم عن غيرهم بعد سيطرتهم على مكة والحجاز. رمى بها إلى يوسف ليمسك بها من الطرف الآخر حتى يصل إليه. دفعه بعض المصلين الذين اعتقدوا بقدرته على إنقاذهم فطحنوه تحت أقدامهم وضاعت معه الصور والمعابد وفتيات المنطقة الحمراء وارتخت قبضته عن العمامة فتركها. سحبها الطفل معتقداً أن جعفر فعل ذلك لإنقاذه. طواها وظل قابضاً عليها ونام من الخوف. وبعد مرور ساعتين عاد الجبل إلى مكانه وأعلن المطر توقفه، وعثر الأهالي الذين هبوا لنجدة من كان في الحرم المكي على طفل معمم بعمامة خضراء.

بعد ذلك بشهر، شَدَّ رشيد حمدان حقائبه وصناديق نحاسية مليئة بالكتب وصلت إليه من القاهرة ودمشق والقدس والمدينة المنورة. ولم ينسَ أمانة يعقوب المسكونة تحت الشاذروان وأوراق كثيرة قضى وقته وهو فوق سفينة مبحرة به نحو مرفأ غوادر في إعادة ترتيبها وإضافة ملاحظات حولها. ليال طويلة قضاها يتأمل النجوم حتى عرف أن روحاً مؤذية تائهة سوف تستجير به في قريته سقرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
أرخبيل الخوف

- 1 -

عرفتُ أن هذا أول قطرة من وابل نوازل تدور رحاها عليّ في ذلك اليوم المستعر من العام 1926م. عندما دخل عليّ عامل سيدي عبد العزيز وهو يلهث ويطلب إغلاق المخزن بسرعة؛ لأن رجال البوليس من الهنود والبلوش ثاروا في القلعة. وأنهم بصدد دخول السوق ونهبها! شككت في الأمر وطمأنته أنه لا يمكن أن يقتلني أحد ولن ينهب أحدٌ بضائع سيدي عبد العزيز.

أقفرت الساحة الممتدة من مرفأ المنامة إلى شارع التجّار من الناس والعمال والتجار والحمير والبغال. أغلقت المحلات والعمارات أبوابها، أما السفن الصغيرة فقد توجهت إلى منطقة العبّارات لازدياد حركة المسافرين إلى جزيرة المحرق خوفاً من الموت. تقدم مني رجل أفريقي أسود يُدعى سالم، وكان ينضح عرقاً غزيراً حتى شككت أنه خرج من البحر للتو لولا أنني رأيت معه نساء مغطيات بالعباءات وعبد ات كاشفات الوجه. وبعد أن عرّفني باسمه أخبرني أن من معه هنَّ من رعايا الشيخ. طلب بلطف الاختباء في المخزن حتى يهدأ الهرج أو يصل فداوية الشيخ لنقلهم بأمان إلى جزيرة المحرق. انتبهت لوجود طفل في العاشرة من عمره يرتدي ثوباً بحرينياً وشماغاً فوقه عقال سميك مطرز بخيوط الذهب، محاط بنساء وعبيد في محاولة لإخفائه عن العيون. أدركت أن الأمر يتعلق بهذا الصبي. فتحت الباب وأدخلتهم. طلب مني سالم تعليق راية حمراء قدمها لي ليستدل الرسول على مكانهم. طمأنته مرة أخرى أنني سأغلق عليهم الباب وأعلق الراية وأنتظر في الخارج.

ولأول مرة أرى المنامة موحشة وتكاد تخلو من الناس الذين هجعوا داخل دكاكينهم وبيوتهم. لم أجد نفسي متهوّراً بوقوفي في الخارج بقدر شعوري بالفضول لمعرفة ما حدث. مَرّ الوقت ودخلنا على صلاة الظهر وازداد الحرُّ مع انسحاب الظل. حتى مَرّ عليّ مدير الجمارك الإنجليزي برفقة حراس سوق التجّار، وأخبرني أن المعتمد البريطاني لم يقتل بل هو مجرد خلاف بين ضابط هندي وشرطي بلوشي دفع بالثاني لإطلاق طلقتين واحدة قتلت الهندي والثانية جرحت بالخطأ أذن المعتمد البريطاني الذي عولج في مستشفى الإرسالية الأمريكية. سمع سالم حديثنا فخرج من المخزن ورحَّب بمدير الجمارك الذي لم يرتح لظهوره المفاجئ، إذ يبدو أنهما يعرفان بعضهما من قبل، وسأله بتعال: لماذا أنت هنا يا مايك؟ تذكرت الاسم وعادت بي الذكريات يوم كنت مصقولاً بالدهان ومعروضاً للبيع في سوق العبيد تحت سطوة رجل مطرح ثابت بن جارم. نظرت إليه واستعدت تلك اللحظة الخاطفة وأنا أراه مخفوراً بالحراس ومقيداً فوق عربة عَتَّال يُجرّ مسرعاً قبل سنوات، يوم وطئت قدماي أرض البحرين. قلت له مباشرة: لماذا فعلت بي كل ذلك يا

مايك؟ رمقني باستغراب، حضنته ومنَّيت النفس باقتراب موعد الرحيل والعودة إلى سقر. همس لي أنه لا يعرفني، ولكنه تقديراً لشهامتي وعدني بالعودة والنظر في أمري بعد توصيل النساء والطفل الذي معه إلى بيت الشيخ في المحرق.

عاد مايك. وكنت قد ذهبت قبلها مسرعاً إلى المنزل، فتلقفتني جوهرة الجالسة في الإسطبل تحلب إحدى البقرات وابنتي وضحى في حضنها ترضع من ثديها. سألتني عما يجري وينتشر مع موجة الحر غير المحتملة فلم أردّ عليها. دخلت على فاطمة وكان ابني رشيد نائماً وهي تهفُّ عليه. طلبت منها الخروج فاستغربت ورفضت في البداية. أخبرتها بأنني عثرت على من أرسلنا إليه ثابت بن جارم. خرجت فاستقبلتها جوهرة بتعليق جنسي مباشر لم تضحك عليه فاطمة. أخرجتُ الصرة من مخبئها وحملتها عائداً بسرعة إلى المخزن. لم أستمع لجوهرة المصرة على التحدث معي في أمر هام كما قالت. شعرت لأول مرة أنني على وشك الانتهاء من أمر عظيم أستطيع بعده صَرَّ متاعي وتهيئة نفسي وزوجتي وعيالي وأعود بهم إلى قريتي سقر.

وضعت الصرة أمام مايك بعد أن حكيت له حكاية عرف بعض تفاصيلها ولم يعرف بعضها الآخر. دفع بها نحوي وقال بقلق ظاهر: من يعرف عنها غيرك في البحرين؟ هززت رأسي: لا أحد. طلب مني الاحتفاظ بها لحين استتباب الأمن. وأن آخر الأخبار تقول إنهم قبضوا على من أطلق النار وسوف يحاكم. ويبدو أن فرقة البوليس التي شكَّلها المعتمد البريطاني وقوامها مئة وتسعة لم يكونوا إلا من أصحاب السوابق والمجرمين، وأن المستشار البريطاني الجديد سيقدم مشروعاً جديداً لتأسيس فرقة منضبطة ومحترفة. رمقته مستغرباً ولم أفهم علاقة كل هذا بموضوع الصرة الواجب عليّ تسليمها له، والتحرر من أمر ثابت بن جارم لأتمكن من العودة إلى سقر. ولكنه قال لي برصانة ووجه وضاح: عليك بالصبر.. الصبر يا يوسف. خرج وتركني في حيرة من أمري في نهار لاهب نسيت فيه السفن الراسية قرب مرفأ المنامة ذاكرتها. ولم ينسَ أن يترك لي هدية شكر من الشيخ تقديراً لشجاعتي بحماية رعاياه. وهي صاع من الرز وربعة سمن وضعتها بين جوهرة وفاطمة لتتقاسماها فتنازعتا عليها.

أن تعيش بين امرأتين، تتأمل جسديهما كيف يستقبلانك: يتصلبان ويرتخيان، يعوجان ويستقيمان، يعاندان ويستسلمان، يشتهيان وينفران، يعشقان ويكرهان. عندها تكتشف الفوارق الكبيرة بين جسد وجسد، وتشتهي الزواج مثنى وثلاث ورباع. تجلس فاطمة عن يميني وفي عينيها رجاء، فأستفسر عنه، وبلا تردد تجاهر:

أريد الرحيل.

لم يأذن لي عبد العزيز.

نحن لا نحتاج إلى إذنه.

بلى يا فاطمة، في يده الحَلّ والرَّبط.

سوف تدفننا في البحرين يا يوسف وأنا لا أريد أن أقبر هنا.

ثم تصدُّ عني، فيتصلب جسدها ويعوج ويعاند وينفر ويصبح صعب المنال. فأقول لها:

سأذهب إلى جوهرة.

أتركها في الحسرة، امرأة ضعيفة الجسد واللسان، وليس لها سوى صمتها الذي تمرنت عليه منذ تنقيط عصارة الجراد في فمها، واختطافها من بيت أبيها مصطفى على حدود سقر بعد ذلك.

دخلتُ على جوهرة بعد صلاة المغرب، رأيت جسداً لدناً ومستقيماً ومستسلماً فتعارفت مع شهوة سرتها وهي لا تخفي شبقها ومتعتها، وكان هذا الأمر يثير حيرتي وفضولي. ما الذي يجعل من هذه مختلفة عن تلك! بعد أن اغتسلتُ ذهبتُ لصلاة العشاء. عدت بعدها إلى فاطمة فوجدتها قد تخففت من تصلبها وعنادها ونفورها، فاشتهيتها ولانَت تحتي. وازدادت حيرتي في أحوال النساء. ظلت متوترة، فلم أتحدث معها عن رغبتها في ترك البحرين، ولكنني عرفت أن قلبها يفيض بالكلام الذي تكبته طوال النهار. سألتها بطيب خاطر عن الأمر، لم تقل لي شيئاً. وأدركت أنها مشحونة بالحديث، وعليّ الطلب منها مرة ثانية وثالثة قبل أن تبدأ بالبوح، ويسبقها ولولة وشعور بالغبن مما عانته من خطف وتهجير وعرض للبيع في مطرح، وكأنني لم أكن معها في كل ذلك. تنهي كلامها بأمر بات:

طلِّق العبد ة!

الأمر ليس بيدي.

أنت رجلٌ حرٌ ولست عبد اً في يد عبد العزيز!

أنا لست حرّاً، لقد كنت معروضاً للبيع مثلك في مطرح.

لماذا لم يشترِكَ ثابت بن جارم إذن؟

أصمتُ كوني لا أستطيع البوح بما أخفيه عنها ولا يعلم به إلا ثابت بن جارم. ولم يستلمه مني مايك الذي صار اسمه سالم بعد! أحاول شرح تعلقي بها منذ أن لمحتها في بيت والدها مصطفى سليم. وأن جوهرة ليست إلا مجرد تكليف من صاحب الدار والفضل في إيوائنا وتوفير العمل والسكن لنا. عندها قالت:

تطلَقها ونعود إلى سقر.

سنعود إلى سقر وسأطلقها، ولكن الأمر يحتاج إلى التروي.

تبكي وتردد: لقد طاب لك البقاء هنا، سوف تتزوج الثالثة والرابعة. رغبتك لا أشبعها! أحاول تهدئتها فلا أجد طائلاً في ذلك. أتركها وأنسحب لأنام على الأرض. وأنا أردد لنفسي وبصوت تسمعه: هذا بلد مجنون، لا يمكن البقاء فيه. ترمقني باستهزاء، ثم تدخل في صمتها الخاص. صمت فاطمة يخلخل نظام حياتي كله ولا يعتدل إلا عندما تخرج منه. وهي لا تفعل ذلك إلا بعد شعور عميق بالخذلان والتعب من وعد قطعته على نفسي لها، أو طلب وعدتها بتحقيقه. تعود لعملها اليومي بنقل الماء من العيون إلى بيت عبد العزيز والكثير من بيوت التجّار النجديين والفارسيين والعجم والبحارنة، ولا تنسى في طريقها اليومي المرور بالبيت والاطمئنان على رشيد وحائرة وإعداد الغداء لنا قبل مواصلة عملها اليومي. أما جوهرة فلا تملك من الحياة سوى أحلام لا تكف عن تكرارها ليلاً حين أنام عندها. وتتلخص في ركوب عَبّارة صغيرة وزيارة جزيرة المحرق، أو وفاء نذر أو في التهام قطعة ثلج صغيرة تراها حين يستضيف سيدنا عبد العزيز كبار التجّار والأعيان من بومباي والبحرين والقطيف، وبعض الرجال العرب الذين يرتدون البدلات مثل الفرنجة من القدس وبغداد وبيروت ودمشق. تستمتع بلمسها والشعور ببرودتها المثيرة، وأحياناً تلحسها بلسانها. وكم سعدت عندما أحضرت لها قطعة ثلج صغيرة بحجم ثمرة الجوز الفارسي فجلست تقضمها بلذة لا تضاهى.

ولداي وضحى وسعود دائماً في حوش البيت الكبير ولا أراهما في دارها؛ لأنهما ببساطة أبناء البيت الكبير. كل خادمة أو أَمة أو حتى سيَّدة ترمي بعيالها في الحوش الكبير، فيكبرون بين رمل البحر الأبيض الذي يغطي الأرضية ويخرج منه في سهو الوقت أطفال وأمواج متكسرة وصراخ بحارة ضاعوا في اليَمّ أو اختطفهم الجن. يكبرون مثل إخوة حتى يبلغوا وحينها يصنف الأطفال بحسب قوتهم المكتسبة بين سيد أو سيدة يضافون إلى سادة البيت، أو خدم وعبيد وإماء، فيتباعدون ويتلونون، يأمرون أو يَأتمِرون.

جاءني سالم بعد أسبوع وصحبني إلى القلعة لحضور إعدام الشرطي البلوشي. أخذني الفضول وتقت لسؤاله قبل الاقتصاص منه إن كان من أهالي مكران أو يعرف أحداً من سقر. ويبدو التطفل سمة منتشرة هنا، فما إن وصلنا حتى هالني الحشد الذي تجمع. الشهود يأكلون ويشربون ويضحكون ويعلقون فرحين بالفرجة. اعتقدت بأنني قوي القلب لكنني وجدت لحظة ارتقاء الروح بعد إطلاق النار أمراً مخيفاً. تجرأت بعد وهلة ورأيت رأسه متدلياً إلى الأمام، وصدره مثقوباً بالرصاص. في طريق عودتنا لم نتحدث. خواطر

كثيرة اجتاحتني وأنا أحاول اكتشاف المنامة واختبار نفوس ناسها وأهوائهم وحيلهم وغدرهم. تيقنت أنها مدينة يخاطبها الشيطان كلما غاب عنها القمر، فيُخرج ناسها جنونهم المستتر وينتشر الكلام والفعل السِّرّي خلف أسوار بيوت السعف والطين، وبين الأغنياء والفقراء. قال سالم: لا تعتقد أنني نسيت أمرك. وتذكرت عابدين وسيفه، ثم استحضرت مشهد القمل الكثير وهو يخرج من كفنه قبل أن تَحلَّ علينا الكثير من المصائب. وبرجاء طلبت منه: عليك أن تستلم أمانتك. سبقني في مشيته وهو يردد: عليك بالصبر يا يوسف.

مرت سنوات، وسالم يحدثني بلطف ويغنيني بكلام طيب، ويعدني بالخير دائماً. وأنا حائر بين امرأتين. أتلقف استياء فاطمة بشكل متكرر وأعاني من صمتها. وأتساءل عن عدم شكوى جوهرة أو غيرتها من فاطمة، حتى عرفت أن جوهرة لم تكن تضمر لي أي مشاعر عاطفية. علاقة صلح ومصلحة ستنتهي في وقت ما. عرفت ذلك في ليلة صيف، بدأت مع طَرَقات حادة على الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

جاءت الطَّرَقات على باب الكوخ قوية. أفاقت فاطمة خائفة، استيقظ الأطفال إلا عبد الله. فَتْحتُ الباب وجوهرة واقفة يلتصق بها عِيَالها سعود ووضحى. تزفر وعيناها مُحمَرَّة فعرفت أنها تتوجع. اكتشفت أن يدها مشروخة من شدة الضرب. قالت لي برجاء لم أسمع مثله من قبل: أعرف نبلك يا يوسف، لم تشتكِ مني في يوم، ولم أسمع منك كلمة خبيثة. واللّه إنني لأفتح لك باب الجنة على موقفك وسترك عليّ. أقول لك ما لم تسألني عنه: وضحى ابنتك ومن صلبك. والبقية أنت تعرف. رمقتها، لا أعرف ماذا أقول أو أفعل لأخفف من مصابها. دفعت وضحى إلى داخل الكوخ، وجاهرت بصوت واضح ومسموع للجميع: إن أحببت أن تأخذها فهي ابنتك، وأما سعود فسيذهب معي، والبقية أنت تعرف. وقعتُ في الحيرة وأنا أسحب وضحى إلى الداخل، وقف سعود خلفها. مددت يدي نحوه وسحبته وخيَّرتُهُ بهدوء: هل تحب أن تنام مع إخوتك أو تذهب مع أمك؟ ظل متشبثاً بعباءتها من الخلف، وعيناه زائغتان جزعتان، مليئتان بالقهر. رمقتها وسألتها مستغرباً: من ضربك يا جوهرة؟ نظرت نحوي بحزن، وفي عينيها تاريخ من الألم الذي لم ينقطع، تتحدث عنه حين أمرُّ عليها قبل المساء، وأجلس مثل سيدي عبد العزيز على أريكة قطنية مستهلكة مطرز على قماشها صورة فارس بدوي يركب جملاً متعباً من الحروب أو الترحال. تصب لي الشاي و تُمسِّد قدمي وتحكي عن بيعها في سوق جدة إلى تاجر بعد شحنها من الحبشة مع خمس فتيات كن في الثانية عشرة من العمر. قُـيِّـدنَ في جوف السفينة فلم يرين سوى الظلام، ولم يسمعن إلا أصوات الرجال العاملين على ظهرها. حدثتني عن لحظة فارقة، حين نزل بحّار وحجب النور عن عيونهن، وباعد بين أرجلهن ثم غادر. تيقنت إحداهن بأنهن سيغتصبن. ظللن على هذه الحال حتى نزلت إليهن ثلاث نساء يتحدثن السواحلية، وبدأن بتقطيع الشفرات الكبيرة الظَاهِرة في متاعهن لتحسين شكله، ومنحه جمالاً بدون هذه البروزات اللحمية. وبسبب هذا الوضع كن يتعرضن أحياناً لعضة من جرذان السفينة في فخوذهن، والسيئة الحظ من تتعرض لقضمة جرذ في حِرّها، تتسبب في مرضها وموتها. بيعت في جدة إلى رجل أخذها معه إلى نجد، قبل أن يهديها الأخير إلى والد عبد العزيز الذي أعجب بقوامها وفطنتها وسرعة بديهتها. رأت جوهرة ابنتها وضحى ترمي بنفسها في حضن فاطمة، وبكت مع بكاء حائرة، صكت الباب في وجهي وغادرت.

ومع خيوط الفجر الأولى جاء رجال عبد العزيز. طرقوا الباب علينا. سألوني عن جوهرة فأخبرتهم بأنني لا أعرف عنها شيئاً. طلبوا مني الذهاب إلى مجلس سيدي عبد العزيز فأبديت موافقتي. خافت فاطمة كثيراً، ووقف عبد

الله عند الباب وقال لي وكأنه عرف كل شيء: عمتي جوهرة هربت! وقفت بين يدي عبد العزيز. سألني:

أين ذهبت جوهرة؟

لا أعلم يا سيدي.

كيف لا تعلم وهي زوجتك؟

لا أدري يا سيدي.

ومن أحضر لك وضحى؟

هي يا سيدي. ولكنها لم تخبرني إلى أين ستذهب؟

ولماذا تركت معك وضحى وأخذت سعود؟

أرادت أن تتركهما عندي، ولكن سعود رفض وذهب معها.

هل غادرت البحرين؟

لا أعرف يا سيدي.

وأشار لي بيده بالمغادرة ولكنني ببلاهة مقصودة قلت له:

لقد ضربها أحدهم يا سيدي.

تستحق ذلك.

في طريقي للخروج من المجلس لمحت يحيى بن سيدي عبد العزيز مقيداً في عمود في حوش البيت الكبير يُعذّب وينكل عليه العبيد عادة. طلب مني أن أسقيه ماء ففعلت. ولم أسأله لِمَ هو مربوط. تأملني وأنا أروي ظمأه وأداري سقوط بعض القطرات على ثوبه المتسخ. شكرني بلطف. بُهتَ جميع الخدم الذين يعملون عند سيدي عبد العزيز من جرأتي في منحه شربة ماء! مرت الأيام وهدأ عبد العزيز. حرر ابنه وزوَّجه ببنت نجدية لم تحض بعد!

كل شيء معروف وواضح دون أن يتحدث عنه أي أحد. الكثير من الأشياء تحدث وتظل سِرّاً ويمنع الحديث عنها. في البيوت الكبيرة الأسرار ظاهرة ومكشوفة ولكن تُعمى العيون عن مشاهدتها، والألسنة عن البوح بها، والقلوب أحياناً عن رفض الشائن منها. وعرفت من ابني عبد الله أن رجال عبد العزيز مشّطوا جزائر البحرين بحثاً عن جوهرة. رجال مسلحون ركبوا قوارب صغيرة وتوجهوا للمحرق وسترة والبديع والنبيه صالح دون طائل.

استيقظنا على خبر موت أكثر من ستين نَفْساً من الرجال والنساء والأطفال نتيجة تدافع في دهليز منزل التاجر الفارسي عبد الرحيم جمعة الذي كان يهم بتوزيع زكاة وصدقات اعتاد القيام بها غرة كل شهر. سار الخبر بسرعة البرق. أقفر شارع التجار في المنامة من المارة، وأغلقت بعض المحلات أبوابها لتطمئن على أهلها. وفي الوقت عينه خرج البعض محتجاً بسبب توزيع الزكاة في شهر محرم، حيث يقوم البحارنة بأداء طقوسهم الغريبة والعجيبة! جاءت وضحى إلى المرفأ، وكنت قد أصبحت مشرفاً على مخازن عبد العزيز الكثيرة، وقالت إن أمها فاطمة تريدني؛ لأن رشيداً متوعك.

أغلقت المخازن وعدت مسرعاً مع وضحى. وجدته يهَذْي ويردد كلمات دوختني. حملته وسرت به إلى المستشفى الغاص بالناس بسبب حادث التدافع الذي وقع في بيت التاجر. الجثث مصفوفة على أرض المستشفى وفي الطابق العلوي والشرفات. الكثيرون يبكون وهم يبحثون عن أقاربهم بين الموتى، والبعض الآخر يطمئنّ على من نجا من الاختناق ولكنه يعاني من ضيق تنفس.

انتظرت مداواة ابني رشيد الذي هدأ ونام. جاءت الممرضة الأمريكية كورنيلا التي تعوَّدنا على مناداتها بشريفة الأمريكانية وكشفت عليه. شكت في نبضه وبرودة جسده. وضعته على طاولة خشبية يغطيها قماش أبيض ونادت الأب والطبيب صموئيل وتحدثت إليه. قام هو بفحص ابني مرة أخرى. واستدعى بصوت عالٍ أطباء آخرين فجاءوا إليه مسرعين. أحاطوا رشيد، وكنت أراه يتخفى عن ناظري. يحل مكانه بياض ثياب الأطباء وهو يتحول إلى غيم فلم أبصره ولم أتبينه. اقترب مني الأب صموئيل ووضع يده على كتفي، وقال برباطة جأش وبلغة عربية سليمة: ابنك مات يا يوسف! حملته وعدت به إلى البيت وكان الوقت مساءً. شهقت فاطمة وغرقت في الانتحاب حتى غُشِيَ عليها. وضعتُ رشيد على مرقده قرب إخوته الذين ناموا وهم يعتقدون بأنهم سيرونه مستيقظاً صباح اليوم التالي، عدا عبد الله الذي عرف ما حل بأخيه. طلبت منه إخفاء دموعه. قضى الليل كله جالساً على دكة خشبية خارج الكوخ يدفع بدموعه وهي تنزلق من عينيه لتصعد عبر سلالم غير مرئية إلى السماء.

في ليل أدهم، بعد أسبوع من كل ذلك، جاءت طرقات جوهرة قوية على الباب، وقفت مثل شبح لا يرى، وقالت لي هامسة: لك الأجر والثواب، هو يعطي وهو يأخذ. سألتها وأنا أداري حزني وأرفع انكساري كي لا ترى أي رجل ضعيف صرت.

ماذا تريدين يا جوهرة؟ عبد العزيز سوف يؤذيني ويؤذيك.

طلِّقْني يا يوسف، هؤلاء شهود، وأنت تعرف.

انتبهت لوجود رجل حبشي أسحم يدعى فرحان، طويل ونحيل جداً ولا يكاد يرى من شدة سواده يقف خلفها وقربه خادم وخادمة يعملان عند سيدي عبد العزيز. قلت لها:

وبماذا سيفيدك هذا الطلاق؟

سأطالب بحريتي، أنا عاشقة يا يوسف، وأنت تعرف.

ظللت واقفاً ومندهشاً لوهلة. أتفكر في جرأتها، ودون أن أعرف ما عليّ فعله وأنا في مصابي وحزني يعتصرني، عندها همست فاطمة: لقد حان وقت عودتنا إلى سقر يا يوسف. وبلا تردد جاهرت بطلاقي لها ثلاثاً وبصوت سافر. تقدم الرجل الحبشي وقال: أنت رجل صالح يا يوسف. ومَلأَ الأسْماع الخبر، وتناهى إلى مسامع عبد العزيز وغضب عليّ غضباً شديداً.

جاء لي عاملان يحملان عصا وكنت مشغولاً بتخليص بضائع جديدة ووضعها مع مجموعة من العتَّالين داخل المخازن الخاصة بسيدي عبد العزيز. طلبا مني ترك كل الدفاتر والأوراق في مكانها وحين فعلت ذلك دفعني أحدهما إلى خارج المخزن فصرخت في وجهه رافضاً هذه المعاملة، عالجني الآخر بالعصا. بدأ بضربي، اندفع ابني عبد الله للدفاع عني فوقع تحت دائرة الضرب أيضاً. رجوتهم تركه لحاله. تجمَّع الكثير من الباعة المتجولين والعتَّالين والكتبة وساسة البغال والحمير الذين ظلوا جالسين على عرباتهم يراقبون حجم الضرب والخبط الذي أصبحت لا أشعر به. توقف في مسافة غير بعيدة رجل من عِلية القوم، يحمل بشته في يده، وباغتباط تابع الضرب والأذية المستمر على جسدي. تركت امرأة أطفالها الذين لم يتوقفوا عن البكاء من شدة الجزع ودنت من الرجلين الذين يضرباننني، طعنتهما في رجولتهما ولكنهما لم يكترثا لها. تقدم زوجها وسحبها بقوة هي والأطفال وابتعدوا. حاول رجل بلغ أرذل العمر يسير بتمهل مستخدماً عكازه التشفع بكلمات فيها رحمة ورأفة وترفق ولم يستمع له أحد. أنزفُ من حنكي وأسناني ووجهي؛ والدم يصبغ ثوبي. شعرا بالإنهاك الذي أصابني. وقف أضخمهما على رأسي وقال أمام الملأ: سيدنا عبد العزيز يريد رؤيتك. تقدم الثاني وجرَّني بيدٍ واحدة، وابني عبد الله يراقب كل هذا. رأيت في عينيه رغبة ملحّة في النزوح عن البحرين، وعرفت فيما بعد أن ما حاق بي من جور لن يستطيع نسيانه ولا غفرانه. وقال الذين شهدوا الحادثة إنني أبديت ضراوة واستبسالاً لم يجرؤ عليها غيري في عصيان أوامر عبد العزيز والخروج عن طاعته، رغم شعوري بالمذلة والمهانة من هذا البغي. ظلت الأيام القادمة تعيد ذلك الشعور الذي جرح كبريائي حتى آخر نفس لي. ملأ الأسماع في حارة الفاضل والعوضية ومرفأ المنامة وشارع النُجّار: إن يوسف بن عبد الله الأعمى عبد طلق عبد ة.

اختفت جوهرة مرة أخرى، حتى جاءت الطرقات قوية على الباب بعد صلاة العشاء في ليلة رطبة، وكنا قد انتقلنا للسكن في كوخ داخل القلعة. فتح عبد الله الباب وقال لي: عمتي جوهرة! استغربت كيف عرفت مكان إقامتنا بعد ثلاثة شهور من قيام عبد العزيز بطردنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

قادت عبد ة حبشية رجال سيدي عبد العزيز إلى مسكننا، وفي الوقت نفسه بعث برجاله لضربي. طرقت العبد ة الباب ثم دخلت على فاطمة وقالت لها: سيدخل رجال سيدي؟ رفعت فاطمة عينيها ناحية العبد ة، وردَّت عليها هامسة بجملة، عجزوا عن سماعها، وبعد ذلك تعطلت حبالها الصوتية ودخلت في حبسة لم تخرج منها. دخل رجال عبد العزيز وبحثوا في الكوخ عن قرينةٍ يُستدلُ من خلالها على أرض جوهرة ولم يجدوا شيئاً. نثروا أغراضنا وملابسنا على أرض الإسطبل، ولم تنطق فاطمة، وإنما دنت من أطفالها وضحى وحائرة التي ساعدت في تجميع ولملمة نثارنا الذي حافظنا عليه منذ أرض سقر وقسوة مطرح. أمرتها العبد ة بمغادرة الكوخ. جمعت في صمت ما استطاعت من ملابس لم تزد عن قطعتين لها، وواحدة لحائرة وأخرى لوضحى كانت تلبسها حائرة سابقاً، مع ثوب صلاة واحد، وثوب وغُترة بيضاء وزجاجة دهن عود صغيرة أهدتها إليها مزنه قبل ركوبنا السفينة في مطرح وإعلان زواجنا، وريش من أحلام جمعناها منذ أن صرنا معاً. وضعت كل شيء في صُرَّةٍ صغيرةٍ وخرجت على بكاء وضحى. جاء عبد الله راكضاً وقد لمحهن مبتعدات عن منزل عبد العزيز. سأل أمه فلم تنطق. التفت ناحية حائرة فأخبرته بما حدث. لم يحكِ لهن ما وقع عليّ. أمرته أمه بالمسير معهن فلم يستغرب صمتها. كان معتاداً عليه. صمت يطبق عليها كلما هبَّت ريح الكمد والرزايا علينا. وتعلَّم مثلما تعلمت أنا، أن لصمت أمه وقعاً خاصاً ينبغي احترامه وعدم إزعاجها؛ لأنها لن تحيد عنه. الصمت الذي بدأنا الاعتياد عليه. سألها إلى أين نذهب؟ ولم تكن تدرك إلى أين تأخذهم.

خرجت نساء حارة الفاضل تودعنها دون كلمة وداع. كن يقفن أمام أبواب بيوتهن وأكواخهن ويتبادلن النظرات بإشفاق وحزن على فراق امرأة روت ظمأهن كل يوم وعلى دفعتين ولسنوات. وحاول عبد الله التحدث مع أمه دون جدوى. أيقن أنها غدت حلزوناً أغلق أبوابه ونوافذه عليه، ولن تُجدي محاولات استنطاقها. قطعت حارات المنامة وكان يسير معها محترماً رغبتها بالابتعاد. وصلوا مقبرة السُّنَّة حيث قبر رشيد، تمتد خلفها برية واسعة ومن بعدها قرية بحرية فيها مقام مبارك لشيخ هو كذلك. وقفت على قبر رشيد وبكت بصمت، ثم أشارت نحو القرية البعيدة. سار الأطفال وراءها بانصياع. يترك عبد الله مسافة وكأنه ملاك حارس لهن. وصلوا القرية وساروا باتجاه المسجد. جلست فاطمة على الباب تنتظر الإذن بالدخول، حائرة عن يسارها فيما رمت وضحى رأسها على حضن فاطمة ونامت. ظل عبد الله واقفاً غير بعيد يراقبها. اقترب منه القيّم على المسجد والمقام، وكان رجلاً يسير على مشارف السبعين، ناحل الجسد، مديد الطول. سأله: هل هي أمك؟ هَزّ عبد الله رأسه بالإيجاب.

اختفى الرجل ثم عاد إليه بقربة ماء وتمر ولبن، وقال له: قل لأمك هذا من الشيخ ميثم.

تركهم العجوز في المقام. توسد عبد الله يده وغفا. نامت قربه أخته وضحى. أما حائرة فالأرق أبقاها يقظة. سمعت صوتاً ينادي أمها. نهضت فاطمة على إثره واقتربت من المقام الصغير المبني من الطين والمغطى بأقمشة خضراء أحضرت من مكة والمدينة المنورة وكربلاء. جلست عند رأسه بخشوع، تجلى في المكان بهاء أبيض امتد وغطى أمهم فاطمة. سمعت صوت رجل غريب يقول: يا أم عبد الله ليكن هذا المسجد مضيفاً لك، أنت من سلالة عائلة كريمة خدمت حجاج بيت اللّه والمسافرين والعابرين بين الأرض والسماء، كشفت لك حزنك العالق بأطرف ثيابك، سيقف ابنك رشيد على باب جنتك، لك الرضا والرضوان. لم يصدق عبد الله ما حكته له أخته حائرة. سأل أمه المحتفظة بصمتها ليوم لا يعرفه أحد منهم فلم تجبه عن سؤاله، بل خَزَرت ابنتها بنظرة معاتبة جعلت الصبية تبكي بصمت وتبتعد عن أخيها.

فتح الرجل الأشيب الباب الخشبي الرئيس للمسجد، ثم شرع يفتح النوافذ الخشبية فدخلت طيور الخطاطيف دون أن تهبط على المقام أو في زوايا المسجد. تطير على مستويات منخفضة وكأنها تحتفي بسجود المصلين. أقبلت نساء من قرى بعيدة على المقام، يحملن معهن نذوراً كثيرة، وتمراً ولباناً وخبزاً وهريساً ورزاً محمّراً وسمكاً مشوياً. يفرشن على الأرض طعامهن ويتشاركن في الأكل ببركة المقام. يقضين النهار كله في رجاء بانتظار تحقق الأمنيات. وعلى مسافة قريبة يجلس رجال مصابون بالعاهة يستنجدون بالشيخ للبلاغ ونزول المكرمات.

ذهب عبد الله إلى سوق القرية الصغير يبحث عن عمل. يجلس تحت المظلات المصنوعة من سعف النخيل أربعة رجال وامرأة وحيدة، يعرضون بضائع لم تزد على أن تكون سمكاً ضئيلاً يحوم حوله ذباب السوق، وآخر يبيع أنواعاً قليلة من الخضروات بينها ثلاث حبات من اليقطين إضافة إلى الترنج والمانجو الأخضر الصغير. جلس بائع آخر يُصَفّر في أواني الطبخ النحاسية، وقبالته امرأة مغطاة بشكل كامل بعباءة مهترئة يظهر تحتها سروال أسود تعرض مرآة صغيرة ومكاحل وأمشاطاً وعدداً محدوداً من قطع الملابس الداخلية. شعر بالإحباط وجلس يراقب صِبية يجرّون كلباً لا يكف عن العواء بحبل محاولين تقييده في صخرة كبيرة. حاول ثنيهم دون جدوى. انتبه له فلاح. لمح صلابة عوده وقوة عضلاته المستترة تحت ثوب بال. سأله حول مهنة العتّالين فأجابه عبد الله بأسرع مما توقع لخبرته وهو يشاهدهم في مرفأ المنامة. استأجره لحمل صبي في السابعة يعاني من ضمور حاد في رجليه جعله عاجزاً عن المشي أو حتى الوقوف. وطلب منه أخذه إلى القيّم على

المقام، على أن يقول له جملة كررها حتى حفظها: لا مشى الولدُ ولا رجعتْ رباب! قبل عبد الله المهمة، واستلم مقابلها لقمتين من رز بائت وفضل سمكة مشوية صغيرة لم يعرف نوعها، ربطها في صرة وحمل الصبي على ظهره وذهب به إلى مقام الشيخ ميثم. لم يشعر بالتعب. كان الصبي كليلاً هزيلاً إلى درجة لم يصدقها عبد الله. في منتصف الطريق توقف وأنزله ليتأكد أنه حيّ وليس ميتاً. عيناه تشبهان عينَي قط، فيهما سكون وبريق. اطمأن ثم عاد وحمله حتى دخل المسجد، وتوقف أمام المقام ووضعه عند الضريح. جاء خلفه الرجل مسرعاً وسأله: من أين أحضرته؟ ردَّ عليه عبد الله: يقول لك: لا مشى الولد ولا رجعت رباب.

نادته أخته حائرة فأخرج لأمه الرز والسمكة. قسمتها إلى ثلاث لقيمات صغيرة لم تشبع أيّاً منهم، أكل عبد الله لقمته، وعاد يتأمل الطفل المعاق. اقترب منه العجوز وأجلس الطفل في حضنه وبدأ يُلقمه قليلاً من الخبز مع اللبن، بعد أن يزدرده ويجعله ليناً سهل البلع. هجع عبد الله للحظات. جاء الرجل وأيقظه وأعطاه تميمة مربعة الحجم مطوية بعناية وقال له: أعد إليه الطفل ومعه رباب، وقل له أن يدس التعويذة داخل وسادته. نظر عبد الله خلفه فرأى فتاة قروية شابة بيضاء الوجه. رمق عينَي الصبي المشابهتين لعينَي قط، وحمله على ظهره وسار به خارج المسجد. التفت ليتأكد أن رباب تسير خلفه. واصل طريقه حتى السوق الذي انفض من الباعة والمتسوقين، وكان الصفّار يجمع أوانيه النحاسية وعدة عمله. اقترب منه عبد الله وسأله: أتعرف والد هذا الطفل؟ رفع الصفّار عينه ليرى المرأة الواقفة خلف عبد الله، ابتسم وقال: أبو قاسم. ستراه مع نسائه عند منبع العين. دلّه على الطريق. لم يتعب عبد الله. قال لي: لم أنصب من حمل الطفل. يشبه حمولة قطن يا أبي. قطن له عين قطة لامعة! لمح الرجل مع نسائه. سار نحوه فأقبل عليه وطلب منه وضع الطفل في عربة حمار مصبوغة قدمه بالحناء. قبض على يد رباب وسار بها بعيداً عن نسائه. جلس معها قرب مجرى ماء العين. تفاجأ بوقوف عبد الله قربهما فغضب منه. أمره بالابتعاد إلا أن ابني أخرج له التميمة وقال له وصية القيّم فأخذها بفرح.

جلس عبد الله يراقب السمك الذي يعوم بحرّية في العين بين الكثير من المصطافين والزوار.

دخل في سُبَات العصر، فرأى الرجال الذين ضربوني عند مبنى الجمارك يضربونه ويضعونه فوق ظهر أتان، ويساق به في شارع التجّار. لم يكن يشعر بالغضب نحوهم، وإنما باحتقار لنفسه. قال لي: إنه شعر بالبؤس والوضاعة وإنه ليس جديراً بثقة التّاجر النجدي الذي أوانا عندما نزلنا أرض البحرين. شعر بنفسه كما كان يلقب: عبد الله عجلة! استيقظ عند الأصيل، ورأى

الشمس تتلون بلون أصفر وبرتقالي، وليس هناك أحد غير جنية بيضاء شبه عارية تسبح بين سمك الشعوم الذي يتقافز. قرأ المعوذتين، نادته الجنية بلكنة عربية. ولم تكن الجنية سوى الممرضة شريفة الأمريكانية. سألته عني معتقدة أنني تركت العمل في مرفأ المنامة، فأخبرها بما أناخ علينا من بلاء. طلبت منه الحضور في اليوم الثاني إلى مقر عملها في المستشفى. أبدى لها تخوفه من عثور رجال عبد العزيز عليه. طمأنته أن لا أحد يمكن أن يتعرض له. وفي تلك الليلة رأت حائرة أطفالاً صغاراً بعمر السنة والسنتين يلعبون حول أمها وهي لا تكف عن القهقهة والضحك والفرح معهم.

وصل ساحة المستشفى، شاهد حشداً كبيراً من المارة والفضوليين والعمال يراقبون مجموعة تعمل تحت إمرة الأب والطبيب صموئيل زويمر في تركيب طاحونة هوائية جُلبت من أرض بعيدة. اقترب من الممرضة شريفة الأمريكانية، سحبته من بين الحشد، حملت حقيبتها الطبية معها وسارا معاً نحو حارة العوضية. وصلا أمام باب التاجر عبد الرحيم جمعة. دخلت الممرضة وتركت عبد الله في الخارج. مرت اللحظة طويلة عليه قبل أن تفتح عبد ة فارسية صغيرة في عمره الباب وتطلب منه الدخول والانتظار في ممر البيت الطيني الكبير. شعر بالوحشة وهو يتخيل تدافع الجموع من النساء والأطفال والرجال، ولحظة اختناق بعضهم وموت البعض الآخر دعساً. تأتي الأصوات إليه من كل جانب، تخرج من عروج الطين المحتفظة بآهة هنا وصرخة هناك. شعر بالهلع وكاد يموت مكانه وهو يرى وجوهاً فزعة تصارع لحظة فقدان أنفاسها. قرر الخروج لينجو بنفسه. ظهرت له الممرضة شريفة ومعها سيدة البيت، ترتدي أقراطاً وسلسلة من الذهب المطرزة باللؤلؤ. خَزَرته قائلة: أنت ولد فاطمة السقاية؟ فأومأ لها برأسه، وقبل أن تستدير وتعود إلى داخل المنزل أخبرته: أحضر أمك للعمل، الآن!

انضمت فاطمة للعمل في بيت التّاجر عبد الرحيم جمعة كخادمة تقوم بغسل ملابس النساء والفتيات. ويعتني عبد الله بأختيه في غيابها، ويبحث عني بحذر بالغ قرب مرفأ المنامة، ومبنى الجمارك، وبين سكك شارع التجّار الجانبية محاذراً أن يلاحظه فداوية عبد العزيز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

قبل ذلك الوقت، حملني رجال لا أعرفهم نحو صناديق وأَعشاش وأكواخ خلف مقبرة البحارنة بنيت بعشوائية وبما تيسر لأصحابها من نفايات يرمي بها البحرُ كألواح من خشب وسعف نخيل وأقمشة وجلود رميم وصناديق تنك تجود بها الأمواج بين مَدّ وجزر. يعيش سكان هذه الرقعة في عزلة تامة عن حارات المنامة بمنازل تجّارها الفارهة، ويسكن حولهم خدمهم وعبيدهم في حدود بيوتهم أو حولها أو في إسطبلاتهم وزرائبهم مع البقر والماعز والخرفان والدجاج والبط. وبعد أن فتحت عيني رأيت رجلاً أعرج في الخمسين أخبرني أن اسمه محمد بخشاش وأن سالم أمره برعايتي وتطبيبي. تسهر عليّ امرأة سمراء أصغر سناً منه يدّعي أنها زوجته. وكنت كلما أغفو أو أهجع وأغيب في راحة أستيقظ على أصوات رجال أظن أنهم رجال سيدي عبد العزيز قد عثروا عليّ. ولكنني كنت أرى رجالاً غرباء يتسللون بعد المغيب إلى مخدعها ويدفعون كَرْوَةٍ ذلك لزوجها الذي يقف على باب العشة ويشرف على دخولهم. وأحياناً كنت أسمعهما يتشاجران على اقتسام ما جمعاه. أسمع وأرى وأنا مُمَدَّد خلف ساتر من الخيش لا يخفي إلا جزءاً يسيراً من سَوءاتهما.

بدأت أشعر بالتعافي، وطلب مني محمد بخشاش الانتقال إلى عشة صغيرة قبض قيمتها من سالم. أبديت رغبتي في مقابلته، ولكنه أخبرني بأنه لا يأتي بل يبعث بمرسال يخبره بما يريد، ويدفع لهم أجرة خدمتي. في تلك العشة، شعرتُ بحرّية أكثر، تطببني زوجته بأعشاب مدقوقة وتسقيني عشبة اليانسون والنعناع بعد أن تغليه في الماء فيساعدني على النوم ويخفف من وجع الرأس الذي لم يفارقني من شدة الضرب الذي تعرضت له. ومع حلول العصر أخرج وأعمِل النظر في المكان الذي صار مسكني ومأواي. يمرُّ بشر سمر وسود رمت بهم سفن مجهولة عند مرفأ المنامة في أزمان مختلفة. بعضهم يتحدث العربية والبعض الآخر السواحلية، وآخرون يتحدثون الأعجمية باختلافاتها. وغيرهم من أطراف بومباي وبلاد السند وحضرموت، تجمعهم البطالة والفقر المدقع. يجلس معي خارج العشة رجال وفتيان وفتيات يسألونني أو يسردون عليّ قصتي المنتشرة بين الجميع. يتناقلونها ويزوقونها بتفاصيل لم تحدث مع فداوية التّاجر عبد العزيز، حتى وصلت أصداؤها إلى القرى والجزر القريبة. وكان أغلبهم ينعت موقفي بقوة الشكيمة والبطولة!

سمعت عن أغرب الحكايات في الهجرة والهروب من قرى وبلدان كثيرة، من خارج البحرين وداخلها، خصوصاً فرار نساء وفتيات خوفاً من القتل بسبب حملهن بأجنة لم يستطعن التخلص منها أو تعرضهن لاغتصاب من محيط عائلتهن أو بوهم الحب والخداع أو دون سبب واضح سوى الغريزة الجنسية. كنت أرى استماتة زوجة محمد بخشاش في إسقاط هذه الأجنة قبل ولادتها أو

في موت الفتيات والنساء جرّاء تعرضهن لنزيف حاد لا يستطعن اللجوء إلى مستشفى الإرسالية خوفاً من العار والذبح. وتفتعل في بعض الليالي حفلات إشهار زواج وهمي مصحوب باحتفال موسيقي تقوم فيه مجموعة بعزف الصرناي الأفريقي أو القربة الفارسية أو أداء العرضة البدوية لمواجهة حمل تمكن من صاحبته، وعليها البقاء والمحافظة عليه لحين ولادته ليحمل اسم أبيه الجديد، وخصوصاً إذا عثر الأهالي على ابنتهم ورغبوا في التستر عليها.

اندملت جروحي واستعدت صحتي فقررت البحث عن زوجتي وعيالي. سألني محمد بخشاش: أين ستبحث عنهم؟ فأخبرته: سأذهب إلى سيدي عبد العزيز وأسأله. ردَّ عليّ: لعلك فقدت عقلك، تذهب إلى حتفك يا يوسف. خرجتُ سائراً إلى دكان سيدي عبد العزيز أحمل على ظهري موتي المحتوم. وزم الكثير من الأهالي الذين التقيتهم خلال هذه الفترة القصيرة شفاههم وكأنهم يودعونني الوداع الأخير، بل إن بعضهم تمنى لقائي في الآخرة على ضفاف نهر الكوثر!

دخلتُ شارع التجّار فذاع خبر احتمال حدوث سحق. سار خلفي من سار بدافع الفضول والتطفل. حاول بعض العمال ثنيي عن رغبتي في سؤال عبد العزيز. بينما أغلق شطر من التجّار محلاتهم اتقاء اندلاع فوضى وانتشار نزاع بين من يقف في صفي وأغلبهم عمال وعتّالون وفقراء ساعدتهم طوال الثلاثة عشر عاماً الماضية. توقف النواطير وذهب بعضهم لإبلاغ أمير السوق. جاء رجال البوليس من البلوش والهنود والأفارقة بعمائمهم الحمراء وقمصانهم الكاكية ورصاصاتهم المصفوفة في حمالات الذخيرة.

وقفتُ أمام دكان سيدي عبد العزيز. رأيت في عينيه انزعاجاً وخوفاً من قيامي بأي حركة انتقامية. التأم المتسوقون والمارة والغرباء والبلهاء على جانبي الشارع، وراهن بعض المحتشدين على ما سيحدث! جاءت مجموعة من العمال والغاصة النجديين حاملين عصياً وحجارة لدعم سيدهم خوفاً من دخول أطراف أخرى في النزاع. شزرني عبد العزيز بطرف عينيه. حلَّ الوجوم بين المارة والمتجمعين بانتظار ما سيحدث، إلا أنني وبكل هدوء سألته: أين زوجتي وعيالي يا سيدي؟ لم يستوعب سؤالي، وكان رجاله متحفزين للانقضاض، فسأل كاتبه مستفسراً: ماذا يريد؟ أيَّد بعض الجمهور وهو مختبئ بين الجموع حقي. اقتربت خطوتين وأصبحت على مرمى مسافة قريبة من الدكان وأعدت عليه: أسأل عن زوجتي وعيالي يا سيدي. أين هم؟ رمقني بتلك النظرة المتعالية ثم أشار إلى فداويته فهمَّ رجلان بضربي. تدافع المتجمهرون بعد سقوطي على الأرض. تدخَّل أمير السوق الذي جاء مسرعاً وسمع سؤالي. طلب من عبد العزيز أن يأمر رجاله بالتوقف عن ضربي. سحبني رجال البوليس البلوش إلى المقهى القريب وطلبوا لي ماءً. جاءني

أمير السوق ونصحني بالابتعاد عن التاجر عبد العزيز الرمي فوافقت. وبعد أن وعدتهم بأنني سأعود من حيث أتيت تركوني وانفضّوا. وأبدى بعض المتسوقين والعتّالين تعاطفاً معي بكلمة طيبة وبتذكيري أن حقَّ الفقير لا يضيع ثم ذهبوا في حال سبيلهم.

ولكنني عدت إلى دكان عبد العزيز الذي تفاجأ من ظهوري. سألته كما سألته سابقاً. نظر إليّ وعهد مرة أخرى إلى عماله وتابعيه بضربي فسحلوني أمام الدكان حتى الساحة المقابلة لمبنى الجمارك والمرفأ. هاج بعض العمال والعتّالين على فداوية عبد العزيز، وحدث شجار عنيف وتراشق بالحجارة. جاء أمير السوق راكضاً مع نواطيره فيما تقدم رجال البوليس يحثون الجموع على التوقف عن الشجار. وقفت وسطهم وصحت بهم، وأعدت طلبي: كل ما أريد أن أعرفه من سيدي أبي يحيى؛ أين رمى بزوجتي وعيالي؟ وقبل أن يتدخل أمير السوق، جاء صوت سيدي عبد العزيز غاضباً: لا أعرف يا يوسف. لقد طردتهم. دع أمير السوق يساعدك في البحث عنهم. وعرفت أنه صادق كما كنت معه دائماً. سرت مبتعداً مع انفضاض الجموع المتكتلة وذهولها من ردة فعلي. جلست أمام مرفأ المنامة وكأنني أجلس لأول مرة. أرى السفن الكبيرة المتوقفة على بعد أربعة أميال تفرغ بضائعها في سفن شراعية تنقلها إلى رصيف المرفأ حيث يصطف رجال أقوياء يحملون كل ما ثقل وزنه بخفة إلى مبنى الجمارك. وجاء الأب والطبيب صموئيل زويمر ترافقه الممرضة شريفة الأمريكانية وهما يمسكان مظلتين تحميهما من بأس الشمس المباشرة والحارة في مثل هذه الساعة من الظهيرة. كان برفقتهم ابني عبد الله. فحص الأب صموئيل وجهي وشخَّص الرُّضوض والجروح القديمة والجديدة. أصرَّ صموئيل على أن أذهب معهم إلى المستشفى للفحص، فوافقت ولكن بعد الاطمئنان على فاطمة.

فتحتْ باب بيت التّاجر الفارسي عبد الرحيم جمعة عبد ة فارسية صغيرة في عمر ابني عبد الله. سألتها عن زوجتي فاطمة. وفي الأثناء سمعت صراخ من مات ذلك النهار بسبب التدافع في ممر هذا البيت الكبير. خرجت لي أنفاسهم الأخيرة وآهاتهم من طين الجدار فخفت وتعوذت من الشيطان، ولكنني ظللت واقفاً أنتظر أعز امرأة على قلبي.

نام أطفالي فرحين بعد أن التمَّ شملنا من جديد. وقبل سباتهم شهدوا بفرح عرساً وهمياً بين عروس من أهل الجن وزوج من الإنس. عزف الصرناي في الحفل ورقص الكثير من الرجال والنساء. خرجت أرواح أفريقية من أجسادهم وحلقت فوق الصناديق والأعشاش والأكواخ، ولم تهجع إلا مع انتصاف الليل حين طافت ملائكة مهمتها الصلاة على من مات ذلك اليوم ووُري المقابر المنتشرة حول المنامة. تسللتُ ناحية فاطمة وكشفتُ عن جسدها في

سكينة. غطت وجهها بثوبها فلم أسمع لها آهة. نمنا معاَ بلا صوت أو نَفَس، أضحى جسدانا جسدين ميتين يمارسان طقسهما الأخير، في ساعة الرحمة الأخيرة، وفي لحظة دفن ما حصل في أعمق منطقة فينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

صرت أستيقظ على صوم فاطمة عن الكلام، وأنام على سكونها. ولوجومها الكثير من الإشارات والدلائل. غضب خاص تعوَّدنا عليه أنا وعيالي بمن فيهم وضحى وسعود. من هذه الإشارات رفضها اليومي لبقائنا في هذه المنطقة السكنية العشوائية، المليئة بالعجائب اليومية. وكنت أقول لها: عندما أعثر على وظيفة سنخرج من هنا. تشعر بالغضب ولكنها لا تتحدث ولا تنطق ولا ترد عليّ. فأتركها وأذهب باحثاً عن عمل كما أفعل كل يوم! وقفتُ على دكة دكان التاجر عبد الرحيم جمعة. عرضت عليه خدماتي. شفط من غليونه الفرنسي وعدَّل من عمامته الفارسية وقال لي:

لا أستطيع توظيفك يا يوسف. امتعاض عبد العزيز يحل على الجميع إن خرجنا عليه.

ولكنك تاجر حرٌّ يا سيدي.

للسوق قوانينه يا يوسف.

أخرج كل صباح وأترك وجوم فاطمة مقيداً أمام العشة. أقضي وقتي قرب المرفأ، أشحذ عملاً دون جدوى. عرفت بعد كل هذه السنوات أن لعبد العزيز سلطاناً ونفوذاً يفوق سلطة أي أحد آخر، في منطقة يحكمها بقوانينه وقوّته مع مجموعة من التجّار النجديين وعرب فارس.

لمحت الأب صموئيل وهو في عجلة من أمره يود تخليص صناديق صغيرة من الجمارك. قال إنها تحتوي على أدوية ولقاحات طبية أرسلت من البصرة، ولا ينبغي تركها تحت الشمس الحارقة فتفسد. عاهدته بتخليصها وأخذها بنفسي إلى المستشفى. أوصلت الصناديق الطبية الصغيرة إلى الممرضة شريفة الأمريكانية فشكرتني كثيراً وسألتني إن كنت قد عثرت على عملٍ جديد. أخبرتها أن السوق يحكمه رجل واحد هو عبد العزيز. فتمنت لي التوفيق واستأنفت عملها. وفي طريقي للخروج استوقفتني صورة جماعية. يجلس في الصف الأمامي فيها صموئيل زويمر وزوجته إيمي وقربها الممرضة روث وشريفة وإلى جوارها يجلس الطبيب كانتين. وفي الخلف يقف مجموعة من العاملين في المستشفى بينهما مايك أو سالم كما يُدعى الآن. تأملت الصورة، رأيت فيها أحلاماً كثيرة تمارس دون رقابة من أحد. وأن حلمي هناك بين جوانب قلبي وفي كف فاطمة، وعليّ استدراجه إلى الواقع.

قصدت جزيرة المحرق أسأل الخدم العاملين في منزل الشيخ عن مايك فأخبروني انتقال سالم للعمل في دائرة الشرطة بالقلعة. وعليّ العودة أدراجي مرة أخرى إلى المنامة. لجأت إلى مقهى في سوق المحرق لشرب

الشاي. تأملت العبّارات والمسْلخ القريب والرجال الذين يجرّون خرفانهم ثم يخرجون حاملين الذَّبَائِح بعد سلخها. لكنني نمت من النصب. غابت الشمس وأنا أستدرج أحلامي وأخفف أثقالها. يمّمتُ وجهي فجر اليوم التالي نحو جنوب المنامة باتجاه القلعة مقر البوليس. كنت هناك قبل خروج سالم من كوخه، وهو أحد الأكواخ داخل القلعة. وما إن رآني أمام البوابة الرئيسة المبنية من الحجر والجص الأبيض حتى أمر بدخولي مرحباً. وجدت نفسي أخيراً أعمل بوظيفة كاتب ومخلص لجميع مهمات إدارة البوليس. أقطع يومي بين القلعة ومرفأ المنامة. وفَّرت لي الوظيفة سكناً في أحد الأكواخ المخصصة للعاملين في مهنة البوليس داخل القلعة.

هدأ غضب فاطمة بعد أن تعرفتْ على الكثير من النسوة البلوش الذين اعتقدوا أنها بكماء. وكان يؤنسها الجلوس بينهن والاستماع إلى لغتها الأم بعدما ظنت أنها تاهت بين موجة طائشة وخوار ثور هائج وبقرة توشك على ولادة عجلتها. ربما تتحدث معهن في غيابي، حتى التبس عليّ الأمر ودعاني ذلك لسؤال حائرة ووضحى. فأكدتا إصابتها بعين أفقدتها صوتها. وكاد عبد الله يصدقهما لولا خشيته مني. كنت أردد دائماً أنها صائمة عن الكلام كعادتها. وقبل نهاية الشهر الأول لنا من مقامنا في القلعة، تَقَلْقَلَ الباب بطرقات قوية. فتح عبد الله ثم قال لي: عمتي جوهرة! استغربتُ كيف عرفتْ مكان إقامتنا بعد قيام عبد العزيز بطردنا وإذلالنا، وكيف أدخلها النواطير إلى القلعة؟ حدجتني فاطمة بنظرة حادة. حينئذ قالت جوهرة: كنت أتربص بنفسي وأنت تعرف. أنهيت عدة طلاقي منك يا يوسف، ورحمي نظيف لم تعلق به بقاياك. أردت أن تشهد على ذلك، أنت وهؤلاء الشهود. وأنت تعرف. وكان معها فرحان الحبشي الذي وقعت في عشقه، يرافقه رجلان أسودان لا أعرفهما. قلت بخجل:

أنت حرّة يا جوهرة، افعلي ما تريدين.

لست حرة يا يوسف، أردتك شاهداً على ذلك، وأنت تعرف.

أخذتُ فرحان جانباً وقلت له: لماذا لا تختم على قلبها وتُخرجها من طريقي. ضحك وبانت أسنانه. ردَّ عليّ هامساً وكأنه لا يريد أحداً غيري أن يسمعه: إنها عنيدة يا يوسف. ابتسمتُ، وابتسمت جوهرة وغادروا جميعاً. وبعد يومين من ذلك اللقاء سمعت قصتها.

خصصت دار الاعتماد البريطانية جانباً من ساحة الدار لكل من يقف فيها يكون في حماية الإمبراطورية البريطانية، ولا يستطيع أي إنس أو جان أن يتعرض له، في محاولة منها لمنع تجارة وتهريب العبيد من السند والحبشة وزنجبار ومسقط، ومنح الحرية لكل من يطلبها منهم. في ذلك النهار تسللت جوهرة

وهي تخفي وجهها بالبُرْقُع، وكان يُمنع على النساء العبد ات ارتداء ما يخفي وجوههن. ولكنها أخفت وجهها خوفاً من رجال عبد العزيز. أوقفها أحد حراس الدار فخلعت البُرقُع وكشفت عن وجهها الأسود، وتوجهت مسرعة نحو الساحة المخصصة للحماية، وصرخت: أريد حريتي. واستغرب الحارس من قدومها في هذا الوقت المبكر، فلم يحضر بعد أي من موظفي الدار، ولا المستشار البريطاني طويل القامة وردي البشرة. ظل فرحان بعيداً عن منطقة حماية دار الاعتماد البريطانية يراقب ما يحدث، وهي وتقول له بصوت رفيع: تعال يا فرحان فأكون حرّة وتصبح حرّاً.

فيردّ عليها: حريتي يا جوهرة في يد الشيخ، وهو يقرر ذلك. ووقفت أمام الكاتب الذي سجل على ورقة خاصة مكتوب عليها «ورقة عتق» وتحتها كتب بخط كبير وواضح: «الدولة البهية القيصرية الانكليس» ثم خط: «لكافة من يراها، وبعد، فإن حاصل هذه الورقة جوهرة بنت سليم سابقاً عبد ة عبد العزيز يحيى الرمي من أهالي نجد، يعمل تاجراً في البحرين. عمرها تخميناً 28 سنة قد صارت حرة كساير الأحرار فلهذا لا يكون لأحد عليها الاعتراض في حريتها والسلام». ثم أضاف: «حرر في بحرين 26 شهر مي سنة 1935»([18])

وانطلقت جوهرة من بيت الدولة وهي تنادي فرحان عبد الشيخ: أنا حرة وأنا لك يا فرحان، وأنت تعرف! وتزوجته وخدمت في بيت الشيخ في جزيرة المحرق، وعاشت في كوخ قريب صغير مبني من السعف وجذوع النخل. تركها عبد العزيز لمصيرها فبدأت تتردد علينا في وضح النهار بين شهر وآخر، وتجلب معها هدايا للعيال، وتخص وضحى بعصيدة مضاف عليها دبس التمر. تعرف أن وضحى سوف تتقاسمها مع إخوتها. بدأ سعود بالمبيت عندنا، والذهاب إلى مرفأ المنامة مع أخيه عبد الله والمشاركة في أعمال بسيطة يكافأ عليها بقبضة من طحين أو قمح، أو مبلغ لا يؤبه له. وبعد أن أنجبت جوهرة أول أبنائها من فرحان، جاء سعود حاملاً صرة بها ثيابه، وطلب من زوجتي فاطمة الإذن بالبقاء معنا، فأذنت له. نحب وأبكى إخوانه في أول ليلة ينام فيها معنا. وحين سألناه لماذا تبكي يا سعود؟ قال: أبكي على فقدي لأخي رشيد. فبكينا جميعنا، وكان بكاؤنا يحتدُّ كلما رأينا نجماً يسقط من السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

لم ألتق التّاجر عبد العزيز إلا بعد ثلاث سنوات. تصادف وجودنا معاً في ساحة مرفأ المنامة، ومعي نواطير يحملون صناديق تخص إدارة البوليس، وهو يسير بصحبة مهندسين أمريكان يعملون في شركة النفط ترافقهم نساؤهم. سرتُ نحوه متوقعاً ابتعاده عني وعدم الالتفات إليَّ، لكنه ظل واقفاً ينتظرني حتى اقتربت منه. مددت يدي لأصافحه فصافحني. قلت له: مازلت أنتظر الإذن لمغادرة البحرين. كشف وجهه عن ودّ جمعني به قبل أكثر من أربعة عشر عاماً من العمل في خدمته. وضع يده اليسرى على كتفي، ثم أشار بعكازه الذي في يده اليمنى إلى المنامة وقال:

من يملك كل هذا يا يوسف؟

أنت يا سيدي.

ثم حدّق في عيني بشكل مباشر. وقال بصوت سمعه من كان قرب المرفأ ومبنى الجمارك: هنا رزقك ومالك يا يوسف. هنا أرضك. تأملني؛ لقد نسيتُ نجد وهجرت وادي الرمّة وأضحت البحرين رزقي ومالي.

عدت ذلك المساء إلى المنزل، وسألت فاطمة بشدة: متى ستكفّين عن صمتك؟ لم تكترث لما قلته، فأردفت بِتعمُّد إغاظتها: لقد قابلت عبد العزيز وطلبت منه الإذن! حينها أدركت أن عبد الله لم ينسَ ولن يتناسى ازدراء عبد العزيز لنا. ردَّ عليّ ساخطاً، وكان قد استحال شاباً يافعاً، قوي البنية يعمل شرطياً: لا يحق لك طلب ذلك منه. نحن أحرار. إن صمت أمي سببه سيدك الذي مازلت توقّره. هل أنت من عبيده؟ تركت فاطمة ما في يدها وتقدمت نحو عبد الله، وبسرعة بسطت كفها ثم رفعت يدها وهوت بها على خده. غادر عبد الله البيت، ولم يبت في القلعة رغم تأكيد الحراس أنهم أغلقوا البوابة عند التاسعة. ولم يشهدوا خروج ابني أو أي فرد يسكن القلعة. ومع حلول الصباح استدعاني رئيس البوليس وأخبرني أنهم قبضوا على عبد الله مخموراً بعد مشاجرة جرت في سينما البحرين. ويتوجب دفع تكاليف الضرر الذي أحدثه. وأنه سيفصله من إدارة البوليس، مع وعده بضم ابني سعود بدلاً منه.

والحق، لم يقلقني اعتياد عبد الله شرب الخمر أو ترك الصلاة أو الذهاب لمشاهدة الأفلام، بقدر ما تهيبت من طلبه المباغت ونحن نشرب الشاي بعد صلاة المغرب: عليك التقدم بطلب لنيل الجنسية البحرينية يا أبي! قالها بصيغة آمرة، وأضاف: في المكتب القريب من مكتبكم. وكان سالم قد أخبرني منذ أكثر من عام أن الحكومة ستفتح مكتباً في القلعة لإصدار وثيقة الجنسية للبحرينيين. وبالفعل بعد أيام ثبَّت نجار يافطة متوسطة الحجم كُتب عليها

بالعربية «مكتب الجنسية». لم أقلب الموضوع في رأسي ولم أتحدث عنه حتى فاجأني سالم بطلب ابنتي للزواج. لم أجبه مباشرة. رجل أسود في الخمسين يريد حائرة ابنة الرابعة عشرة. قلت له: ولكني سمعت أنك نصراني ونحن مسلمون. ضحك، وقال بلهجة بحرينية قويمة: ألا ترى ما أصبحت عليه، أنا المرافق الشخصي للشيخ، وسأرقّى إلى رتبة رئيس عرفاء بعد استخراج الجنسية بصفتي بحرينياً مسلماً. ترددت في قول أي شيء يكشف ممانعتي من تزويجه حائرة. وكنت متأكداً من رفض فاطمة القاطع، وحائرة كذلك. فهو إضافة إلى لونه وفارق العمر، كيف لي قبول تزويج ابنتي من شخص أعرف أنه يدين بغير الإسلام. وقد فهم إطراقي. قال: أعرف كل شيء عن الإسلام. كنت في طريقي إلى مكة وتراجعت في اللحظة الأخيرة إكراماً للرجل الذي خلصنا من العبودية، وقام بتربيتنا وسط كنيسة صغيرة في مسقط. ثم فاجأني: لماذا لم تسألني من أريد؟ قلت له: حائرة؟ فردّ: لا، أريد وضحى. وقضي الأمر بشكل سريع وتزوج سالم محمد سالم من ابنتي وضحى ذات الثلاثة عشر عاماً، ففي عروقها يجري دم السود!

رقصت جوهرة تلك الليلة رقصة غريبة على صوت الصرناي، وأمر سالم بطبخ وتوزيع الرز واللحم على جميع سكان القلعة والمدعوين، بمن فيهم الأب صموئيل والممرضة شريفة وفرحان الحبشي وآخرين. رأيت حائرة تبكي، وفاطمة تحبس غضبها ورفضها. كنت أسمع صوت تَكسّر أنينها الداخلي. يرقص الرجال بشكل دائري في الساحة المقابلة لمنزل سالم المبني من الطوب. يتوسط الحلقة ضاربو الإيقاع وعازف الصرناي يدور داخلها. تزداد حركات عازف الطبلة المثبتة بحزام حول خصره رشاقة وهو يضرب عليها بكفَّيه كلما تجلى عازف الصرناي في جُمله الموسيقية. يدور الرجال في حلقة كبيرة يتوسطهم عازف الصرناي والطبلة في انتظام دائري وإيقاع متواز، تتخللها حركات رفع اليدين إلى الأعلى مع خطوات القدمين في تشكيلهم المستمر للدائرة. وعبَّرت جوهرة عن فرحها بحلول أرواح أفريقية يزيد عمرها عن خمسمئة سنة، فتجلت عبر رقصها، وتميزت بجرأتها. تدور دورة سريعة رافعة رأسها وتخبط بقدمها اليمنى ثم تنحني وترفع يديها، وتعيد رفع رأسها من جديد إلى الخلف. رقصة تزيد من حماس الرجال والمدعوين بالرقص والتصفيق والغناء.

وبينما نحن ننتظر سالم الذي تزيَّا بثوب بحريني وغترة وعقالاً، توهجت السماء بلون لهيب أحمر. صرخ الجميع، وانتبه لها من كان غافلاً مندمجاً مع الرقص والعزف، صرخ سالم: إنها الدابة! تراكض الحضور، وتوقف عازف الصرناي. صاح سالم بالنساء البقاء داخل المنزل. قرر رئيس البوليس إغلاق باب القلعة مهابة وقوع هجوم ما. حتى طار خبر صادم: شارع التجّار يحترق، وسوق المنامة يشتعل، وحاراتها دخلت في دوامة اللظى. صعدنا أنا وسالم ورئيس

البوليس فوق البرج المطل على شارع التجّار. رأينا لهيب النار يصعد إلى السماء ويحيل الليل نهاراً. أمست المنامة على خسارات كثيرة، ضيعت فكر المستشار الإنجليزي طويل القامة. أخبرت سالم بأنني سأذهب لتقديم المساعدة فحذرني:

ربما تكون الدابة؟

ألا ترى أنه حريق!

جاء معي سعود مصحوباً بالخوف عليّ، وهو يسمعني أردد «الدابة.. الدابة». سألته متأتئاً عن عبد الله، فأخبرني ربما سبقنا إلى هناك. وصلنا سوق الحدادة حيث تنتشر الأدخنة في جميع البيوت وأكواخ السعف. وقبل أن تطالها النار نصحنا الأهالي بأخذ أطفالهم وعجائزهم بعيداً عن جهة هبوب الريح حماية لهم بسبب المحروقات. وطلبنا منهم استخدام الأقمشة المنقوعة في الماء، وغمر وجوههم بها وقاية من الاختناق. وسرنا بمحاذاة البحر حتى وصلنا إلى ساحة مرفأ المنامة ومخازن التجّار ومبنى الجمارك البعيد عن النيران. كان المستشار البريطاني يجول فوق حصانه الجامح من الفوضى العارمة المحيطة بالسوق. قيل لنا إن النيران امتدت بعد العاشرة ليلاً، رآها النواطير بعد أن استعرت بسرعة بفعل الريح. اصطف الأهالي والرجال الذين سبقونا إلى ساحة المرفأ في خط مستقيم من البحر إلى أقرب نقطة تماس مع النار. وبدأ الطابور بإفراغ صناديق التنك المملوءة بماء البحر لإطفاء الحريق. نجدة الأهالي جاءت بالتزامن مع عجز فريق الإطفاء المكون من عشرة هنود يقودهم إنجليزي مسن أخفقوا في محاصرة النيران. وأنّى لهم ذلك وهم يفتقدون الخراطيم الطويلة وأبسط وسائل مقاومة النيران. وقفوا يتفرجون على النار وهي تحتوي المباني والدكاكين والبضائع وتتركها رماداً.

تراكض جميع تجّار المنامة للاطمئنان على بضائعهم. توجه بعضهم نحو مخازن مبنى الجمارك وكانت بعيدة عن النار فاطمأنوا عليها. فيما تراكض البعض الآخر نحو شارع التجّار حيث دكاكينه ومخازنه. قيل إن الشرارة الأولى انطلقت من دكان صغير يخص تاجراً من حضرموت يحضر عامله بعض أنواع العطور. نسي العامل المدفأة ممتلئة بالخشب المشتعل ونام من شدة التعب. ولم يصحُ إلا وقد التهمت النار القسم الأكبر من المحل. وثب من نومه وهرب خائفاً وهو يستغيث، ثم سقط أمام أحد النواطير بعد أن اقتاتت النيران على ظهره كاملاً. واستمر أهالي المنامة يجاهدون في إخماد النار. وبعد شروق الشمس سمعنا نحيب التجّار بسبب خسائرهم، حتى قيل إن مجانين المنامة ازدادت أعدادهم بانضمام طائفة من التجّار إليهم. دفع ذلك بالمستشار البريطاني بعد التشاور مع حاكم البحرين إلى تخصيص منزل يتم فيه إيواء هؤلاء التجّار كي لا يختلطوا مع مجانين المنامة الفقراء، على أن

يشرف على حالتهم النفسية بعض أطباء مستشفى الإرسالية الأمريكية. ويتكفل الفندق الوحيد الموجود في المنامة بإطعامهم على أن تدفع عائلاتهم أجرة إيوائهم ومأكلهم. ولأول مرة في حياتي أرى سيدي عبد العزيز يستدمع وهو غير منتعل، ويجري بسروال داخلي غير مكترث لنزول إفرازات أنفه اللزجة ولا لبرودة الجو. صرخ في عماله وخدمه طالباً إنقاذ دكاكينه وما تحتويه من وثائق وعهود وديون موثقة ومبالغ نقدية يحتفظ بها في خزانته، ينوي إرسالها لمشروعات تجارية مع مسافرين إلى بومباي ومالابار وحضرموت.

لم يعد عبد الله إلى المنزل وبحثنا عنه. ارتدت فاطمة ثياب الحداد فنهرتها عن ذلك، ورميت لها ثوباً جديداً لم تلبسه منذ أن طردنا عبد العزيز من داره. حملت الصرة ووضعتها أمام سالم، وأخرجت له الصورة التي يظهر فيها عابدين مع مجموعة من العبيد. فرح كثيراً وأشار إلى صورته فيها. خزرته وقلت له بغضب: هذه أمانتك. فهل لك أن تخبرني أين ابني عبد الله؟ استغرب من كلامي، فحاججته بأننا لم نرَ الدابة، ثم حكيت له قصة عابدين الذي صرع الدابة في سقر. استشرى الخوف في وجهه، واستعطفني بالإبقاء على الصرة لحين مجيء الوقت الملائم. صرخت فيه: ومتى سيأتي الوقت. أريد العودة إلى قريتي. ألا تفهم؟ وجلس يروي لي حكايات إخوته السود والخسف الذي وقع عليهم في السفينة وفي مسقط، وأنه هو من بعث بالرسالة إلى إستيفان للقدوم إلى البحرين للعمل معه في الإرسالية، وليس للذهاب إلى سقر. ووعدني بإرسال رجال البوليس والنواطير في البحث عن عبد الله.

في تلك الليلة دخل علينا عبد الله يرتعد وينتفض ويبكي مثل طفل، ويردد فعلته الشنيعة التي لم نصدق أنه ارتكبها. أخذته أمه وأخته حائرة لتنظيفه من السّخام، واستبدال ثوبه الممزق بثوب آخر. همس لي سالم: إنها جريمة ستأخذه إلى السجن أو الإعدام! قبل أن تغفو عيني عند بزوغ الفجر كتبت في ورقتي الثانية: «إلهي، يا من رميت بي في قاع لا نهاية له، كيف يكون أمري بعد كل هذه السنوات؟ أرتب صمت زوجة فقدت الكلام، وأبناء يكبرون في الغفلة ويرتكبون حماقات لا تغتفر. أسألك: كيف الأمر؟»

أريد تصديق أن الماضي قد تركنا يا فاطمة كما تركناه. لماذا أعيد سيرة أبي عبد الله الأعمى في ابن بصير، وأعيد حائرة الحائرة دائماً في ابنة حائرة. إنه الماضي الذي لا أريده يا فاطمة. يتجدد ويتبلور ويعيد صياغة مجرياته دون أن ينثني أو يميل أو يغيِّر دربه. وكيف لي يا فاطمة أن أحنو قليلاً على ابني رشيد وهو يُدفَن في أرض ليست أرض أجداده وأسلافه! كيف أعتذر لجوهرة وأنا أرتب سيرة سعود ووضحى. ربما حان وقت الهبوط من منحدرات غوادر إلى

أرخبيل البحرين المنتشية بتفجر الذهب الأسود. كدت أقول لجوهرة ليس كل أصفر ذهباً، ولكنها وقفت كعادتها وأطلقت ضحكتها الماجنة في حوش الخدم في بيت سيدي عبد العزيز، وكنت قد دخلت عليها زوجاً خجولاً، فقالت: هذا الرجل لا يعرف أين موضع كمون الذهب الباهر والرهيب. هذا الغريب لا يعرف أي غربة رمت به بين تربة وتربة. حفظنا له الموج وتهنا بين بيع وشراء. فقدنا الغالي والنفيس في رحلة تزعم أننا إناء خلق لاستقبال منيّ السَّادة والتجّار، وأننا مجرد حقل يحتضن حرث فحول لا يعرفون الطريق ويضيعون في البحار.

لماذا رمانا اللّه هنا يا فاطمة؟ لماذا لا تفكّين صمتك. ربما أستطيع أن أشيد تاريخنا بعد كل هذا التعب. دعيني أسامرك فيما تبقّى لنا من أيام وحكايات. ها نحن نقف معاً نودع عبد الله الذي ألزمناه السفر إلى زنجبار هرباً من فعلته الظالمة، حاملاً معه لعنة حمَّلني إياها والدي. هل كانت لعنة أو خيط نجاة من الموت تحت أيدي رجال الفهرس؟ هل نودعه كي نمنحه حياة أخرى بعيدة عن سجون البحرين؟ لك أرض غير هذه الأرض يا بني فاذهب وحيداً إلى النجاة. ودّعنا عبد الله بصمت وهو يشهر وثيقة السفر البحرينية الصادرة حديثاً، والمختومة بختم حاكم ولاية البحرين، إضافة إلى ختم وموافقة دار الاعتماد البريطانية للسماح له بالسفر.

جلستُ على مصطبة مخصصة للمسافرين في مرفأ المنامة، أراقب فاطمة وهي تبكي. سمعتُ صوت بكائها لأول مرة، منذ أكثر من ثلاث سنوات وأربعة أشهر وستة وعشرين يوماً عاشتها في صمت مطبق. دنت من ابنها وأخرجت من تحت عباءتها حرزاً مكتوباً بماء الزعفران، مطوياً داخل أمعاء ماعز مجفف. كُتب عليه بخط أسود واضح اسم اللّه، الرحمن، القدوس، الحافظ. مثبت بخيط قطني أسود علقته على رقبته وأحكمت رباطه. قبّلها على رأسها، فقالت له بعد صمتها الطويل: لقد أغلقت دارك في الحياة، ليحفظك الرحمن من الأذى. حاذيتها بكثير من الإشفاق على حالها وحالي، ثم ودعته. تركته يفتح أبواب داره في الحياة كيفما يريد. وقفنا، عائلة مطعونة بالكرب والكمد تودع حشاشة كبدها. غير بعيد عنا وقف سالم يودعه ويسهل أمر سفره ونقل صندوقه في القارب الصغير لأخذه نحو سفينة كبيرة تقف وسط البحر. حيّاه سعود تحية عسكرية وهو يرتدي لباس البوليس فرحاً بوظيفته الجديدة، بكت حائرة، واحتضنته وضحى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

سيرة الكلمات

• بلد مجنون:

حاول أن يفهم موالج عقل ناسها، وقياس صحة سلوكهم. خاب أمله وفشل فشلاً ذريعاً. استدرج شاباً أهبل يقضي نهاره كله قرب مبنى الجمارك وهو يردد: بحرين بلد مجنون! استضافه على كأس شاي وسأله: من أين أنت؟ وأجابه الشاب: أنا من بلد بحرين؟ وحاول يوسف أن يعرف أصل هذا الشاب، ولكن ما إن اجترع الشاي حتى نهض ليقوم بمهمته اليومية وتكرار جملته الأثيرة. وبعد أن سأل بعض العمال على المرفأ تأكد أن لا أحد يعرف له أصلاً أو من أي منطقة جاء، وهي مسألة اعتاد عليها. فما إن يرى فاقد عقل أو مغفلاً ومعتوهاً حتى يكتشف أنه من منطقة أخرى. وعُدَّ هذا ذكاءً من أهل البحرين في طريقة تخلصهم من أبنائهم الفاقدين للعقل، بعد فشل حفلات الزار والكي بقضيب حديد والضرب في أن يؤتي أكله، وإصرار الجن على الإقامة في أجسادهم. دهاء لتجنب اللوم والتوبيخ للعائلات التي لم تحبس مجانينها داخل البيوت أو تصفدهم مع المواشي والدواجن في الزرائب والخرائب! كما أن أهل الخير لا يعوزهم توفير لقمة للهائم على وجهه أو تأمين السكن له.

صاحَبَ يوسف كل مخابيل المنامة. وأدرك هؤلاء كرم يوسف وإحسانه. وغدا محط جذب لهم يتوقفون أمام ظله ويداعبونه بعذب الكلام، حتى شك أن كل عائلة بحرينية لديها ذكر واحد على الأقل فاقد للعقل، وعلى الفرد إذا أراد أن يكون بحرينياً أن يدفع بأحد أبنائه ليخرج للحياة ناقصاً.

واستنبط أن للأمر صلة برائحة البحر! فرائحة البحر هنا تشبه عرق النساء بعد مجامعة شرهة، وهذا العرق لا تنشّه المرأة ولا يحدث لها في حياتها إلا بعدد الأصابع كما قال الربان مبارك الذي أكد ضرورة تعلم درس بحر البحرين وهو ينث الرائحة نفسها. وأضاف: كل ما عليك فعله بعد أن تتشبع من هذه الرائحة هو مراقبة كيف تتغير وجوه المهاجرين بعد أن يستوطنوا هذه الأرض قادمين من أراض جافة أو صحراوية أو بحرية أو استوائية وهي تتحول مع الوقت إلى عنصر بحريني مَخْفُوق. كل البِحار لا تنثر هذه الرائحة إلا بحر البحرين، ربما لأنه خليط من الماء الفرات والماء الأجاج، وما ينتج عن هذه العملية في المنطقة القريبة من الشاطئ. يتفاعل ويخرج مع حركة الموج وهي تلامس الشواطئ.

صار يوسف يخاف من أمرين: أي حركة غريبة يبديها أحد أبنائه، أو حين تنتشر مع الرطوبة رائحة البحر وتغطي الحارات.

• ورقة عتق:

الانعتاق خروج عن العبودية، والموت تحررٌ من الحياة.

قرر رشيد مبكراً حمل ورقة العتق ومغادرة هذا العالم. وصار أعلم من الساعين للخلود كسليمان وجلجامش، ولم يكن ملكاً أو بطلاً قاهراً، بل مجرد طفل بلا حول، له من العمر عشر سنوات. وموت طفل يعني ولادة ملاك. شعور خفف من وطأة الحزن على والده يوسف، فحمله وعاد به إلى البيت. لم يضعه فوق المِرفاعة لخفته، ولم يضعه فوق النملية بين صواني الأطعمة والأكل المحفوظ بعيداً عن النمل والحشرات المخفوسة، بل وضعه فوق فراشه المعتاد الذي ينام عليه بين إخوته وأمه؛ لأنه سيكون ملاكاً حارساً لهم كلهم. ولم تكن كلماته التي خربط بها ودوخت والده في المستشفى سوى كلمات بلا معنى وبلا هدف، وعرف أنها هذيان ما قبل الرحيل.

قضى ليلة حزنه في فقده يعيد ويرتب ويكتب هذه الكلمات في قصاصات صغيرة قطعها إلى ثلاث وعشرين قطعة وترك الأخيرة بيضاء. أخذ رشيد من بين أحضان أمه دون أن تتوقف عن الندب. جلس عبد الله يراقب والده وهو يغسّل أخاه ويلفّه في قماش أبيض جديد أحضره خصيصاً لذلك. وسار به في صمت نحو مقبرة السُّنَّة.

وبعد يوم شهد الجميع أنهم رأوا القصاصات تطير فوق سماء حارة الفاضل رغم انكفاء الرياح. بل إن بحّارة شهدوا أن القمر التقط قصاصات بيضاء من يد ملاك صغير يحلّق حوله وهو يردد الدعاء الصالح لوالديه فاقدي الفهم لإيقاع الكون.

• إنها الدابة:

صاح سالم: إنها الدابة تحرق سماء البحرين. وشعر يوسف أنه نزف كل دمه. رفع رأسه نحو السماء ليرى حكاية تبعته من حدود سقر إلى البحرين. طافت به كلمات والده مثل صَدىً في هلاك عابدين وموت الدابة. أبصر السماء واللهب يرتفع مع انفجار هَزَّ ليل المنامة، كاشفاً عن ملامح بشعة لوحوش يخفيها الظلام ويطمرها السكون، ولكنها وجدت الآن متسعاً لها لتظهر وتنشر النوازل بين الأهالي في ليلة عرس استعاد فيه المدعوون أرواحهم الكثيرة القادمة من الماضي السحيق!

لم يتمكن من التحدث معه عن هرطقاته. أجلسه ووضع أمامه الصرة وتحدثا عن كل شيء، وسالم مُصِرّ أن ما رآه هو الدابة، حتى سأله يوسف: ما أواصفها؟ تحيَّر سالم وظل يحدق في وجه يوسف دون أن ينبس بحرفٍ، فأعاد عليه السؤال: ما أوصاف الدابة؟ وهل رآها إستيفان بالفعل؟ ازدادت

حيرته واكتشف أنه لا يعرف صفات دابة أرعبتهم منذ الثامنة من عمره. وهو في لحظة هلاك فعلية لولا نجاتهم لسبب لا يعرف مغزاه، حتى أقنعه الأب بيتر أنها حياة جديدة أرادها الرب لهم. سحب الصورة التي تجمعه مع إخوته وتأملها كثيراً بفرح طفولي. هذه الرغبة انتقلت مثل عدوى إلى يوسف الذي عزم على الذهاب هو وفاطمة ووضحى إلى المصور البحريني الذي افتتح استوديو للتصوير قرب شارع التجّار.

أخرج يوسف بعد ليلة من غياب ابنه عبد الله قرطاساً من المخطوطة المغلفة بجلد الإبل، كتبها يعقوب وهو في ربوع مكة إلى مولانا رشيد حمدان، يقول فيها: «لَكَمْ شككتُ في رواية أتور ونحن نراه، وقد خرجت عيناه من مقلتيه ذهولاً واحمرّ بياضها، بسبب الرعب والخوف في كل مرة يخبرنا أنه لمح الدابة. إن شكّي في الأمر يا مولانا بدأ بعد سؤالي إخوتي إن كانوا قد شاهدوها. وقد جزم مباندا أنه رأى ذيلها! أما الذي زاد في يقيني قول رجل مطرح، ثابت بن جارم عندما استضفناه في المدرسة! والآن، وأنا أقضي أيامي في مكة، فإنني أتلفت عند حدوث أي أمر منتظراً خروجها من الحرم المكي!»

• في الرحمة والرأفة:

رُبطتُ على ظهر أتان بالمقلوب وسيق بي في شارع التجّار. لم أكن أرى الوجهة التي أسير إليها، وهي تقطع الطريق من مرفأ المنامة وتدخل في سكك وطرق المنطقة المحيطة بدءاً من شارع التجّار وصولاً إلى حارة الفاضل. كان الرجلان يضربانها ويضرباننني فلا تكف عن النَّهيق. يتبعنا أطفال المنامة ومهابيلها ومجذوموها ومشردوها، ويرافقهم البعض بفضول لمعرفة بقية الحكاية. لم يتدخل نواطير الحكومة أو موظفي دار الاعتماد البريطانية. والجميع يعرف أنهما من فداوية التاجر عبد العزيز الرمي.

رغم الإنهاك عرفت أننا دخلنا حارة الفاضل، وأنني في الطريق إلى البيت الكبير. وأن عبد الله يراقب ما يجري من بعيد. ودُفع بي دفعاً إلى داخل حوش البيت. قيدوني في العمود الذي يجلد عليه العبيد. صحت بهم طالباً لقاء سيدي عبد العزيز. تركاني في الحوش الخالي من الخدم وخرجا. ظللت على تلك الحال. مرت الساعات طويلة، أفتح عيني بين وقت وآخر، ومع أول دبيب لخطوات تعبر الحوش أو داخل الغرف أفتحهما ولا أرى أحداً. ظللت كذلك اليوم كله دون ماء أو أكل. وبعد يوم لمحت عبد العزيز وهو يخرج من مجلسه، هتفت له وكان صوتي مبحوحاً. لم يلتفت نحوي أو يعيرني اهتماماً. عند الأصيل سقوني قليلاً من الماء فهمست لهم بأنني أريد التحدث إلى سيدي.

بعد الفجر حملوني من ذراعي حتى لا أسقط وأخذوني إلى المجلس. وقبل الدخول أشار عبد العزيز بيده وهو يرتشف قهوته، فأوقفوني عند الباب ومنعوني. اقترب مني وسألني: يوسف، أين جوهرة؟ أخبرته بأنني لا أعلم. رمقني وقطب جبينه ثم أشار بيده فوجدت نفسي خارج المنزل الكبير ممزق الثوب وبدم جاف يغطي وجهي وثوبي فعرفت أنه صدقني. استجمعت قواي وسرت نحو الكوخ في إسطبل البقر، وقبل أن أَهِمَّ بالدخول قيل لي: لقد طردت زوجتك وعيالك. ولم أتخيل وصول الأمر إلى هذه الدرجة. كنت متعباً وضعيفاً فوقعت مغشياً عليّ.

• الممرضة روث:

قررت روث مغادرة ملبورن والتكفير عن بغي وفحش جدّها الإيرلندي ألستون الذي اقتيد في العام 1838م ضمن الفوج السابع من السجناء الخطيرين البالغ عددهم ثماني مئة وتسعون سجيناً محكوماً عليهم بالمؤبد بسبب جرائم مختلفة. قَتلَ جدّها نيل ألستون سيدة ويلزية وثلاث نساء زنجيات كن برفقتها، ونَكَّلَ بجثثهن وشوهها مع اثنين من أصحابه اللذين رافقاه في هذا الانتقال القسري من سجن بدفورد الإنجليزي إلى مدينة سيدني مربوطين بالحديد في خطة محكمة اتخذتها الحكومة البريطانية للتخلص منهم، وترحيلهم ضمن أسطول حربي مكون من تسع سفن تحمل ما يقارب ألفَي مسافر.

أنهت دراسة التمريض في مدينة ملبورن حيث ولدت وعاشت طفولتها ومراهقتها في ظل الكنيسة البروتستانتية. كانت تصلي للرب ليحقق أمنيتها بمساعدة المرضى في أي أرض يرفرف عليها العَلم البريطاني. وقررت محو جزء من خطايا وآثام جدها من خلال خدمتها في البحرية الملكية كممرضة.

جابت في أول محطاتها شوارع البصرة، راكبة البغال أو الجِمال مع صديقة طفولتها إيمي لتطبيب العرب الذين يعانون من مرض البعوض والتهاباته المميتة. وقعت إيمي سريعاً في حب الطبيب الأمريكي صموئيل زويمر وتزوجته في كنيسة بمدينة العمارة قبل أن يقررا العمل والاستقرار في البحرين. وافقت روث على مرافقتهما واقتنعت بكلام صديقتها عن جمال واختلاف البحرين قياساً بالبصرة أو العمارة إضافة إلى وجود الكثير من المقيمين والمسافرين الأوروبيين الذين تكون البحرين محطتهم بين سفر وإقامة. وأنها ستتعرف على شاب هناك، وهو ما حدث بالفعل، وأزعج العاملين في الكنيسة والمستشفى والتاج البريطاني!

اكتشفت إيمي أمر هذا العاشق الزنجي الذي رحَّب به زوجها في بداية الأمر، ولكنه حذرها فيما بعد أنه لا يريد لأطفال الكنيسة أن يكونوا مهجنين. عجز الجميع عن تغيير رأيها فنقل الطبيب زويمر الموضوع إلى دار الاعتماد

البريطانية التي لجأت إلى تضييق الخناق عليه ومحاربته في رزقه لإضعاف العلاقة العاطفية وقبر حبه. طرد من وظيفته من المكتبة التابعة للكنيسة كونه عبد اً لا ينبغي له العمل إلا في الأعمال الوضيعة. لكنهم تفاجأوا بانضمامه إلى بطانة الشيخ، فاختلقت ضده قصة استلام برقية من تاجر في مسقط تؤكد هروب عبد أسود ينتحل اسماً نصرانياً هو مايك وإذاعتها بين الناس!

أصيبت روث بوسواس يكابد عادة بعض الأوروبيين والأمريكان الذين ترمي بهم أقدارهم في البلاد الحارة، وزادت رطوبة البحرين الأمر تعقيداً. ووُضعت في أول سفينة شحن تجارية مغادرة إلى ولاية بيروت. عاشت سنتين في نزل صغير في منطقة الروشة تخدم في المستشفى الذي يسيطر عليه الفرنسيون، وعالجت فيه جرحى وأسرى إنجليز وفرنسيين وأتراكاً وعرباً بعد توقف أصوات المدافع والرصاص. في هذه الأجواء المنفتحة عادت روث للذهاب إلى الكنيسة نهار كل أحد. تقضي بعدها بقية النهار في الجلوس في أحد المقاهي المقابلة للساحل.

استقبلت بيروت الجنود الإنجليز والفرنسيين المنتشين بالنصر، الذين يحملون النساء على أكتافهم ويشربون العرق المصنوع من الكرم واليانسون في أقبية الكنائس. تعلقت روث بجندي فرنسي نام عندها ثلاثة أسابيع. ووعدها بالسفر إلى باريس، وظلت مبتهجة وهو يملأ أيامها بالفرح حتى استيقظت ذات صباح ولم تجده معها، ولم يترك لها أي بيِّنة. اختفى فجأة. سألت مكاتب الجيش الفرنسي عنه ولم يعرفه أحد. تأملت بطاقة بريدية عليها صورة برج إيفل هي كل ما تملك منه. أصابها ذلك باكتئاب حاد.

عادت مرة أخرى تربي حزنها، ومالت للرجال العرب ذوي البشرة السمراء كلما ازدادت حاجتها الجسدية إلى ذلك. اقتربت منها في نهار يوم أحد على صوت أجراس الكنائس طفلة تبيع الورد. اشترت منها باقة وسارت بها وقت أصيل ديسمبر الثلجي حتى وصلت جرف الساحل. تأملت صخرة الروشة، هالها شكل الصخرتين الخارجتين من البحر مثل عشيقين متقابلين. نسيت الجندي الفرنسي واستعادت لحظاتها المبهجة مع مايك. رسمت ابتسامة على خدها ثم ألقت بنفسها في البحر بكل هدوء.

قالوا: ماتت كمداً على حبيبها الفرنسي. وقالوا: شبح الحب مزق أوصالها. وجاءت راهبات عربيات إلى غرفتها في النزل الصغير لاختيار فستانها الأخير. وجدن برميلاً كبيراً نبتت فيه شجرة ياسمين متسلقة غطت سريرها الخشبي وصارت له مثل سقف يتدلى منه الزهر. تنهدن: المجد للرب، إنها قديسة. وأقسمن فيما بعد وهنَّ يعدّونها للوداع الأخير، إنهن وجدن بين ذراعيها وتحت إبطها وفي سُرَّتها زهر الياسمين. وعُثر في غرفتها على دفتر وصورة لمجموعة من العبيد، وسبع رسائل فيها الكثير من العشق والوله، مكتوبة بلغة

إنجليزية منمقة وموقعة باسم مايك فاحتاروا. شكوا في هوية هذا العاشق الغريب، واكتشفوا أن هذه الرسائل موقعة من البحرين بينما الجندي الفرنسي كان يقاتل مع الحلفاء على خط سيناء. لم يعيروا الأمر اهتماماً، وسُلِّمَ كل ما يخصها إلى القنصلية الفرنسية.

وحينما سمع صاحب النزل بهذه الحكاية قرر الإبقاء على شجرة الياسمين بل وجلب فلاحاً جعل النافذة مخرجاً لها لتتمدد إلى الخارج. كما قام بزراعة بعض أغصان الشجرة أمام النزل، وغيَّر اسمه إلى «نزل روث» وصار العشاق يبكون على جرف الساحل ويرمون الورود والياسمين، وأحياناً يبالغون برمي أنفسهم.

• إنها جريمة:

أطاح الخمر المحلي الصنع والظلم بعقل عبد الله، فقرر الخروج على القانون لإعلان احتجاجه على تجّار المنامة. ففي ليلة زواج أخته وضحى ذهب بعد أذان المغرب لشراء خمر مصنع محلياً. جلس في مقهى قريب من شارع الحكومة وبدأ يكرع قبل العودة إلى القلعة والاحتفال بالزواج. كان يترع قارورته الثالثة حين رأى وفداً يتكون من خمسة أمريكان يعملون في التنقيب عن النفط وهم يقطعون شارع التجّار، يتسيدهم عبد العزيز الرمي وهو يثرثر حول استئجار عمال للعمل في الحفر والتنقيب بأبخس الأثمان! كبر الحقد في عقله وهو ثمل بنصف عقل. ظل يتأمله وهو يتحدث معهم ويشير بيديه الاثنتين ليعزز كلاماً كثيراً حتى شارفوا على عبور الشارع.

أنهى بائع الكيروسين جولته المسائية، وكان يهم بالعودة إلى منزله في ليلة شتوية باردة. لوَّح عبد الله له وطلب منه الانتظار حتى ينهي شرب الخمر المعبأ في القارورة ليملأها له بالكيروسين. لم يتحمل البائع مشقة الانتظار لإعيائه بعد تطواف بين البيوت والمحلات طوال النهار وشطر من الليل. تتبَّع عبد الله البائع الراكب على عربة يجرها حمار. فاجأه بضربة أفقدته وعيه. أسنده إلى جدار ووضع قربه القارورة وفيها ربع الخمر. ركب عربة الكيروسين وساق حمارها حتى وصل الشاطئ. صرف ثلاث ساعات في شرب الكيروسين وعدّ الشهب وهي تخطئ في اصطياد شياطين تلك الليلة، انتشى وضحك وحَلَّ يقين في ذهنه. ركب العربة وانطلق حتى وصل دكان عبد العزيز الرمي. فتح صمام الخزان وترك الكيروسين ينصب وهو يغرف بيده ويسكب على أبواب دكاكين شارع التجّار. ألقى بعود ثقاب مشتعل ليقوم ببقية المهمة. دفعه انتشار النار بشكل سريع لكسر باب أحد محلات صناعة وخلط العطور الذي كان عامله نائماً فيه. فَزَّ العامل من الخوف ووجد نفسه وسط السعير. اختبأ عبد الله لربع ساعة. دوَّى بعدها انفجار قذف به فوق كوخ مبني من سعف النخيل. نهض مسرعاً غير عابئ بكسوره وجروحه، ورمى

بنفسه في علية تستخدم لتخزين الفحم في بيت بائعة هوى. ظل هناك دون علمها حتى قام رجل سكير بممارسة الجنس معها ثم حاول الهرب دون أن يدفع كروتها. هاجت مثل كلب مسعور فاندفع نحو السطح وفتح باب العلية ليجد أمامه مارداً أسحم الوجه بسبب الفحم المخزن.

أخذته أمه فاطمة لِيَسْتَحمّ بالماء والصابون. جلس يوسف مع سالم يقرران الخطة المناسبة لإنقاذه من إعدام مؤكد بسبب فعلته القميئة التي لا يمكن مداراتها أو إخفاؤها. وافق يوسف على إرسال ابنه إلى شخص لا يعرفه يدعى البروفيسور ماثيو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
فتنة زنجبار

- 1 -

جئت إلى الدنيا في يوم قائظ، بعد صلاة الجمعة. كان أبي في المسجد عندما بدأت بقرة سيدنا عبد العزيز بن يحيى الرمي بالخوار وهي تسابق أمي في الوضع. جلس أبي في الصف الخامس مستمعاً لدعاء خطيب الجمعة الذي تضرَّع إلى اللّه بتسهيل ولادة البقرة. رفع المصلون أكفهم يردّون على دعاء الإمام: «آمين». نسي والدي ابنه الذي سيولد في اللحظة نفسها. تزحلقتُ إلى عالم لم أكن مشتاقاً له.

خرجتُ مستجيباً لصرخات أمي كي لا أعذبها أكثر. وقبل إشهار صرختي الأولى، سمعت زغاريد وفرح أهل البيت الكبير مستبشرين بالخير مع ولادة البقرة عجلة ستكون فائدتها أجدى مني لأصحاب البيت. تبارى الجميع لتقديم التهنئة لعبد العزيز وهو عائد من المسجد: الخدم والعمال والكتبة والأطفال. وأمر كعادته بتوزيع الحلوى، والخبز المُحلى الرقيق، والرز المحمّر بدبس التمر والمتبل بالهيل والقرفة وماء الورد والزعفران، على الفقراء المحتشدين أمام الباب الكبير.

احتفل الناس في حارة الفاضل كما يحتفلون بعيد الفطر. وكان نصيبُ أمي وأبي رغيفاً واحداً من الخبز الرقيق. وقبل أن يناما وأنا بينهما أذَّن أبي في أذني اليمنى وأقام الصلاة في اليسرى، ودعا أن أكون من ذريته الصالحة. استأذن أمي أن يسمّيني على اسم أبيه: عبد الله. فجئت إلى الدنيا عبد الله ولم أكن كفيفاً كجدّي، تنبت بين ضلوعي موروثات الإثم والأخطاء والخوف. صفات ثقيلة رقّشت وجهي ومنحته عينين لامعتين، وخطوط رأسية بين الحاجبين تجعل مني صعب الضحك والابتسام، وشعر أسود مموج يعشش فيه القمل بلا هوادة.

دخلت جوهرة بعد ولادتي وحملتني من بين أحضان أمي. عاينتني وتأملت بياضي وشدة عافيتي وقالت: قوة العجلة انتقلت إليه، صبي ذو بأس. ثم وضعتني في سَلّة صغيرة مصنوعة من سعف النخيل مخصصة للتمر. رأت جسدي الممتلئ الصغير وقد احتل المساحة كلها. طافت بي على منازل حارة الفاضل الكبيرة وهي تردد: هذا صبي حملت به أمه ثمانية أشهر وفي التاسع رمت به معتلاً سقيماً. سيحرمها من كل لذيذ وطيب. سيجعل لياليها نهاراً وأنتم تعرفون، فادفعوا له ما يملأ بطنه ويشبع رغباته. صبي سيتفاخر بفحولته قبل أن يتوه في بلاد بعيدة وأنتم تعرفون. له أطوار جريحة ومنكوبة. هو عبد الله ولد فاطمة بنت مصطفى البلوشي. وعادت بي إلى أمي وفي حضني قطع نقدية استطاعت جمعها من سيدات تجّار الفاضل.

كبرت على صوت رنين المعدن وهو يرمى لنا بسعادة بالغة بعد قيامنا بأعمال بسيطة أو في توزيع زكاة أو في أيام العيد المباركة. نقضي نهارنا على الشاطئ، وفي تنظيف القوارب الصغيرة المرفوعة على الرمل. نحسب عدد مراكب الغوص الراسية بعيداً في العمق ونتباهى في الغطس وحبس أنفاسنا لنجاهر بالغواص الذي سيكبر في جسدنا ويسارع في اختطاف أكبر اللآلىء. وجدت نفسي بين خيارين صعبين: الذهاب إلى سجن القلعة في حكم مؤبد أو الإعدام بعد اكتشاف مسبب حريق سوق التجّار الذي راح ضحيته أكثر من خمسة وعشرين نَـفْساً بين رجال ونساء وشباب وأطفال ورضع. بعضهم قضى حرقاً والبعض الآخر وافاه الأجل اختناقاً. أما الخيار الثاني فهو الفرار من البحرين إلى أرض يصعب وصول رجال الدولة البهية القيصرية الإنجليزية وفداوية التجّار الذين ضاعت ربياتهم الهندية كلها إليها.

جلس أبي أمامي ومعه سالم وهو يحبس غضبه وخوفه عليّ. وقال بمرارة وحزن: فعلتك مريعة وخسيسة يا بُني. وهي المرة الثانية التي أراه فيها مكسوراً، بعد طرده وضربه من قِبل رجال عبد العزيز. ووضعا أمامي خيارين أحلاهما مرٌّ وقاس ومؤلم. اخترت السفر والهجرة لأهرب من مخاوفي، وأواجه الظلمات النافرة بين ضلوعي وفي طوري وهيئتي. في داخلي كنت أعرف أن البحرين لم تكن تريدني منذ أن ارتفع دعاء الإمام مبتهلاً إلى اللّه بولادة العجلة.

أخبرتهما برغبتي في الذهاب إلى بومباي أو مالابار أو حيدر أباد، إلا أن سالم رفض وشرح لي قوة الإنجليز وبأس عسسهم هناك، وحدّة مخالب التجّار بحكم علاقاتهم التجّارية. وأضاف أن أفضل مكان لي هو الدخول في عمق المحيط والغياب. ووضع إصبعه على جزيرة نائمة في المحيط الهندي تشبه البحرين في خارطة مرسومة بشكل غير دقيق، وتقع شرق الأرض السوداء وتدعى زنجبار. وجاء أمر سالم لأبي: أعطه الصرّة والأوراق ينطفئ الضوء وننسَ المحن الدامية، لقد أهلكتنا وأبادت معظم من نحب.

فهمت أنني منفيٌّ من الحياة على أرض البحرين وعلى العجْلَة أن تأخذ ما تبقّى لي من حياة وتنجب لأسيادها أبقاراً وثيراناً. وأن أبي قدمني أضحية لأمر لا أعرف عنه شيئاً، ومرر لي ما أورثه له والده عبد الله الكفيف. بكت أمي في صمت ولم تعلق. أخبرها أبي عن جرمي، وعدَّد لها بالأسماء من احترق ومن اختنق ومن فني. نهضت من مقامها وسارت نحوي مثل من شدخ ظهره وتعب من أحماله. اقتربت مني وبصقت في وجهي وانسحبت بهدوء. فكر أبي في تلك الليلة وهو يحاول إخراج أمي من صمتها. يعدُّ العدة ويحزم الصرة ويرتب مغلفاً مصنوعاً من جلد الإبل يرتب فيه قصاصات وأوراقاً، ويعتني بلفّها بشكل آمن. يعيد كتابة عنوان رجل إنجليزي يدعى البروفيسور ماثيو في عدد

لا يحصى من الأوراق يوزعها بين ملابسي وينثرها في صندوق أغراضي، ويرفق أكثر من قصاصة مع وثيقة سفري التي تُظهر أنني من رعايا البحرين.

يفعل كل ذلك وهو يهلوس لأمي: «إن الحياة لا تكبح أحزانها وهي تستعيد دائرتها بين أب رمى ابنه في المغارة، هناك في سقر، وكنت في عمر ابني، حتى وجدتك أمامي يا فاطمة، ثم تهت معك في ليالي العزلة ووسط الرياح الصحراوية. زهقت مشاعرنا حتى وصلنا البحرين. إن ابنك يا فاطمة سيتوه في سراديب حياة جديدة ملتوية ومتعرجة وضيقة، فلماذا لا تتكلمين، لا تعتبين، لا تلومين، لا توبخين. قاسية أنت مثل صخرة صوان من سقر». تأملتُ صمت أمي وحديث حائرة ووضحى وهما تغذيان ذاكرتي بملامحهما، وأنا أحسب الأيام المتبقية لي. وبين نهار ومساء يجالسني سعود ويحدثني عن أحلامه بأن يصبح شرطياً برتبة عريف.

رتب سالم أمور السفر بهدوء وسرّية. وعند مرفأ المنامة دنا مني والدي، لَمَّني وعصرني وهو يودعني. قال لي: لا يضيق المكان إن لم يكن القلب ضيقاً، فلا تُضيِّق قلبك يا بُني. ركبتُ قارباً سيأخذني إلى سفينة شراعية كبيرة، وكنت أُلوِّح لحائرة وسعود ووضحى مودعاً. انتبهت إلى رشيد، كان واقفاً معهم يودعني ويبكي بحرقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

لم أتخيل نفسي في سفينة بمثل هذا الحجم من نوع «البغلة»، وينادونها «الخليلة»، ذات صاريتين، عريضة، وبمستويين، حيث ترتفع المؤخرة عن المقدمة مثل قلعة، يسكنها رُبّان من بوشهر، أسمر، وقصير القامة. تأملني وسألني: أنت من طرف رئيس العرفاء سالم؟ هززت رأسي، فلم يلتفت إليّ، وأدركت أن لسالم حظوة عند قائد السفينة.

انطلقت الخليلة تتحرك بثقل ثم أسرعت وهي تنحت أثرها فوق أمواج البحرين الهادئة. وقفتُ أودع المنامة وهي تختفي فتخنقني العَبرة. أهاود دمعة مخافة افتضاح أمري في هذا النهار. أيقنت أن هذا بحر يفك لغزي الأبدي ويفكك أضلعي وأحزاني. صاحبتُ بعض البَحَّارة والركاب، وكنت في نشوة وأنا أقفز على سطح السفينة للعمل تحت أوامر الأستاذ المعني بسلامة السفينة وإصلاح أعطابها. أنظف السطح، وأحمل الماء الصالح للشرب المُخزَّن في بطنها، وألبّي طلبات الرُّبّان. وحلمت بأن أكون ربّاناً في يوم ما.

عبرنا الخليج الفارسي معتقداً أن هذا هو البحر بصفاته ولونه ومزاجه حتى صاح القابض على الدفة ونحن نعبر جزراً متناثرة قرب السواحل الفارسية: سندخل مضيق هرمز ونكون في خليج عمان. عندها تمايل المركب وفَقَدَ بعضاً من توازنه بسبب دخولنا منطقة متقلبة الطقس. قوة الموج تزداد وتهدأ بحسب الرياح الشمالية الشرقية. وبدأ الهلع والخوف من الغرق يزدادان مع دخولنا بحر العرب في طريقنا إلى مطرح.

أُصبتُ بإسهال وببرودة في الأطراف، وأمر الرُّبّان بمنحي حيزاً أرتاح فيه. ووضع قربي دلواً مملوءاً بماء البحر أغتسل به وجمراً أتدفأ به. وكنت أحتفظ ببعض التمر لأتناوله في الليل. اقترب مني بحّار يُدعى صالح، طويل القامة، أسمر اللون في منتصف الثلاثينات من عمره. وضع أمامي كوباً فيه ماء ساخن، ثم أخرج كيساً صغيراً وسكب فيه مطحون ميرامية مدقوقة مع يانسون وعدس وطلب مني شربه. نمت ورأيت أرواحاً لها صفات نارية تغازل ضلالتي في هذه الوحشة.

ابتسم صالح في وجهي صباح اليوم التالي وطمأنني أن جسدي يتوازن مع حركة الموج ويستعيد عافيته، ثم أخبرني عن قرب وصولنا إلى مطرح. وحال وصولنا، جاءت قوارب صغيرة وبدأت بإنزال حمولة السفينة. طلب مني الربّان النزول في خان صغير يعرف صاحبه للحصول على الرعاية الطبية قبل مغادرة مطرح، وإلا فإنه سيتخلى عني هنا إذا لم تتحسن صحتي. أخذني صالح إلى مستوصف صغير يديره طبيبان أمريكيان في نهاية سوق مطرح المسقوف. وتفاجأ صالح بقدرتي على التحدث معهم بلغتهم. أعطاني أحدهم

دواءً سائلاً وثلاث حبات ونصحني بتغذية جسدي طالما أنني جديد على ركوب البحر. سألوني عن البحرين؛ وسعدا حين أخبرتهما عن الطبيب صموئيل ورفاقه، وأنهم ثبتوا طاحونة هوائية لضخ المياه الجوفية ولطحن الحبوب.

في الخان أدركت لأول مرة معنى الحنين إلى أمي وأبي وإخوتي وحارة الفاضل وبعض الأصدقاء، خاصة مع قيام طَبّاخ صاحب الخان بعمل حساء الشوفان مع أرغفة خبز تناولته مرتين في اليوم. بدأت بالتعافي وركبت السفينة مرة أخرى، ونسيت حرز أمي في الخان، وغَدتْ داري مفتوحة في الحياة، وأصبحت معرضاً للمضرة. وبدا صالح سعيداً وهو يراني أصعد السفينة. رمقني الربّان وقال لي: جسدك قوي وقادر على امتصاص حكايات البحر والجِن!

مرت الأيام طويلة وكسولة وأنا محاصر في هذه السفينة وهي تعبر محيطاً راكداً وساكناً مثل نائم لا يستيقظ إلا مع مواسم رياح المنسون وهي تغربل الأجساد وتضيع الأرواح بلا عناوين تحفظها من مغبة المحن الصعبة. تختال السفينة بخبرتها الطويلة في الإبحار من الشرق إلى الغرب. تُبدل رايتها كلما اقتربت منها بوارج حربية أو بواخر تجارية إنجليزية أو سفن قراصنة عرب وأفارقة. ومع الأيام تحولتُ إلى بَحّار متمرس، لا يكف عن العمل طوال النهار. ومع حلول المساء أفقد طاقتي وأستسلم للنوم، فيخرج الجانب المظلم مني، ويستقبل أرواحاً لها صفات نارية، تتسلل بين العظام والدم.

تخلَّق جسدي في شكل آخر بملامح مختلفة. تستيقظ في الليل صفاتي الشيطانية الملعونة، تندس في أحلام البَحَّارة المتعبين والمشتاقين إلى مَن يؤنس وحشتهم وينصاع لحاجتهم ورغباتهم. تغلغلت الحاجة الملحّة إلى أنثى أفقدت أحد البَحَّارة صوابه فرمى بنفسه في البحار العميقة ولم نتمكن من إنقاذه. وقضى آخر نحبَه بعدما فقد وعيه وهو في القبو فالتهمت قلبه جرذان السفينة. وهدد بَحّار مساعديه وصعد الصارية ثم رمى بنفسه من علٍ جازماً أنه رأى أبا البحر يهدد حياته مقابل ثلاث لآلئ يقدمها له قبل شروق الشمس.

كل ليلة تنقضي بحادث مفجع وغامض. فزعت من نومي على هزة عنيفة داهمتني. فتحت عيني محاولاً استعادة أنفاسي. وضع صالح قبضة يده اليسرى على فروة رأسي العريض، بينما قبضت اليمنى على صدري. حاولت التخلص منه، ولكنه أحكم القبضة عليَّ حتى شعرت بالإذعان وعدم القدرة على مقاومته. بدأ يقرأ كلاماً لم أفهمه، ولم يكن من القرآن بشيء. جحظت عيناي وأبرقتا وسط الظلام وانقطعت أنفاسي فأفلت رأسي. زحفت متراجعاً ومبتعداً عنه. تقدم نحوي ووضع كفه اليمنى وسط صدري مرة أخرى ودفع بي حتى انحشرت بين كفه وسور السفينة الخشبي. بالكاد قلت له:

لماذا تفعل ذلك يا صالح، أنت تقتلني؟

سوف يعرفون أنك وراء موت البحَّارة.

أنا؟

تلفت في الظلام، لم ينتبه له البحَّارة أو المسافرون الغارقون في النوم، خرجت من قفصها دجاجة سوداء مسكونة بجنّي لعين ووقفت قربنا وفي منقارها الرغبة في الانقضاض على عيني لنقرها. فاح الخوف وأشرت إلى صالح بنوايا الدجاجة، فقال لي: كي تعلم أنني كنت واقفاً على باب روحك، أرى صفاتك الشقية وهي تنسل إلى قلوب البحارة الضعفاء والمهمومين فتصيبهم في أعمق نقطة في قلوبهم. وعليّ الآن السهر معك ويدي على صدرك لأمنع تسرب أي صفة شريرة. عليك التجلد حتى تتبدى أول خيوط الفجر، وإلا فإن ما قرأته هيأ للدجاجة القدرة على الانقضاض عليك لو غفت عيني أو ارتخت قبضة يدي. تصبَّر يا عبد الله. وظللنا نحن الثلاثة، أنا وصالح والدجاجة المحصورة ببيضة يجب أن تبيضها قبل الفجر حتى تسلق مع ثلاث بيضات أُخر للرُّبَّان.

ظهرت خيوط الفجر. ماتت الدجاجة مخنوقة ببيضتها. توقفت صفاتي الشيطانية عن التسكع بحرّية قبل وصولنا إلى زنجبار. رحت أفقد صلتي بشططي وحقدي وعنفي. دخلت الوهم الهادئ الذي ستكون عليه حياتي في الأيام والسنوات القادمة. وبدأت أشعر بوضوح تام أن حياة جديدة تنتظرني وأنا أتأمل المرفأ والمخازن الكبيرة والقصور البيضاء، وغابات شجر جوز الهند. كلما اقتربنا من اليابسة نسيت عبد الله العجلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

يعج مرفأ ستون تاون بالحركة. المراكب الشراعية الصغيرة تستعرض خدماتها بمهارة فائقة السرعة في إفراغ أحمالها من البضائع على جانب الرصيف، بينما تقف في شموخ مهيب مراكب كبيرة قادمة من الشواطئ الهندية الغربية، ومن مسقط ومطرح وعدن وحضرموت. يزدحم المرفأ بالناس والبضائع والحيوانات، وأكشاك عديدة لبيع السمك. صاح بنا صالح مخاطباً هذه الجزيرة المنسية على خاصرة الشرق الأفريقي: جئناكِ يا جنة الدنيا، يا فتنة النساء.

صدح الرجال بفرح وهم يُنزلون الأشرعة ويُلقون بالمراسي ويتحررون من آخر قطرات المحيط المالحة. ودّعنا الرُّبّان مع أول دفعة نزلت من السفينة، وتبقّى علينا تمضية النهار في الإشراف على إنزال البضائع والحمولات الكثيرة والنفيسة. وكما سمعت من صالح: آخر اللؤلؤ البحريني. مات حلم الغواص الذي كبر معي، ونسيته وأنا أتعلم مهنة جديدة.

خرجنا من السفينة، أسير خلف صالح ببطء وحذر، التفت إليّ وسألني وهو يبتسم: هل أنت جديد على ستون تاون؟ وكنت كذلك. أخذني معه وجلسنا عند أول مقهى يسترخي فيه البحارة لشرب القهوة لنتخلص من دوار البحر الذي رافقنا طوال الأيام الماضية. ظهر المرفأ مكتظاً بالمراكب المتنوعة. الشوارع المؤدية إلى المدينة تتثاءب من تعب اليوم، وهي حسنة التخطيط تمتد خلفها وعلى أطرافها بيوت ومخازن مصنوعة من الخشب، وبسطات يُعرض فيها كل ما له علاقة بصيد السمك من خيوط الصيد والخطافات والشباك المصنوعة من ورق شجر جوز الهند. متاجر صغيرة يديرها تجار هندوس يبيعون ثياب النساء والقماش القطني والسراويل وقمصان الرجال والفتائل وزيت البرافين والشموع والصنادل.

شربنا القهوة ونحن نستمع إلى دقات نواقيس المعابد الهندوسية، وصوت أذان المساجد وأجراس الكنيسة الوحيدة في آنٍ معاً. الكثير من البحارة الزنجباريين يستريحون وهم مُتحلّقون حول مجموعات يلعبون لعبة «الباو» على رقعة خشبية، يرتفع ضحكهم وصياحهم كلما تمكن لاعب من الاستحواذ على بذور اللاعب الآخر. دخلنا أزقة السوق القريب والطرق الضيقة الأخرى المؤدية إلى قلب ستون تاون. يصف لي كل شيء جميل وكنت أصدقه وأتابع حديثه باستحسان.

وقبل أن يأخذني معه إلى خان صغير يقع على طرف السوق، وقبل موت شبح النهار الكاذب، تهيأت المدينة للنعاس إلا من نداء امرأة هنا، ودعوة مسافر ضائع هناك. أوقفني عابر طريق زنجباري يرتدي الثوب والطاقية

العمانية، له لحية ضعيفة وطويلة، غزاها الشيب كاملاً وتساقطت نصف أسنانه الأمامية. وقبل أن يتحدث إليّ دنا منه صالح، وقال له بالسواحلية:

ماذا تريد أيها الشيخ من شاب جاء من البحرين؟

على وجهه علامات غريبة، وفي جبينه تاريخ من الأسفار، وفي دمه شجاعة فرسان يخدمون القصور، ولكن هناك شيطان مندس تحت إبطه!

لابد أنك سكران أيها الشيخ.

ضحك صالح وهو يسحبني من أمامه إلا أنه قال له:

سيقتلك حراسه! ألا ترى أيها الخبيث.

خفت من كلامه، وقهقه صالح. في هذا الليل تبدو سكك ستون تاون خالية إلا من قطط وكلاب وفئران تجوب الطرقات وتتصارع فيما بينها. القصور الزاهية نائمة إلا من فوانيس يحملها حراس يجوبون حدود المباني الكبيرة. دخلنا خاناً صغيراً رحَّب بنا صاحبه وفرح بكيس منحه إياه صالح. ركبنا سلماً خشبياً ووجدنا على السطح أسرَّة كثيرة بعضها مشغول برجال ناموا منذ مغيب الشمس، وبعضهم يحدّق بفضول كبير وهم يلفّون سيقانهم بصورة متقاطعة ويغطون رؤوسهم بلحاف خفيف.

خلع صالح ثوبه العماني وتمدد على سريره، وقبل أن ينام سألني عن حاجتي فبحثُ له بشوقي لأمي وأبي وإخوتي. ضحك وأخبرني أنه لن يستطيع فعل شيءٍ لأجلي بخصوصهم. ثم رمى عليَّ فكرة شراء أوراق وكتابة رسالة لهم، ولكنه حذرني أن لا أبعث لهم بهذه الرسائل لأنها ستعذبني وتعذبهم. ثم أردف: على المرء المسافر الدخول في النسيان كي يريح من يحب. راقت لي الفكرة، ولكن ما إن وضعت رأسي على السرير الخشبي حتى تذكرت كلام الزنجباري المُتَهَدِّم، خفت أن أنام وينهض الشيطان الذي يتوطن داخلي ويقتل هذا الرجل الصالح، فظللت مستيقظاً حتى طلوع الفجر.

في تلك الليلة لم أرَ سماءً ونجوماً وقمراً. عاينت المنامة وشاطئ حارة الفاضل. شاهدت والدي وهو يُسحَل في ساحة مبنى الجمارك. نظرت إليه وهو يدفن أخي رشيد وحيداً في مقبرة السُّنَّة. راقبت أمي وأخواتي عند عتبات مقام العالم الرباني الشيخ ميثم ينتظرن من يجود عليهن. أبصرت المنامة ترسل لهيبها عالياً وصراخ النساء والرجال ينتشر ويسبب لي وجعاً. كنت في حلم أتمرجح فيه وأمجّد غربتي بعدما أضعت حرزي.

لمحت على طرف جدار الخان شبحاً لرجل طاعن في السن ذي لحية بيضاء يشير إليّ بالنهوض. انتبهت لصالح الغارق في النوم. دنا مني الشبح ولم أشعر تجاهه بالخوف فنهضت. تأكدت أنه الرجل الزنجباري الذي مدحني أول الأمر

ثم حذر صالح من شيطاني. اقترب مني وتحدث بالسواحلية وفهمت ما قاله، بل إنني أجبته باللغة نفسها، رغم جهلي بها!

أتعرف ماذا أفعل؟

لا.

ألا ترى هناك؟

ونظرت حيث أشار إلى الطريق الضيق المؤدي للبحر. رأيت شبح طفلين توأمين في الخامسة من عمرهما يسيران يداً بيد وهما يبتعدان حتى يختفيا داخل البحر.

لماذا لم تخف منهما؟

ولماذا أخاف من طفلين غريقين؟

استغرب مني ثم حرك قرن ثور يمسكه في يده أمام وجهي فسألته مستغرباً:

ما الذي تفعله؟

أطرد شيطانك.

انقلب صالح للجهة الأخرى وكأنه يجيز ما أنوي القيام به. ابتسم لي الرجل فبانت أسنانه البيضاء المتباعدة واللامعة في هذا الديجور. ضممت يدي على صدري وهو يردد تعويذة ويحرك قرن الثور بشكل دائري. وعلى غفلة منه دفعت به من على سطح الخان ذي الثلاثة طوابق. تابعته وهو يسقط ويتهشم مكانه، ولكنه سرعان ما نهض ونفض غبرة ثوبه وسار في الطريق نفسه الذي سار فيه شبح الطفلين الغريقين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ينادي بائع الحليب. يجر بقرة نحيلة القوام هزيلة الضرع لمن يريد الشراء. خرج له من الخان شاب عرفت فيما بعد أنه ابن صاحب الخان وأعطاه إناءً صغيراً. جلس صاحب البقرة على كرسي خشبي صغير وبدأ بحلبها. نظرت إلى السماء والبحر البعيد الهادئ. رطوبة تهبط على المدينة مثل غيمة. ضوء رمادي ينثر لونه المتحرر مع لحظات شروق الشمس. تتصاعد أدخنة من تحت حواف أكواخ خشبية متناثرة بين البيوت الحجرية. ومع صرير الأبواب لمحت السكك وهي تدب بالناس من الرجال والنساء الناعسين المترنحين. بعضهم يجلس على مصاطبهم ليشربوا شاي الصباح وبعضهم يذهبون لإنجاز أعمالهم. تختلط أصوات البشر بأصوات الماعز والبقر والخنازير.

انتشر الزنجباريون في الطرقات والسكك القريبة من الخان. أكاد لا أميزهم إلا من سواد بشرتهم أو من ملابسهم وهي تفرق بين أصولهم سواء أكانوا هنوداً أم عمانيين أم فرساً أم تنجانيقيين أم عبيداً شبه عراة يعملون في كل شيء. بدت مدينة ستون تاون من سطح الخان ومع ارتفاع الشمس زاهية في حضور غابات شجر جوز الهند. تجلّت بوضوح القصور والبيوت الحجرية المثيرة لجمالها وضخامتها ونظافتها. حمدتُ ربي.

نهض صالح من النوم ولم تفتك به شياطيني. نزلنا لصاحب الخان وقابلت ابنه الذي رأيته يشتري الحليب. أخرجت له ورقة من أوراق والدي المكتوب فيها عنوان البروفيسور ماثيو. تحدث الرجل مع صالح باللغة السواحلية. ثم سلم عليه وخرجنا من الخان بعد أن تركنا صندوق سفري في أمانته.

لستون تاون في النهار طعم مختلف، لم تكن مدينة موحشة، بل تعج بحركة تجارية مزدهرة. بيوت لعرب على الطراز الغربي ذات أسوار سامقة. تلاصقها بيوت ذات معمار هندي وبواجهة مفتوحة وشرفات كبيرة مزينة بدرابزينات مزخرفة تستقبل حكايات نسيم البحر وتنفض الرطوبة. جميع هذه البيوت تتوسطها أبواب خشبية كبيرة مزخرفة بتصاميم هندسية إسلامية أو هندوسية، ومطرزة بمسامير نحاسية، ومصبوغة بألوان حارة تمنح البيت دفئاً سخياً، وعليها أقفال ثقيلة تنم عن رخاء أصحابها.

سرنا معاً إلى السوق ووصلنا ساحة الشجرة الكبيرة. تنتشر في محيطها ورش النجارة وورش صناعة القوارب الصغيرة. يحيطها سوق ذكّرني بسوق التجّار في المنامة، حيث يباع كل شيء في محلات صغيرة أو بَسْطات على الأرض يُعرض عليها: الخبز، والخضروات، والسمك، والأواني النحاسية، والسلال المصنوعة من ورق الأشجار، والمطاط، وجوز الهند، ودهن جوز الهند، وأدوات التجميل مثل: الكحل والدورم والحناء وأحمر الشفاه المصنوع

من أعشاب البحر، والبطاطيل التي ترتديها النساء الزنجباريات العربيات، والثياب العمانية، والبخور واللّبان.

يصطف تحت الشجرة الكبيرة عَتّالون يتمددون فوق عرباتهم ويستظلون بظلها. بعضهم يستخدم مروحة من سعف النخيل المتحلل، لتحرك الهواء حول الوجه للتخفيف من الحرّ والرطوبة، وقسم آخر يتحدث مع أصحابه. عرفت من صالح أن أحدهم أقسم إنه رأى البارحة ناراً تغطي سماء ستون تاون! وآخر يحكي عن أشباح بمبا وهم ينزلون المرفأ ويعيثون فساداً في البضائع المتروكة على طرف السفن والبحر. تحدث معهم طويلاً، وصوتهم يرتفع ويهبط بانفعالات ممزوجة بالهزل والجد. بعد أن انتهى منهم التفت نحوي وأخبرني بموافقة أحدهم على إيصالي إلى العنوان المكتوب، وأشار إليه، وستستغرق الرحلة نصف نهار. وخيَّرني بين البقاء في ضيافته حتى صباح الغد، ولكنني فضَّلت السفر بعد صلاة العصر. وافق شريطة أن أذهب معه ويستضيفني في منزله. فاستغربت وسألته:

هل أنت متزوج؟

هزَّ رأسه بالموافقة وهو يسحبني ويودّع الرجال الذين عادوا إلى ثرثرتهم، وسألته مرة أخرى:

ولماذا بت معي في الخان، ألم يكن عليك أن تذهب لتنام في فراشك وبين أهلك.

فردَّ عليّ بهدوء:

لقد عرفت ما تحمله على ظهرك من أثقال يا عبد الله، شاربك لم يخط بعد، ورجولتك مازالت تائهة بين أحلام غير مكتملة. بنيتك وقوة بدنك وعافيتك تخون كل من يراك. لم تختبر السفر. لو تركتك البارحة لضعت في أوهامك، وربما فنيت على أرض ليست أرضك. كان لزاماً عليّ أن أظل معك. وصاحب الخان هو والد زوجتي وهي تنتظرنا الآن لتناول الغداء معاً ثم تواصل سفرك. سأترك معك عنواني في ستون تاون. مرحباً بك في أي وقت يا ابن البحرين.

يبدو بيت صالح صغيراً مقارنة بالقصور والمباني المطلة على البحر والمرفأ. جلسنا إلى مائدة شاركتنا فيها زوجته ووالدها صاحب الخان وعياله الثلاثة الصغار. وانقسم حديثنا بين العربية والسواحلية. وتولى صالح ترجمة ما أقوله لهم. وعرفت أن صالحاً زنجباري من أصول عمانية، حيث هاجر جدّه من صور، وعمل في سفن تاجر من مطرح، يقضي ستة أشهر في زنجبار. وذكر صالح أنه لم يرَ الساحل العربي إلا عندما كبر وعمل في الملاحة مثل جدّه، ولكن

حنينه يشاغبه دائماً إلى حيث دفن سرَّه، في هذا البيت الصغير الذي ورثه من أبيه.

بعد الغداء جلسنا خارج الدار على مصطبة من الخشب، وقدمت لي فناجين الشاي. مرَّ علينا الكثير من الجيران يحيّون ضيفهم الشاب البحريني المبعوث في مهمة خاصة. وتفاجأت عندما تحدث صالح عن فقدانه لطفليه التوأم، فأخبرته: أنهما ماتا غرقاً في البحر. استغرب من صحة كلامي فحدثته بما رأيت ليلة البارحة بعد أن نام. ردد بصوت حزين: إن قلبي صادق رغم الشرور البادرة مني أحياناً، بسبب رفضي للمظالم، وهو أمر طبيعي عرفه ليلة وضع كفه على صدري ليمنع شياطيني من الانتقال إلى البَحّارة. وقبل أن أغادر قدمت لي زوجة صالح «كومبي» وهو كأس كتبت فيه مجموعة من التعويذات والنصوص القرآنية بالسُّخام على طبق نحاسي ثم أذيبت في ماء وسكبت في الكأس. شربته دفعة واحدة واثقاً من نواياها وصدق صالح وزوجته السمراء اللطيفة. وبعد صلاة العصر عدنا إلى الخان. أخذت صندوقي من أمانته وذهبنا نحو السوق. ودعت صالحاً كما أودّع صديقاً عزيزاً سيصبح مع الأيام القادمة أخي الكبير الذي لم أعثر عليه في البحرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

لم أتخيل أن تنقضي رحلتنا في أقل من أربع ساعات، وأنا جالس فوق عربة يدفعها بغل نشيط، يقوده سائس زنجباري ناحل طويل الوجه وكثير الابتسام والحديث الذي لا أفقهه لولا حركات يده المعبرة. أمسكت مظلة مهترئة تقيني من قوة الشمس ونحن نقطع السكك والطرق تحت بطش الحرّ والعرق والرطوبة. خفف الجمال الطبيعي الذي يحيطنا من أشجار جوز الهند المنتصبة بين أعشاب نضرة في تربة حمراء لم أرَ مثلها سابقاً. على يميننا شاطئ مرجاني طويل لم يغب عن ناظرينا. تهبّ علينا بين وقت وآخر نسمات عليلة تخفف من الحرّ ووهج الشمس. بحر تتدرج ألوانه من الأخضر الخفيف إلى الأزرق الناعم. بين قرية وقرية يرافقنا أطفال شبه عراة مرددين «جامبو بوانا» وكانت أول جملة فهمتها من كثرة تكرارها، وبعد محاولات عديدة من السائس في شرحها لي.

قبل حلول الأصيل وصلنا قرية صغيرة مسجونة في الصمت إلا من هدير الموج وحفيف شجر جوز الهند ونداء الطيور والعصافير العائدة إلى أعشاشها قبل حلول المغيب. توقف السائس عند سوق القرية. حيث يعرض الباعة السمك والقواقع والمحار وبلح البحر، إضافة إلى الفتائل والشموع والسجائر. سأل السائس عن عنوان البروفيسور الإنجليزي ماثيو. ومع كثير من الكلام والأخذ والرد والإشارة نحوي بصفتي الضيف القادم الذي يبحث عن هذا العنوان. سرنا نحو باب مزرعة مفتوح، نبح في أثرنا كلب سلوقي أسود، تبعته في النباح أنثى حمراء. وصلنا عند ثلاثة أكواخ، خرج من أحدها عامل أصلع يُدعى أبا بكر. دخل مع السائس في حديث طويل ومتشعب، وكانا يشيران إليّ. تقدم نحوي أبو بكر وصافحني، وقال كلاماً لم أفهمه ثم تركنا وتوجه نحو أربعة منازل مبنية من الطوب ومطلية باللون الأبيض تصطف أمام شاطئ البحر.

بدت المزرعة كبيرة وبلا نهاية، تحفُّها أشجار جوز الهند والذرة والمانغو والموز والأناناس واليقطين والمَنِيْهُوت الذي يشكّل وجبة رئيسة بجانب الرز. ونوع آخر لا أعرفه يمتاز برائحة فواحة لفحتني. وبعد وقت قصير تقدمت نحونا شابة سمراء في منتصف العشرينيات من عمرها تحمل قنديلاً في يدها. سألتنا عن حاجتنا فتحدث معها السائس بالسواحلية. اقتربت ورفعت القنديل لترى وجهي وتتبين ملامحي. عادت بسؤالها إلى السائس؛ إن كنت من عمان؟ فأخبرها أنني من أرض تُدعى البحرين وأحمل رسالة للبروفيسور ماثيو. رحبت بي باللغة الإنجليزية وعرفتني باسمها؛ نظيرة. غمرتني السعادة وأنا أحيّيها وأترك للساني حرية التحدث بالإنجليزية معها. أخذتنا أنا والسائس إلى داخل أحد البيوت المطلية باللون الأبيض.

تركتنا وعادت بعد قليل ومعها امرأة في الستين من عمرها، سوداء اللون وترتدي فستاناً مثل السيدات الإنجليزيات والأمريكيات. سعدت حين عرفتني باسمها؛ ماريا. سيدة تمتاز بقوة جسدية ورشاقة رغم تقدمها في العمر، ترتدي حلية أفريقية وعلى عنقها تتدلى سلسلة مزينة باللؤلؤ تصل إلى نهر نهديها المشدودين. جاء خلفها شاب أسود في منتصف العشرينيات يشبهها تقريباً مع فحولة خالصة يُدعى آهان، وهو ابنها الذي يصغر نظيرة بسنتين. صافحني باهتمام وطلب مني الجلوس فاخترت كرسياً مصنوعاً من الخيزران ذا وسائد مطرزة برسومات لطيور ومحشوة بالريش. جلست الأم ماريا وابناها على أريكة وثيرة تقابلني وشرعا بالحديث عن أرض البحرين، وسؤالي كيف عرفت البروفيسور؟ وهل أنا طالب علم أو قرأت أطروحاته وأين قرأتها؟ ولكنهم تفاجأوا حين أخبرتهم أنني لا أعرفه شخصياً.

دخلت علينا فتاة خلاسية اللون، ذات شعر أجعد بني اللون في العشرينات من عمرها. ملامحها ناعمة وجمالها أخّاذ وتدعى أنطوانيت، خفيفة الحركة تقفز من مكان لآخر بسرعة طريفة، وتضحك وهي تتحدث. اختفت ثم سمعتها وهي واقفة أمام الباب تقول بصوت باسق: بأنني من البحرين، وأحمل رسالة من مايك! جاءت إيزابيل وهي سيدة سوداء اللون في منتصف الخمسينيات احتضنتني وأمطرتني بالأسئلة عنه. شعرت بالقلق وأنا أجيب عن أسئلة لا أعرف إجابات معظمها، لاحظ عليّ ذلك آهان وقال بشكل حازم: أنت ضيفنا يا عبد الله ومسكنك معنا حتى تقابل أبي نزنجي. ثم أردف: أنت تعرف العجائز، ينامون معظم الوقت. غداً صباحاً تجلس معه.

أبلغتهم أنني أحمل رسالة إلى البروفيسور ماثيو. فقفزت أمامي أنطوانيت وقالت: سوف يأتي أبي الآن، لماذا أنت مستعجل؟ شرحت لهم، عليّ العثور على سكن لأنام فيه قبل تأخر الوقت، ولا أريد إزعاجهم بزيارتي المفاجأة. ضحكت أنطوانيت، وقالت نظيرة: لن تعثر على سكن هنا، إلا إن كنت تعرف أحداً من أهالي القرية. أنت ضيفنا مثلما قال أخي آهان. شكرتهم على كرمهم البالغ واستأذنتهم لأدفع للسائس بقية المبلغ المتبقي. ولكنهم رفضوا مغادرته. استأذنني آهان وذهب إلى أبي بكر، المسؤول عن العمال ليقوم باستضافة السائس.

في هذه الأثناء دخل علينا رجل إنجليزي في أوائل السبعينات، يرتدي بزة إفرنجية ويضع نظارة طبية، ويعتمر قبعة بيضاء من الخوص. سألني وهو يصافحني بسرور: ما أخبار البحرين يا ولد؟ نهضت احتراماً، كما فعل الجميع. تقدم نحوي فمددت يدي مصافحاً. جلس على كرسي من الخيزران قريباً مني بينما جلس البقية على الأريكة وظلت أنطوانيت واقفة قرب والدها. سألني كيف عرفت مايك؟ فأخبرته أنه جاء إلينا من مسقط، وعمل في مستشفى

الإرسالية الأمريكية قبل أن ينتقل للعمل عند الشيخ، ويعلن إسلامه ويتزوج أختي الصغرى. فرحت السيدتان وتساءلتا: هل تقع مكة في البحرين؟ فأخبرهما ماثيو أن البحرين بعيدة عن مكة! ثم طلب من النساء إعداد عشاء يليق بي، وقدم لي كأساً من البراندي وشرح؛ لماذا يفضل النوعية الفرنسية من هذا المشروب قبل الأكل، فشربت كأساً. وبعد أقل من ساعة، دعتنا أنطوانيت للعشاء، فخرجنا إلى الساحل.

زحف الليل بشكل كامل وجنّ الظلام إلا من نجوم وقمر شبه مكتمل، وشهب تضيع في مخدعها. أشعلت النساء فتائل الكيروسين حول مائدة طويلة توزع عليها الجميع وتُرك كرسي خاص لي قرب ماثيو الذي رفع كأس نبيذ شيرازي في صحة نزنجي الذي لم أره بعد. انضم إلينا ابن البروفيسور ويدعى ناثان، وهو أيضاً خلاسي اللون أجعد الشعر، اختلطت مورثاته بين العرق الأفريقي والعرق الأوروبي.

بعد العشاء أخرجتُ له رسالة سالم أو مايك كما يحبون تذكره، بل إن إيزابيل بكت ونادته باسم مسالمي. كان الأمر مفاجئاً وغير واضح بالنسبة لي، وبدا وكأنه هارب من فعلة شنيعة مثلي. قرأ ماثيو الرسالة على ضوء القنديل مستخدماً مكبراً للحروف، ثم طواها برفق وطلب من الجميع الخروج وتركنا وحيدين، ثم سألني عن سبب هروبي من البحرين؟ فحكيت له فعلتي دون خجل أو ندم. ابتسم وسألني عن عمري فأخبرته أنني على أعتاب العشرين. قال لي: لا تكذب، بنيتك ضخمة إلا أنك أصغر من ذلك بل أصغر من أبنائي. أخبرته بعمري، واستغرب، ثم قادني إلى غرفة مخصصة للضيوف ينام فيها ويستخدمها للكتابة.

حول مائدة الإفطار، لم أتمكن من الفرار من أسئلتهم الكثيرة والمتنوعة. فتحدثت وحاولت الإجابة قدر معرفتي على استفساراتهم في العديد من الأمور والموضوعات حتى وصلنا إلى موضوع الصرة. الأمانة التي أحملها معي وحذر منها سالم. طرق الصمت على الجميع، نهضت السيدتان وخرجتا مندفعتين نحو البيت الطيني الرابع الأقرب إلى الشاطئ. سمعت صوت الرجل يزعق على البروفيسور ماثيو منادياً إيّاه بالدكتور. استأذن ماثيو وذهب حيث ذهبت السيدتان. تحدثت مع الشابين والشابتين رغم شعوري بالتوجس والريبة اللذين ينثنيان عليّ مثل ثعبان هائل.

جاءت إيزابيل وطلبت مني الذهاب معها. دخلت غرفة يجلس على طرف سريرها المصنوع من الخشب رجل تجاوز الثمانين من عمره، يتدلى حَلَقٌ من العاج مثبت في شحمة أذنه اليسرى. ضعيف رغم مكابرته بقوة تخونه ويعاندها ببطولات أسطورية خاضها في الماضي. تناول عكازاً واقترب مني،

تأمل وجهي ثم سألني عن اسمي. فكّر كثيراً ثم عاد إلى السرير وجلس على طرفه. رفع عينه نحو زوجته ماريا وقال لي:

افتح الصرة وأرنا ما تحمل يا عبد الله إن كنت صادقاً.

لا أعرف ما تحتويه الصرة يا سيدي، لكنني على استعداد لفعل ذلك.

وقبل أن أَهمَّ بفتحها، شعرت بخوف يجوب الغرفة وينتشر مثل موجة ساقطة من سفح عاصفة مجنونة، أتخيلها تضربني وأنا في الغربة. سَرَتْ في بدن السيدتين رعشة من الروع بدت ظاهرة وواضحة عليهما، في حين حاول البروفيسور استشفاف صدقي من كذبي. لم تتمكن السيدتان من البقاء، فخرجتا وهما ترددان كلاماً كثيراً غاضباً بالسواحلية، بل إن ماريا قالت لماثيو بإصرار قبل أن تخرج بالإنجليزية:

على الضيف أن يغادر ويأخذ معه ما أحضر!

هممت بحمل الصرة والخروج فأوقفني البروفيسور وتحدث بالسواحلية مع نزنجي ثم قال لي:

علينا أن نرى ما يتحدثون عنه. أنت شاب يافع يا عبد الله، ولا تعرف ما مرت به هاتان السيدتان. إنك لا تعرف حكاية ما كنت تحمله معك؟

هذا صحيح يا سيدي. أتذكَّر خوف والدي، ولكنني لم أعِر الموضوع أي أهمية. وأنت تعرف لماذا جئت إليكم. أما أمر الصرة والحجر الذي تتحدثون عنه فلا علم لي به. أشكر لكم استضافتكم لي، وأعتذر عن سوء الفهم الذي سببته لكم.

أسند نزنجي ظهره ورفع عصاه وأشار إليّ:

لقد دوختْني البحار أيها الشاب، وغازلتْني جنيات البنادر والمرافئ، وينبغي عليّ ألا أشك في نواياك. أنتم الأطفال ترثون شكوك آبائكم دائماً. وأنا لا أريد أن يرث أبنائي هذا الجنون. افتح الصرة أو ضعها أمامي ودعني أتقبل مصيري الذي تأخر أكثر من أربعة وأربعين عاماً. إن نجاتي من الموت أكثر الأمور الغامضة في حياتي، وعليّ معرفة سبب كل ذلك. اتركوني في الدار واخرجوا من المزرعة. أنا لها يا دكتور!

ما الذي تتحدث عنه يا نزنجي؟

هي اللعنة يا دكتور، حملناها معنا من زنجبار قبل أن تغرق السفينة.

عن أي لعنة تتحدث يا نزنجي. العواصف تحدث في كل وقت ومكان.

لا يا دكتور، عين السماء تتربص بنا.

لقد تمكن منك الكبر يا نزنجي وزادت هلوساتك.

استولى الضيق على بدني وشعرت بالخَرَع من كلامهما الغامض. وضعت الصرة أمامهما. رمقني نزنجي ولمحت في عينيه إصراراً غريباً بفتحها بنفسه. وافق ماثيو على مضض وقال له: لن أخرج، سأظل معك يا نزنجي. تحول هذا العجوز إلى بحّار سمج مفتول العضلات، ذي بنية قوية. استند إلى الجدار، وبترقب جلس ماثيو على كرسي خشبي يكتنفه الصمت وتملأه الدهشة. فك نزنجي الصرة ببطء وحذر، حتى وصل إلى قطعة من عمامة ممزقة. عم الضوء الأحمر في الدار. خفتُ من هول اللحظة وخرجت مسرعاً، متوقعاً حدوث بلوى!

سرتُ نحو الشاطئ ساهماً، تكبر في رأسي أسئلة كثيرة لم أكن أعرف عنها أي شيء. قصدت بعدها باب البستان راغباً في المغادرة. نادتني السيدتان وفي صوتهما يسكن ارتياع من سنوات طويلة: ماذا جرى لهما؟ لم ألتفت ولم أقل أي شيء، حتى سمعت أنطوانيت تناديني وتقترب مني مسرعة. وضعت يدها على صدري تأمرني بالتوقف متسائلة: من أنت؟ وقبل أن أجيبها أضافت سؤالاً آخر: ماذا حدث بالداخل؟ أخبرتها بأنني لا أعرف شيئاً سوى أنني رأيت ضوءاً أحمر اللون ينتشر في الغرفة، ضوءاً ينثر الخوف. سمعت صوت البروفيسور يناديني وينادي أنطوانيت فأمسكت بيدي وأعادتني إليهم. جلسنا في البيت نفسه الذي استقبلوني فيه ليلة البارحة. انضم إلينا نزنجي: في عينيه اضطراب، وفي قلبه كدح، وفي عقله بلبلة.

ظلوا يتحدثون باللغة السواحلية والإنجليزية معاً. يتجادلون فيما بينهم بكلام كثير، غريب ومثير حول ما حدث في كوخ نزنجي لحظة فتح الصرة. حاول البروفيسور شرح ما حدث بشكل علمي لم يستوعبه أحد، بل إن ماريا طلبت من زوجها نزنجي قول الحقيقة. انعقد لسانه واختلج قلبه، وردَّ متلعثماً: هو ما قاله الدكتور. نفت ماريا ذلك بحدة، وأكدت أن ما تراه في عينيه مشبع بالاختلاق والافتراء. وأنهم شهدوا وهم الموجودون في الخارج بروز علامات كثيرة من الارتياب غطت المزرعة. وأكدت إيزابيل ذلك: لقد شحبت السماء حتى بان عظمها، وحلقت أسراب من الغربان العوراء والبرصاء ثم حطت على سقوفهم وظلت تنعب نعيباً خانقاً ذكَّرهم بحادثتين لا ثالث لهما. الأولى لحظة غرق السفينة عندما كانوا مقيدين في القبو، والثانية لحظة سقوط مسقط في وادي جهنم.

استغرب البروفيسور هذا الكلام وسأل أبناءه وأبناء نزنجي. نفت نظيرة ما سمعت؛ لأنها انشغلت في الكوخ تعجن دقيق الكعك. ولكنها قالت إنها سمعت نعيق طيور. وتردد ناثان في تأكيد أو نفي شيء مما سمعه؛ لأنه عائد للتو من رحلة قضاها منذ الفجرِ على صهوة حصانه وبرفقةِ كلاب والده السلوقية. أما

آهان فرفع يده رافضاً التعليق على ما يقال؛ لأنه أصْبَحَ في شك والتباس منذ لحظة وصول الضيف البحريني، خاصة ما يراه ويشعر به من دبيب للخوف يتسلل في جسد والدته ماريا وخالته إيزابيل، وكلام كثير يقال بين عمال المزرعة. أيقنت لحظتها أنني شخص غير مرحب به، وأن كلام آهان صريح وواضح، وعليّ النأي بنفسي عنهم والابتعاد بسرعة، خصوصاً أنني سمعتها صراحة قبل ذلك من والدته ماريا.

توجهت أنظار الجميع نحوي ونحو أنطوانيت المنتظرة عند الشاطئ لمعرفة ما يجري في الداخل. رأت شبح أمها وخالتها يلج نحو غرفتيهما. فضولها الجامح يجبرها على معرفة بعض ما مرت به هاتان المرأتان اللتان عصفت بهما رياح الماضي النكباء والقاسية. ويهمها معرفة حكايات الأمس، وهي الفتاة الشغوفة، الباحثة عن تفسير علمي. لمحت أنطوانيت مستنجداً بها، ولكنها اختصرتْ كل ما حدث وشهدت عليه بكل حيادية في جملة قصيرة واضحة: هو ما قالته أمي وخالتي ماريا. فاندلق الجدال من جديد بين الجميع، وكاد يتحول إلى خصام بين المرأتين وزوجهما. ثبت أنني غراب شؤم نزل على هذه العائلة، ولم يكف عن النعيب على جدران غرفهم. وعليّ الانسحاب قبل أن تخرج عليهم شياطيني الوحشية وتنثر الدم والحقد والموت بينهم. بهدوء تناولت الصرة المتروكة على طاولة الشاي الصغيرة. قبضت عليها وتوجهت نحو الباب أهم بالخروج، فضرب البروفيسور ماثيو بيده على ذراع الكرسي المصنوع من خشب الخيزران وهو يأمرني:

لا تخرج يا عبد الله. أنت لست ملاماً فيما يحدث بيننا. للماضي أثقال لا تزاح عن كواهلنا حتى لو غفرنا له.

ثم أردف:

على من نضع لائمة الماضي؟

بعد هُنَيهة صمتٍ قالت ماريا بوجع، وهي تنكأ جراح تاريخهم معاً:

لم تذق علقم ماضينا يا دكتور. لم تقتت الألم الذي يعلق في اللسان طوال الليل وفي أطراف النهار، وتستطعم مرارته وأنت تتقدم في العمر، وتحاول نسيانه وأنت ترضع أطفالك، وتكتشف أنك تغذيهم هذا الماضي المبرح.

نهض من مقعده واتجه نحوها واحتضنها فنحبت على صدره. بكت أنطوانيت وخرجت، تبعتها نظيرة ثم آهان وناثان. قال نزنجي وهو يحاول إخفاء الضوء المباغت، وكتمان ما حصل له مع البروفيسور:

يجب ألاّ نلوم هذا الشاب البحريني على ما وقع علينا جميعاً، وأكرر، علينا أن نستمع لرأي الدكتور.

ولكنني أود المغادرة يا سيدي.

هكذا أخبرتهم برغبتي في المغادرة والعودة إلى ستون تاون. لم يعترضوا. ولكن البروفيسور طلب مني البقاء معهم عدة أيام لحين دراسة المخطوطات المكتوبة بالعربية، فربما يكشف بعضاً من أسرار هذا الحجر الممسوس. وأنه يحتاج إليَّ لترجمتها وشرحها له. أبديت عجزي وعدم معرفتي بكل هذا الذي يتحدثون عنه. فأقنعني بأنني لست مطالباً بالكثير سوى نقل ما هو مكتوب بالعربية وشرحه له.

أبدوا موافقتهم، كما امتثلوا لاقتراح البروفيسور بإرسال الحجر إلى أحد مختبرات لندن لفحصه والكشف عن مكوناته الجيولوجية ونوعه وقيمته الفعلية. واسترسل في محاولة إقناعهم بالقول: إن الحجر قد لا يزيد عن كونه مجرد حجر ياقوت أحمر لا تنطفئ شعلته. وأن اعتقادهم بأنه سحر ليس إلا لضوئه، وأما عن كونه حجراً مقدساً فهذا أمر لا يستطيع الجزم به، ويتطلب بحثاً طويلاً واستشارات علماء متخصصين، ولحين قيامه بذلك، عليهم التحلي بقليل من الصبر. ثم نهض أمام الجميع ووضع الصرة والمخطوطات والقراطيس في خزنة حديدية يحتفظ فيها بالأشياء الثمينة. وكنت أعتقد أنها تخص التجّار فقط، يحفظون فيها ما يملكون من أموال وصكوك يتاجرون بها.

في اليومين التاليين، غدوت أقضي نهاري بالجلوس عند شاطئ البحر أو السير بين أشجار البستان، غير متيقن من شيء سوى صمتي، ومحاولة استعادة ما مررت به في البحرين وأنا أفتح صدري على أسئلة بلا إجابات: ما الذي دفع أبي لترك قريته في بلوشستان والقدوم إلى البحرين؟ ولماذا دسَّ معي تاريخاً غامضاً مربوطاً في صرَّة؟ ولماذا أرسلني إلى هذه العائلة؟ ما الذي يربطه بهم؟ أسئلة كثيرة أضاعت عقلي وأنا أفكر في أجوبة لها. هدأ عقلي ثم فتر مع الأوراق حين بدأت بفك حروفها العربية وأنا في حضرة البروفيسور الذي صار يناديني بعبد الله الدُّرَّاج، أسوة بطائر الدُّرَّاج الذي يشبه الحَجَلة التي جاء على ذكرها أبي يوسف في الكثير من الأوراق المخطوطة بقلمه. شاركتنا في البحث أنطوانيت ونظيرة اللتان تكفّلتا بالبحث في الكتب والمعاجم الإنجليزية عن مفردات عجزت عن شرحها أو تحتاج إلى استبيان أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

في الليلة التاسعة على بقائي معهم ضربني بعصاه، وقال لي: قم، لا ترتدِ نعليك، احمل القنديل في يدك ولا تشعله إلا حين أطلب منك ذلك. هكذا أمرني نزنجي، وأنا في سكرة النوم، أوسع أحلامي وأمتهن كل الماضي الذي تركته يحترق على دكة مرفأ المنامة من وجوه وأماكن وأصدقاء. رمقته من طرف عيني، لكزني مرة أخرى فنهضت مُسْتفِزّاً. جلست والنعاس يخالط عيني، وسألته:

ماذا تريد يا سيدي؟

قم، اتبعني.

ماذا تريد مني يا سيدي؟

مدَّ عصاه وضغط بها على قفصي الصدري. حاولت الإمساك والدفع بها بعيداً عني. خزرني وبرطم في وجهي، وبصيغة العارف ببواطن الأمور قال: ثمة خوف يعشش في قلبك، وينبغي مكاشفته لتنتفي الحياة الزائفة. انهض عليك التحلي بالشجاعة لتعيش الحياة بعد ذلك كما تشتهي وتريد. ودون أن أفهم طاوعته، مبرراً لنفسي أنه رجل يضيع منه العقل وتتوه منه الحصافة، وعليّ مسايرته حتى يخلد إلى النوم من جديد أو تنجلي أفكاره الخرقاء. تناولت من يده القنديل وخرجت أسير خلفه حافي القدمين. لم أكن أرتدي غير إزار وقميص مبلل بالعرق. سار حافي القدمين. يتكأ على عصاه ويتقدمني باتجاه البحر. خاض في الموج بلا تردد. وقفت على الشاطئ. استدار نحوي وخبط بعصاه على البحر فطش الماء وبللني، ثم قال بصيغة فيها حِدّة:

لا طريق لك سوى البحر يا عبد الله.

وما ذنبي يا سيدي؟

الذنوب تورث يا عبد الله.

ركب قارباً خشبياً صغيراً وأخذ مني القنديل. أمرني بسحب المرساة ودفع القارب داخل البحر. فعلت ثم قفزت داخله، أمسكت المجداف وبدأت أجدف، وهو يشير إلى العمق بعيداً عن الشاطئ. حيث يفترش الظلام سطح البحر، والموج ساكن إلا من ضربات المجداف، وصوت طير نورس تائه في هذا السديم. قبل منتصف الليل بساعتين، سألته والحيرة تعتريني والخوف يسكنني:

ما الذي تنوي فعله يا سيدي؟

رأيت على وجهه علامات الفقد وتعب السنين ورجاء العاجز، وبصوت واهن قال:

لا أريد الموت مثل كلب أجرب يا عبد الله.

لماذا تقول ذلك يا سيدي؟

عليك أن تسمعني طالما نحن معاً في الطريق. مع حلول أصيل الغد سوف نفترق، تذهب في درب مقدر لك، وأذهب حيثما يجب أن أذهب بعد كل هذا العمر.

وتبسَّم وهو ينتهي من إشعال القنديل ويقربه من وجهه دون أن أعرف الغاية من وراء ذلك التصرف، حتى قال هامساً:

هل ترى وجهي؟ ألا ترى فيه غفوة الثعابين عندما تنتهي من التهام ضحيتها. لقد ورثتها من ثعبان التهم أخي الصغير في مومباسا منذ زمن بعيد، قبل أن أختبر الحياة على سطح السفن الكبيرة، وأمارس الفجور مع نساء مدن وبنادر نرسو على مرافئها. نساء يشبهن الإسفنج وهن يمتصصن ما يعلق بي من وحشة الإبحار وقسوة الرحلات وعصف الموج الذي يرمي بنا في أهوال لا يمكن لك أيها الشاب تخيلها.

علينا التخفف من ماضينا يا عبد الله، أنت؛ من جرم كبير قمت به قبل قدومك إلينا، وأنا؛ من خطايا قمت بها بسبب غلظة البحر والطاعة العمياء لسيدي الرُّبّان عبد الله التوانقي. هل تعرفه؟

لا سيدي. ولكن لماذا لا نعود ونتحدث عن كل هذا في الكوخ، فقد ابتعدنا عن الشاطئ.

يجب أن نتحدث هنا يا عبد الله. منذ أكثر من أربعة وأربعين عاماً، رست سفينتنا في ستون تاون. مكثنا فيها ثلاثة أسابيع. وكان سيدي الرُّبّان عبد الله التوانقي يغيب كل مساء مع رفيق دربه جواخ. عرفت أنهما يبحثان عن شيء ما يَهمَّ سيدنا، الذي يدفع مقابل ذلك مبالغ طائلة. ولكنني لم أعر الموضوع أهمية. كنت أتنقل بين نساء زنجيات وأخريات خلاسيات من أصول عربية، وأنام نشوان من خمور محلية، وفي الأسبوع الثالث طلبني سيدي للذهاب معهم. ركبنا البغال وعبرنا طريق محبس النور، وهو طريق معتم وعر تعيش فيه الحيوانات المفترسة وتتربص فيه الثعابين. تقبض يدي على الخنجر، وقلبي على سيدي المنشغل بترديد آيات قرآنية.

عند العشيّ وصلنا قرية تتكون من تسعة عشر كوخاً ونصف مقبرة. أخذنا الدليل بعد ضرب صدورنا بريش نعام ثلاث مرات. ثم أُدخِل سيدنا إلى كوخ يحرسه عبد ان صلبان، وطلب منا أنا وجواخ الانتظار في الخارج. مرَّ الوقت

طويلاً علينا، توجس جواخ لأمر ما قد يحدث للرُّبّان عبد الله، وأمرني بالسؤال، فوضعت يدي على الخنجر ودخلت دون مقاومة من الحراس. هالني ما رأيت: كان سيدي الرُّبّان عارياً إلا من إزار يستر عورته، ممدداً على حصيرة، تخرج من سُرَّته أدخنة سوداء خفيفة. رمقني كاهن تنجانيقي يشرف على هذا الطقس وأشار لي بأن لا أتحرك. ولهول المفاجأة جمدت مكاني وعيني تراقب الرُّبّان وهو في غيبوبة. تقف قرب الكاهن فتاة ناهد عارية بالكامل، خلاسية اللون لا تتعدى الخامسة عشرة من عمرها. دعاها الكاهن بطرف سبابته وهو يرتل كلاماً كثيراً، فوقفت فوق الرُّبّان عبد الله، مشرعة رجليها، ثم جلست عليه حتى كادت تلامس بطنه، وجعلت شقها فوق سُرَّته فيدخل فيها الدخان. جاءت بعدها فتاة أخرى في نفس العمر وقامت بما قامت به الأولى ثم الثالثة حتى جاء دور السادسة فانقطع الدخان الخارج من سُرَّته. أشار لي الكاهن بالخروج ولم أجد القدرة على الرفض أو مقاومة الأمر فخرجت.

طلب الدليل من جواخ الدخول. غاب قليلاً ثم خرج يتكأ على كتفه الرُّبّان، وهو متعب، وتسير خلفهما الفتيات الناهدات الست. قادنا الدليل في طريق معتم، ثم نبهنا بدخول سكة موحشة، ما إن دلفناها حتى بدأت أرواح أطفال تائهة ترمي بنفسها بين أفخاذ الفتيات باحثات عن فرصة للتسلل إلى مساكن جديدة تسمح لها بالنمو والتحول إلى أجنة بشرية.

بعدما انتهينا من كل ذلك سألت جواخ:

لماذا يفعل سيدي كل ذلك؟

رمقني جواخ وحاصرني بنار الحكمة ورمى السرَّ في قلبي وربط عليه قبل أن يقول:

إن سيدنا يطمح لذرية ترث البحار والمحيطات من بعده.

استعاد الرُّبّان عافيته وعلى وجهه علامات الفرح والسعادة، خاصة بعد قيام الكاهن بفحص الفتيات الست، ثم نوه بنتيجة فحصه في أذنه فتبسم وفرحنا لفرحه. حتى أمرني جواخ بمرافقة الدليل ومعنا ثلاث فتيات بصم عليهن الكاهن بحصافة وأخرجهن من كوخ الرُّبّان، وتوجبَ عليّ القيام بذبحهن بذريعة مناهضتهن استقبال روح طفل تائه، ورفضهن التصالح مع دم سيدنا. وحقَّ عليهن النحر للاستفادة من أكبادهن لإنجاح العملية مع الثلاث المتبقيات.

هل تدرك معنى أن تضع خنجرك على عنق فتاة صغيرة لينة وتنشرها حتى الموت، ثم تبقر بطنها وتنتزع كبدها؟ أنا نزنجي البحّار القاسي الذي استل أكباد الحيتان وصارع الأخطُبُوطات في بحار الصين والبنغال والعرب

والشاطئ الأفريقي، واغتصبت نساء عذراوات في لحظات طيش وشهوة منفلتة، وجدت نفسي موهوناً وخائراً وضعيفاً ولا أملك القدرة على تنفيذ طلب سيدي الرُّبّان. غضب عليّ وخيرني؛ إما القيام بهذا الأمر وإما طردي. قبَّلتُ يده وأنا أطلب منه إعفائي من ذلك، بل اقترحت عليه استئجار من يقوم بهذه المهمة. فبين لي مدى سرّية هذا الذي يجب ألاّ يخرج من فم أي واحد منا نحن الثلاثة. سحب كتاب المسلمين ووضع فوقه خنجره المعقوف المسنون وقال قولاً جاهراً: ستكون السفينة لك حال وصولنا مسقط، وفوقها جميع البحارة للعمل تحت إمرتك، فتكون رباناً بصَكّ مني، تتاجر في كل نقودي وأموالي، واللّه شاهد على ما أقول.

وغدت لحظة لا تُنسى عندما عقرت بالخنجر في اختطاف سريع عنق الفتاة الأولى، وتركتها ترفس برجليها وتُقوّس يديها، وتنزف مثل مصب نهر حتى فاضت روحها. ومثل شاة بعجت بطنها وأخرجت كبدها، وناولته للدليل الذي أخذه ثم عاد وهو يقود معه الفتاة الثانية والثالثة. في كل مرة أنحر فتاة، أخرج وأتقيأ وأعوي مثل ذئب مصاب بداء القلب. تبدلت حال السماء بحلول غيمة سوداء، ترامى صوت يشبه الرعد تردد صداه وسمع عويله أهالي زنجبار ومومباسا ودار السلام. انتثر الودق من جبل الآلهة الساكن عليها البرد والثلج، ولا يصلها إنس أو جان! طارت كل الطيور من القرية هاربة جزعة، وتفرقت الشياه والبقر خوفاً على صغارها، وغابت الثعابين في جحورها، وحفرت الديدان مخابئ جديدة لها في طين الأرض. سقطتُ في الحُمَّى والكوابيس حتى قرر الرُّبّان مغادرة ستون تاون.

قبل الصعود إلى السفينة محملين بالعبيد والإماء الذين اشتراهم الرُّبّان عند مفترق طريق محبس النور، رأيت معهم عبداً شاباً كلما فتح فمه خرج منه ضوء أحمر. وشاهدت جواخ يحمل صندوقاً مربعاً لا يزيد حجمه عن نصف ذراع. وعرفت أنه يحوي أكباد الفتيات الثلاث اللواتي قمت بذبحهن. قام الكاهن بتجفيفها بالدقيق والزيت. وعلى سيدنا أن يتناولها ومعاشرة الثلاث المتبقيات الذي أكد الكاهن على اقتران قنواتهن بأرواح أطفال ينتظرون الآن دفقة واحدة من حيواناته البليدة ليتشكلوا على هيئة أجنة تنمو في أحشائهن.

صعدنا السفينة، وقد جاورت الرُّبّان ثلاث فتيات خلاسيات أخذهن مباشرة إلى قمرته الخاصة، ووضع عليهن حارسين صلفين، وقفلاً حديدياً مصنوعاً في مومباي. ما لم أكتشفه يا عبد الله: أن سيّدنا أودع مع هؤلاء الفتيات حجراً مقدساً، شهد عليه الكاهن وخطف العيون ومنح الحيوية في بدن السفينة وهي تبحر من ستون تاون قبل أن تحل علينا ليلة الهيعة وترمي بنا في التهلكة. إن ما حصل لي لا يمكن أن أنساه أو أن أطويه بعد كل هذا العمر

طي المسلم للسجادة. لا، لقد حملت معي إثماً بثقل الجبال، طوح بسفينتنا ونحن في الطريق إلى مسقط.

رأيت في عينيه أسى خطيئة كبيرة، أكبر مما حملتُ وأنا أغادر البحرين. وعليّ إقناعه بالعودة قبل أن يقضي عليّ. وهالني عندما رأيت يده المرتجفة وهي تُخرج من تحت إزاره الصرة، فصرخت فيه: ما الذي ستفعله يا سيدي، ولماذا سرقت الصرة؟ ردَّ عليّ بكثير من الفجع الممزوج بالذنب: لنشهد معاً ما شهدتُ عليه سابقاً. وقبل أن أرد عليه أطفأ القنديل فقرَّ الدجن علينا فلم أبصر شيئاً، وأكمل هو فتح الصرة، انقضضت عليه، ولكنه دفعني بقوة حتى وقعت من القارب. أمسكت في اللحظة الأخيرة مقبض المجداف، وصرخت به ليسحبني ولكنه تجاهلني. استجمعت قوتي وسحبت القارب نحوي فمال، سمعت صوت نزنجي وهو يردد: لا تغرق القارب. تمكنت من الصعود. في هذه الوهلة السريعة تغيَّرت حالنا. هطلت علينا أصوات طبول من جهات مختلفة، سألته وأنا أرتعد وأنتفض وأجهش:

رحمتك يا سيدي نزنجي. رحمتك.

علينا دفع ثمن ما فعلناه في حياتنا.

ولكنني لم أفعل شيئاً.

لحظة خاطفة لم تمهلنا معرفة ما يحدث: اشتعلت النيران في السماء، وهبَّت ريح محنتنا الرهيبة. ندمت على قدومي إلى هذه الأرض الملعونة. وددت لو أنني أعدمت في البحرين ولا أرى نفسي أعاني لحظة عذاب أبدية طويلة مع رجل عجوز ومخبول. يفور الموج من ساعته ويطوح بالقارب يميناً ويساراً. أمسكت حبل المرساة وربطته حول بطني. فصاح بي نزنجي: تحرر يا عبد الله، لا تربط جسدك بالقارب. لك السماء: جنة المأوى. تفكك خشب القارب وتفلل كشرر النار، رفعتنا موجة هائجة نحو السماء فتشهدت مستسلماً لأمر اللّه منتظراً قضائه، ومتيقناً أن اللحظة النهائية قد حلت ولا مجال لردعها: الموت غرقاً في القاع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظتُ: في قلبي روع، وفي روحي جزع وأنا أسمع ناثان وهو يطرق باب الكوخ. جسدي يرشح عرقاً، ولم أصدق للوهلة الأولى أين أنا، وماذا حدث لي؟ استنشقت الهواء الذي خلت أنه هرب من رئتي لحظة استسلامنا الأخيرة، ونحن نغور وسط قاع مظلم وسخيم. بحثت عن نزنجي. الطَّرقات تزداد على الباب، وصوت ناثان يناديني. فأدركت أنني في الحياة. عيناي تنزحان نحو اليقين، وقلبي يرتب إيقاعه، وهوسي يزن الرحمة بعد حلولها عليّ. استجمعت قوتي ورباطة جأشي، وببطء نهضت وسرت نحو الباب وفتحته، رأى ناثان

على وجهي أثر الموت، وقال وهو يلهث مثل الكلب السلوقي: ما الذي يحدث لك؟ السيد المبجل نزنجي ينازع الموت.

التبس عليّ الزمن، وخفت من فقدان العقل وتلاشي التفكير مع نزنجي. جاءت الفكرة سريعة في ذهني؛ إن كان حياً قتلته، وإن كان مشرفاً على الهلاك أجهزت عليه، وإن كان في سكرة الموت أسرعت بها إليه.

بهذا القرار، لبست ثوبي وذهبت معه، سمعت صوت نعالي وهي تخبط على رمل البحر الأبيض المنثورة في الساحة بين البيوت والأكواخ وحدود جدول الماء الذي تبدأ من بعده المزرعة. استرجعت بعضاً من صواب التفكير وأنا أسمع ماريا وهي تناديني بالاسم، ينتظرني معها ابنها آهان. طلبت مني وهي تراني سابحاً في عرقي، شاحباً مثل عود قرنفل مجفف، بإشفاق وتحنن: احمله إلى البحر، سوف تودي به المنيّة قريباً. ترفق به يا عبد الله.

بات نزنجي مثل من أطاحت به عاصفة ورمته في الهاوية. عايننني بضعف ظاهر وأشار نحوي يغمغم. مسحت العرق الناضح عن جبينه وأدركت أنه انتشل من البحر لحكمة إلهية، وعلينا الآن، أنا وابنه أن نعيده إلى مكانه الطبيعي حتى تخرج الحيّة من أنفه أو إبهام رجله اليسرى. تجاسرت مع آهان وحملناه، وبدا أنه قد ازداد نحولاً وضآلة. لم يكن مريضاً ولم يعانِ من أي شيء سوى تلكؤ بعض أجهزته الداخلية عن العمل. هكذا وصف لَنا البروفيسور حالته ونحن نعبر قربه، وهو ما زال يرتدي مَنَامَته قبل حلول الفجر.

أرحناه برفق داخل القارب. جعلنا رأسه على فخذ ابنه، وقدميه على رجلي. دفع أبو بكر القارب داخل البحر، فاشتعل في قلبي هلع لما يمكن أن يحدث. وعليّ الانتباه لأي حركة متهورة يقوم بها هذا البحار المعتوه المصاب بالخرف. وأن تكون الدفة في يدي. ظل يرمقني طوال الوقت، حتى رفع يده محاولاً انتزاع حلق العاج المعلق في شحمة أذنه اليسرى. ملت نحوه ماسكاً بيدي اليسرى دفة القارب، وبيدي اليمني قلعت العاج المعلق من أذنه ووضعته في كفه. أخذه مني وأعطاه لابنه وتحدث هامساً. ولم يتمكن آهان من سماع ما يقوله، وضع رأسه قرب فمه وبالكاد سمع:

في هذه القطعة كل حياتي يا بني.

قبض آهان على الحلق ودسه في جيب بنطاله. ظل العجوز صامتاً، وأحياناً يتمتم بكلمات غير مفهومة. لأكثر من تسع ساعات كنا أنا وابنه نجدف مبتعدين بصبر مدهش عن الشاطئ ثم نتوقف ونترك الموج يعيدنا كسلاحف صغيرة يلعب بمصيرها موج ناعم وحنون. توقف عن الغمغمة، واصلنا التجديف على شريط الساحل، وبين ساعة وأخرى يسأل كل من يقف هناك، هل فاضت روحه؟ وكنا نردُّ عليهم بصوت عالٍ: لا.

قضينا تقريباً ما يزيد على تسع عشرة ساعة ونحن نتبادل التجديف في صمت، وكلما مرَّ الوقت يتحسس آهان أنفاس والده وهي تبطئ شيئاً فشيئاً حتى رفع رأسه ففهمت أن الحيّة خرجت من أنفه. حبس دمعته فقمت بالتجديف عائدين إلى الشاطئ.

رأتنا نظيرة فصرخت صرخة فهمها الجميع. المتواجدون في المزرعة أو داخل الأكواخ والبيوت جاءوا يتقاطرون علينا. خرجت ماريا مرتدية فستاناً قصيراً أسود أعدَّته خصيصاً لهذه اللحظة. وقفت باحترام ونحن ننزله من القارب ونأخذه إلى كوخه.

ونحن نحمله رأينا الحيتان والأخطبوطات وثعابين البحر والحبَّار والقروش المفترسة وأسماك النمر والتونة والينفوخ تتساقط من صدره. أمسى جلده متجعداً مثل صحراء. تنتشر بين مسامه حراشف سمك وأصداف مرجانية صغيرة، حتى أن ابنه آهان أخبرني فيما بعد أنهم قضوا بقية الليل في إزالتها كي يتمكنوا من غسله وتكفينه.

سُئلت ماريا: على أي دين يدفن زوجها أو يحرق؟ فقالت: يُصلى عليه صلاة المسلمين وصلاة المسيحيين ويدفن في مقبرة المسلمين القريبة من المزرعة. الرجال العظام يجب ألاّ تطفئهم النار، إنه مرشدي في هذه الحياة عندما أخذت ما أخذت، ومازال هو أجمل ما أعطت.

بعد الانتهاء من دفنه، أوثقت صندوقي الصغير واتفقت مع أحد رجال أبي بكر وهو يقوم برحلات يومية إلى ستون تاون بالسفر معه على مبلغ معلوم وافق عليه. ودَّعتهم فرداً فرداً. سألني البروفيسور عن محل إقامتي فكتبت له اسم الخان الذي سكنته مع صالح لحظة وصولنا. وعدني باللقاء، واعتذرت منهم مرة أخرى، وكررت لهم شكري على طيب الإقامة معهم.

فرح صالح بعودتي إلى ستون تاون، وشجعني على العمل في المرفأ عتَّالاً، والمكوث مؤقتاً على سطح الخان لحين تيسر الأمور. عدت أُمرن عضلاتي على حمل البضائع والصناديق ودفع العربات بين المرفأ ومخازن السوق أو على أسطح السفن البخارية الكبيرة. ووجب عليّ أن أمضي في حياة واضحة وجلية: تبدلت لغتي، تغيرت صنعتي، تحوَّل لوني، تحزمت بالخنجر المعقوف تحت خصري، وارتديت العمامة العمانية. اختفت شياطيني وأصبحت معروفاً في سكك ستون تاون وعلى مرفئها باسم: عبد الله البحراني.

وأقسم باللّه الذي رمى بي على هذه الأرض السوداء إنني لم أعصه، ولم أخدش صراطه، بعد أن فوضت أمري إليه وأنا في منفاي، محتسباً ما يجري عليّ في رضاء وإيمان كامل بالقضاء والقدر، حتى نزل عليّ خبر عظيم

وزلزل عقلي حدثٌ جَسِيم بدأت تفاصيله باندلاع حريقٍ في مزرعة البروفيسور، غيّر كل شيء من جديد!

النهاية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الإهداء..
الفصل الأول
غضب البحر
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل الثاني
اختفاء الدابة
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل الثالث
كرم الرب
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل الرابع
أعمرُ من حَجَلة
- 1 -

- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل الخامس
أيقونة الفراق
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل السادس
سَدَنَةُ الريح
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل السابع
بيت البَسّاسة
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل الثامن
أرخبيل الخوف
- 1 -

- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
سيرة الكلمات
الفصل التاسع
فتنة زنجبار
- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
NOTES

Notes

[←1] إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الآيات 10 إلى 12

إنجيل يوحنا 7: 1. [←2]

رسالة القديس يعقوب 15: 1.

[←3]

[←4]

سورة النجم، الآية ١٧. [←5]

سورة الرحمن، الآيات ١٤ - ١٨. [←6]

الكارتال: آلة موسيقية تشبه الأكورديون [←7]

القوالي: أقوال وأشعار المتصوفة في الهند وباكستان. [←8]

[9←]
أمير خسرو: هو أبو الحسن يمين الدين خسرو، شاعر هندي مسلم عمل في قصور سلطنة دلهي مع سبعة حكام بين العامي ١٢٥٣م و ١٣٢٥ م. اشتهر بقصائدة الصوفية التي تعد من ركائز الفن القوالي

إنجيل يوحنا، الآية 7. [←10]

ترجمة الشاعر العماني الدكتور هلال الحجري. [←11]

ترجمة الشاعر العماني الدكتور هلال الحجري. [←12]

[13←]
والبهرة: هنود يعتنقون المذهب الإسماعيلي عملوا بالتجاره واستوطنوا بالبحرين.

[←14]
فداوية: جمع فداوي من فداء، وهي وظيفة الحرس الخاص للتجار والأمراء والملوك.

باب النبي، باب الصفا، باب ابراهيم: من أبواب الحرم المكي العديدة. [←15]

[←16]

باب الزيادة: من ابواب الحرم المكي

سورة يس، الآية ٠.٩ [17←]

هكذا كتب في الأصل. [←18]